القراءة: قصص ومواقف

فراس حج محمد

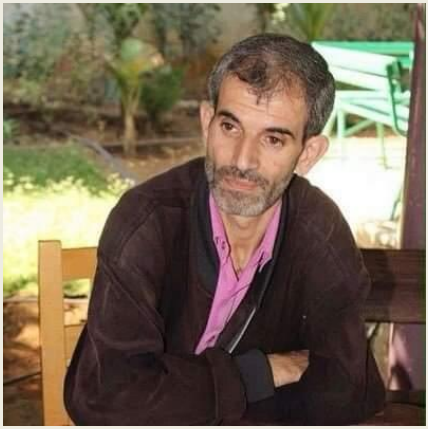

2026

الإهداء:

إلى كل من دفعته المعرفة ليكون أكثر حبّاً للقراءة بمفهومها الشامل

استهلال

في مدح مكتبتي

عنـــدي هنالـــك مكتبـــةْ أســـفار فكـــر معجبـــةْ

نقّبتهـــا فـــي خبـــرة كُتبـــاً تُعـــدّد مســـهبةْ

تحـــوي خيـــالات روت بالرائعـــات مرتبّـــةْ

والشـــعر فيهـــا هـــائمٌ بلحـــون فـــنٍّ مطربـــةْ

فيهـــا الليـــالي أنـــورت ولهـــا الشـــموس مُعَرّبَـــةْ

والفكـــر فيهـــا شـــامخٌ فـــي كـــلّ فـــجّ مَذْهبـــةْ

قـــد أســـكرتني خمـــرة والكـــرمُ يعصـــرُ أشـــرِبَةْ

جاوبتهـــا حاورتهـــا فحلَلْـــت ســـرّ المشـــتبهْ

قـــد داعبتنـــي فـــي الجـــوى أنـــوارُ علـــم مُخْصـــبةْ

وشـــغفت فيهـــا كـــالطّلى والحـــبّ فيهـــا مَرْتبـــةْ

وتغلغلـــت فـــيّ الكنـــو زُ جنـــت ثمـــاراً طيّبـــةْ

فعلـــت محاســـن نجمتـــي بالخالـــدات محبّبـــةْ

فأنـــا بغيـــر قـــراءةٍ ظِـــلّ يطـــارد ذَبْذَبَـــةْ

فأنـــا خلقـــت لهـــا وكـــمْ قـــد ناســـبتني المكتبـــةْ

شـــوقي لهـــا شـــوق الحيـــا فـــي أرض بـــورٍ مُجْدِبَـــةْ

فهـــي الصـــديقة دائمـــاً حتّـــى أوارى الأتربـــةْ

وهـــي التـــي قـــد أنجبتنـــي مـــن بعـــد مـــوتيَ كالهبـــةْ

وهـــي التـــي قـــد عرّفتـــ ـــني بالســـطور المُعْرِبـــةْ

أختـــال فـــي عـــزّ العـــلا لأســـير ســـير الكوكبـــةْ

ما يغني عن المقدّمة[1]

في كلّ مقالة تنشر حول القراءة، وفي احتفاليّات معارض الكتب الوطنيّة والدّوليّة، ثمّة أسئلة تثار في كلّ مرّة حول جدوى القراءة وفاعليّتها، تعيد التّفكير ذاته وأنت تقرأ هذا السّيل الكبير من اللّغة الإنشائيّة المادحة للقراءة، كأنّها العصا السّحريّة الّتي ستغيّر وجه العالم ومسار التّاريخ، وما يلاحظ على هذه المقالات، وخاصّة الصّحفيّة منها، ميلها إلى التّبسيط الكبير إلى حدّ السّذاجة، ما يدفع الإنسان في أحيان كثيرة إلى الضّحك المُرّ، لما وصلت إليه حالة التّفكير المفرط في استدعاء الخيال.

أتذكّر أحد المسلسلات المصريّة، لم أعد أذكر اسمه، ويظهر فيه الممثّل "هادي الجيّار" قارئا نَهِما، ماكثا في بيته، لكنّه كان، كما ظهر في المسلسل، سلبيّا إلى درجة تجعلك تعاف القراءة، وتكره الكِتاب، والشّيء نفسه يقال عن بعض المقالات؛ فلا جديد بين ثنايا سطورها، اللّهم إلّا من باب "ذكّر فإنّ الذّكرى تنفع المؤمنين"، ولكنّها للأسف لم تعد تنفعهم، بقدر ما صارت تضجرهم.

[1] نشرت أولا في مجلة الكلمة تحت عنوان: "حول القراءة ومظاهرها غير الثقافية"، وقدّم لها المحرّر بقوله: " يقدم الكاتب الفلسطيني أحد أهم الموضوعات ارتباطا براهن الأدب وسؤال الثقافة وجدوائيتهما اليوم في ظل ما يهده العالم من تطورات في آليات وقنوات الاتصال والتواصل، سؤال القراءة أحد أهم الركائز اليوم للاقتراب من المجتمعات المتطورة، ومن خلالها نتلمس حضور هذا الفعل داخل المنظومة المجتمعية ككل".

أضف إلى ذلك تلك الموجة العارمة الّتي تجتاح موقع "الفيسبوك" تحديدا، وصار الكتاب والقراءة، وقراءة الرّوايات في الأعمّ الأغلب شغلها الشّاغل، ونادرا ما وجدت قارئا من هؤلاء ينصح بقراءة ديوان شعر أو التّعرف على شاعر عربيّ أو أجنبيّ، قديما وحديثا، وكذلك فإنّ النّاشرين يفرّون من الشّعر والشّعراء، ولا تدري، ومعظم الفاعلين في تلك الصّفحات الفيسبوكيّة هم من الشّباب، هل كانوا يقرؤون فعلا تلك الرّوايات أم أنّهم يستعرضون قشرة أخرى من قشور الثّقافة، مع ضرورة الإقرار أنّ المواقع الإلكترونيّة تحوّلت إلى معارض كتب دائمة ومكتبات تحت الطّلب، ومتاحة مجانيّا، وتحتوي آلاف الكتب والعناوين في شتّى الموضوعات، وصار بوسع القارئ الّذي يمتلك جهازا ذكيّا وشبكة إنترنت أن يكون قارئا وباحثا لما توفّره تلك المكتبات الإلكترونيّة من مراجع مهمّة، جعلت الكثيرين يعزفون عن اقتناء الكِتاب الورقيّ، وصار الحاسوب الشّخصيّ والأجهزة اللّوحيّة، بأحجامها كافّة، وإمكانيّاتها المتنوّعة، عامرة بالكتب المتنقّلة، يحملها معه القارئ أينما ذهب، ما جعل القراءة تأخذ فعلا شخصيّا فرديّا بعيدا عن مظاهره التّقليديّة الّتي كانت سائدة بفعل سيطرة الكتاب المطبوع، مظاهر أكثر حميميّة وخصوصيّة. ما يعيد التّفكير كذلك بجدوى

إقامة معارض الكتب، لا سيّما وأنّها تتّصف بصفتين على أقلّ تقدير؛ الأولى ارتفاع أسعار الكتب ما يعني عزوف الجمهور عن زيارة تلك المعارض إلّا من أجل التّظاهر الكاذب والتقاط الصّور، ونشرها على الفيسبوك، وتجديد الصّداقات المشبوهة بين أنصاف الكتّاب وأشباه الكاتبات، وتتمثّل الصّفة الثّانية في الجهود المضنية المبذولة لعقد تلك المعارض والتّكاليف الّتي تنفقها الدّولة المستضيفة، تلك المبالغ لو أنفقت في أمور أخرى لكانت أكثر جدوى، هذا إن كان التّوقيت والظرف مناسبين لإقامة تلك المعارض.

وفي العودة إلى أقلام الكتّاب المادحة للقراءة. لعلّك تستهجن ذلك النّمط من الكتابة، ومضمونها المنافي غالبا للعلميّة والواقعيّة، فيربطون بين الشّعوب العربيّة غير القارئة، في حكم مطلق متسرّع، وبين الغرب، ذلك المجتمع القارئ المتحضّر النّهِم، التّوّاق للمعرفة، وغدت الفكرة مملّة لكثرة ما يعيدها الكتّاب في مقالاتهم، وليس ذلك وحسب، بل إنّ المسألة أضحت أبعد من ذلك إلى درجة أنّ بعض الكتّاب يُرجعون التّقدّم الحضاريّ الغربيّ إلى القراءة، وفقط القراءة، ولو كنّا شعوبا قارئة، لكنّا متقدّمين. فهل يظنّ الكاتب العربيّ والمثقّف التّقدّميّ أنّ سبب تقدّم الغرب هو لأنّ أفراده ومجتمعاته تقرأ أكثر منّا؟

أعتقد جازماً أنّ مسألة التقدّم الصناعي والمدني والرفاهية الغربيّة لا علاقة بالقراءة ولو بنسبة ضئيلة من الصحّة والمنطقيّة، فثمّة عوامل كثيرة للتّقدّم، ليست القراءة هي العامل الأساسيّ أو الثانوي فيها، وسؤال يَنْسِلُ نفسه من هذا السّؤال: هل نعتقد أنّ الغرب المتقدّم صناعيّا وتكنولوجيّا وعسكريّا أيضا، يقرأ أفراده النّهمين نظريات علمية ورياضيات وإستراتيجيّات حربيّة، بل ربّما أشارت بعض التّقارير أنّ المتفوقين في الرّياضيّات، مثلا، في الجامعات الأمريكيّة هم من الآسيويّين، وهذا بالطّبع يعيد طرح سؤال آخر: "ماذا نقرأ؟" عموما. على الرّغم من أنّ القراءة بحدّ ذاتها كفعل مجرّد لن يكون بمقدورها "إنتاج" أناس واعين بالقدر الكافي للدّفاع عن المصالح العليا لأيّ أمّة من الأمم، لأنّنا شعوب عربيّة فقدت الحسّ الجماعيّ وأصبح التّفكير فرديّا أنانيّا يركّز على المتعة وقضاء الحاجات الأساسيّة، وتسحبنا الصّورة إلى فضاءات لا نعرف أنّنا انزلقنا في تعميماتها المبهرجة إلّا بعد فوات الأوان، والغرب أيضا يشترك معنا في ذلك، أضف إلى ذلك أنّ أكثر الكتّاب شهرةً في فرنسا، مثلا، الّذين يتمتّعون بمقروئيّة عالية هم من يهاجم الإسلام أو كتّاب الرّوايات الجنسية والمغامرات، وهذا النوع من القراءات لا يخلق تقدما حضارياً متنوراً، ولا أظنّ أنّ العالم، بما فيه فرنسا، قد

تغيّر كثيرا. فالقراءة، كالكتابة، هي فعل ذاتيّ، وليست فعلا جمعيّا، وبناء على ذلك، لا تقاس القراءة بفعلها التّقليديّ بالوعي الجمعيّ إلّا إذا كان قياسا مغلوطا يؤدّي إلى الوعي المُزيّف.

وسؤال آخر قد يقفز حادّا مواجها الذّات وهو: هل نعتقد أنّ صناعة الكتاب في الغرب، وهي مرتبطة فعلا بالقراءة، ذات نتائج إيجابيّة في مسألة الحضارة؟ لا أعتقد ذلك، ولو من باب الأحلام الورديّة، فصناعة الكِتاب في الغرب، كصناعة السّينما، تحكمها العقليّة الاستهلاكيّة، والعقليّة الاستهلاكيّة عقليّة جبانة لا تفكّر بتوعية الجماهير على الأفكار الكبرى الفلسفيّة، ولننظر الآن إلى من هم أشهر الكتّاب الّذين يتصدّرون أعلى نسبة في المبيعات، عدا كتاب "نار وغضب" للكاتب الأمريكيّ مايكل وولف، وهو كتاب تحريضيّ سياسيّ فجّ، إذ لا يعرّفك إلّا على بعض تفاصيل الأفكار الّتي تراها عيانا في سياسة أمريكا الداخليّة والخارجيّة، عدا هذا الكتاب لا تجد كتبا فلسفيّة أو سياسيّة رائجة رواج الرّوايات تحديدا إلّا في حالات نادرة جدّاً كحالة هذا الكتاب الّتي لا تتكرّر إلا على فترات متباعدة.

ولذلك فإنّ من يصنع السّياسة هم النُّخب، والنّخب لا شكّ في أنّها مثقّفة، وذات ثقافة متنوّعة وحقيقيّة، وهذا أيضا ليس خاصّا

بهم، فنحن أيضا لدينا نخب مثقّفة، وعلى درجة عالية من الوعي، ولكنّها لم تحدث التّغيير المطلوب، فبلادنا من أغنى البلاد في القوّتين العظيمتين اللّتين تفتقد لهما معظم الدّول الصّناعيّة: القوّة المادّيّة المتمثّلة بالموارد الطبيعيّة وتنوّعها، والقوّة البشريّة العلمية والفتيّة اللّازمة للاستثمار حتماً، على عكس كثير من مجتمعات أوروبا المتقدّمة، وهي الموصوفة بالقارّة العجوز، بشريّا أوّلا على أقلّ تقدير، إن لم نقل صناعيّا وتكنولوجيّا وتجاريّا، فها هما اليابان والصّين الآسيويّتان متقدّمتان على تلك العجوز الّتي أخذت تعاني من التّراجع شيئا فشيئا، ولولا إرثها الاستعماريّ القديم لم يكن لها هذا الحضور السّياسيّ في مجلس الأمن. إذن، ثمّة أمر غائب عن العرب أو مغيّب يجعل تلك النّخب غير فاعلة، وغير منتجة، وبالتّأكيد فإنّ تخلّفنا، إن نحن فعلا متخلّفون، ليس بسبب الادّعاء المستفزّ "أنّنا أمّة لا تقرأ، وإن قرأت لا تفهم".

لعلّ الكثيرين سيرون فيما قدّمت أمرا غريبا مستهجنا، ولكن، يلزمنا أيضا أن نتأمّل قليلا هذه الظّاهرة الّتي لم يظلّ أحد يدّعي الثّقافة والعلم إلّا وركب موجتها وتشدّق بها في كلّ مناسبة، وأحيانا لا يحتاج الكُتّاب إلى مناسبات ليَخِزوا رؤوسنا برؤوس أقلامهم، كأنّنا

جهلة أميّون غارقون في العدم، وغيرنا في السّماء نجوم لامعة، "هداة مهديّون".

فليس بالقراءة وحدها تتقدّم الأمم، وتسود الحضارات وتزدهر، فامتداح القراءة بهذه الرّومانسيّة المفرطة تقرّب الأفكار إلى حدّ السّذاجة المطلقة، ليظلّ كلاما إنشائيّاً مدرسيّا متواضعا في أبعاده المعرفيّة، لا يصلح في حدّ ذاته أن يكون مادّة صالحة للقراءة.

لا يعني كلّ ما سبق ألّا نقرأ، وألّا نشجّع على القراءة لا سيّما الأجيال الجديدة، وألّا نهتمّ بمعارض الكتب، وألّا نقتني الكتب، أو ألّا نهتمّ بصناعتها بوصفها منتجا حضاريّا بالغ الدّلالة، بل إنّ كل تلك الوجوه هي من العلامات البارزة لأيّ ثقافة حيّة، ولكنْ من الضّروريّ أن توضع الأمور في نصابها الطّبيعيّ وحجمها الحقيقيّ، فالمثقّف، شاعرا وكاتبا وسياسيّا، يحتاج لقراءة الكتب وتأليفها بلا ريب، ولكنّه أحوج ما يكون إلى قراءة أخرى للواقع والنّاس وأشياء أخر كما أسلفت في مناقشة المفهوم المتفشي للقراءة، وهذا النوع من القراءة الشاملة هو ما تنتهجه الحضارات لتقدمها واستمرار إشعاع أفكارها وتوهجها العالميّ.

ماذا يعني الفعل قرأ؟

ورد في المعجم التاريخي للغة العربية/ معجم الشارقة ثمانية عشر معنى للفعل قرأ، فبدأ بما هو أقدم المعاني، وهي كما يأتي: قرأت الناقة قرْء وقراءة: حملت، وقرأ فلان قراءة/ تنسك وتعبد، وقرأت الحامل قرءاً: ولدت، وقرأت المرأة: رأت دماً قبل الحيض، وقرأت: طهرت، وقرأت الحاجة: دنت، وقرأت المرأة: حاضت، وقرأ الكتاب قرءاً وقراءة وقرآناً: تلاه ونطق بالمكتوب فيه، وقيل: ألقى النظر عليه دون أن يجهر به فهو قارئ والجمع قَـرَاءةٌ وقراء وقارئون،

وقرأ الشيء قرءاً وقرآناً: جمعه، وقرأت الناقة الجنين، أسقطته قبل ولادته، وقرأ فلان على غيره السلام: أبلغه إياه، وقرأ على فلان القرآن: روى عنه قراءته للقرآن، وقرأ الكتاب: أخذ عنه علمه، وقرأ بخط فلان: صيغة من صيغ أداء الحديث، تستخدم لرواية ما وجده الراوي من الأحاديث بخط شيخ لم يلقه أو لقيه ولم يسمع منه ذلك الشيء الذي وجده، وقرأ الحروف: تلقى الحروف المختلف فيها بين القراء مجردةً عن التلاوة، رواية أو سماعاً، ويطلق عليه أيضاً رواية الحروف وقراءة الحروف، وقرأ على فلان عند المحدثين: صيغة من صيغ أداء الحديث، تستخدم لرواية ما تحمله الراوي من الأحاديث

عن طريق القراءة على الشيخ، وقرأ للمستقبل حسابه: احتاط له، وقرأ ما بين السطور: فهم الأمر المضمر، واستشف المعنى الضمني.

وأما في معجم الدوحة التاريخي للغة العربية فورد أحد عشر معنى لهذا الفعل، مشتركاً مع بعض ما ورد في معجم الشارقة، ومسقطا البعض الآخر، ومضيفا إليها معاني أخرى، محدثة وحديثة، ومن هذه المعاني الأخيرة: قَرَأَ عَلَيْهِ الكِتَابَ وَنَحْوَهُ: أَسْمَعَهُ مَا فِيهِ، وقَرَأَ التَّارِيخَ: فَهِمَ عِبَرَهُ، وقَرَأَ الشَّخْصُ المُسْتَقْبَلَ: اسْتَشْرَفَهُ وَتَوَقَّعَهُ، وقَرَأَ الفِنْجَانَ : ادَّعَى مَعْرِفَةَ الغَيْبِ بِتَأَمُّلِ تَشَكُّلَاتِ الثُّفْلِ فِي قَعْرِ فِنْجَانِ القَهْوَةِ، وقَرَأَ الكَفَّ : ادَّعَى مَعْرِفَةَ الغَيْبِ، وقَرَأَ الشَّخْصُ الغَيْبَ: اسْتَشْرَفَهُ، وقَرَأَ الأَدَبَ: حَلَّلَهُ مُتَنَاوِلًا ظَوَاهِرَهُ الأَدَبِيَّةَ وَفْقَ مَنْهَجٍ مُعَيَّنٍ.

وبذلك تكون المعاجم والمدونة الأدبية قد أعطت خمسة وعشرين معنى للفعل قرأ، وبإضافة المعنى القديم الموجود في النقوش: "أمر، أو اجتمع، أو دعا" الذي يورده معجم الشارقة يكون المرء أمام فعل متنوع الدلالة وثريّ، ولعلها كلها تجتمع على معنى واحد أو معنيين، وعلى هذا المعنى جعل ابن فارس في مقاييسه مدار مادة (ق ر ي)

يقول ابن فارس: "القاف والراء والحرف المعتل أصلٌ صحيح يدلُّ على جمعٍ واجتماعٍ. من ذلك القَرْية، سمِّيت قريةً لاجتماع النَّاس فيها"، وحتى القرآن، والمرأة في قرئها (حيضها أو طهرها). وبذلك تبين المعنى الاجتماعي الحضاري للقراءة، وليس غريبا إذاً أن يبدأ القرآن الكريم بهذا الفعل المؤسس للاجتماع الإنساني على أساس التنظيم والتشريع والاجتماع ومحاربة الفرقة من أي نوع كانت وبأي وسيلة حدثت، إذاً ففكّ المكتوب المتجمع في كتاب أو في شخص أو في الكون أو نحو ذلك كلها تسترشد بمعنى الدعوة والاجتماع، وكل المعاني التي جاءت بعد ذلك إنما هي معانٍ ذات قيمة تاريخية ومجتمعية، فلا يصح وهذه حال الفعل ومعناه أن يقتصر فقط على النطق بالمكتوب أو التسميع به، فينسى أصل المعنى، ويظل القراء والباحثون والكتاب والمثقفون يلهثون وراء معنى لا قيمة له في ذاته.

إن ابن فارس في هذه الالتفاتة الجامعة بين القرية والقراءة يعطي للفعل معنى فلسفيا غاية في الأهمية، يؤكد بها ضرورة الاجتماع الإنساني القائم على التشريع والفكر، وهذه سنة إلهية كانت قائمة في قريش التي عرفت القراءة والكتابة، والاجتماع البشري على شكل تجمعات قَبَلَيّة، وفي بلاد اليمن ووممالكها، وفي كل

مجتمع مستقر، كما وجدت عند الإغريق والفرس، ووجدت عند حمورابي في شريعته، وفي نصوص الأساطير، وفي الكتب السماوية التي أنزلت لتقرأ ولتحافظ على ديمومة المجتمعات وتنظم علاقاتها، ووردت في الظاهرة القرآنية التي واكب تشكلها فعل القراءة وفعل الكتابة وفعل التنظيم المجتمعي الذي بدأ بالفرد ليغدو بعد ذلك مجتمعا منظما بالقوانين والتشريعات، فعاد الاعتبار للحمة الأمة واجتماعها والحذر من تفرقها، وكانت أداة عدم التفرق هو التشريع المكتوب ما إن تمسك به المسلمون لن يضلوا أبدا بعد رحيل النبي ووفاته، كما أبلغهم في آخر لقاء جامع له عليه الصلاة والسلام مع المسلمين.

ولعله من باب ربط هذه الحركة الفكرية العظيمة من أول مبدئها حتى آخر محطة فيها، نزلت سورة التوبة، وقرئت على الناس يوم الحج الأكبر، فهذه الحركة التي بدأت بالفعل الفردي (اقرأ) تنتهي وتستقر بالمشهدية الجامعة بقراءة سورة التوبة في تجمع المسلمين الأكبر، كما أن معنى الفعل (قرأ) متحقق في تلك المشهدية الباهرة وأكدها النبي الكريم في خطبة حجة الوداع.

إذاً، لم يكن هذا الفعل بأية حال من الأحوال فعلا كأي فعل، وإنما له هذا الأثر الكبير في حركة الاجتماع الإنساني، وربما من أجل

هذا صار العالم يشهد هذا الهوس بالقراءة والكتب والمكتبات، لأنه أدرك بفطرته أن لا حضارة دون اجتماع ودون كتاب ودون قراءة.

وعلى الجانب الآخر استهدف العدو ما عند الخصوم من كتب ومكتبات ومظاهر الاجتماع الإنساني الحضاري، كوسيلة من وسائل إبادته وتفكيك اجتماعه إما بتشريده وإما بجعله أقلية بلا صفة ولا هوية ولا ثقافة جامعة، كما تعرضه الباحثة روبيكا نوث في كتابها المهمّ "إبادة الكتب"، وإن لم يكونوا على وعي تام بهذه الفكرة، إلا أن الطبيعة المناوئة للفطرة عند هؤلاء الأشرار تجعلهم أعداء لكل فكرة أو أسلوب أو شيء يدعو إلى الاجتماع الإنساني المثمر.

واستطرادا وراء هذه الفكرة كان التأليف فعلا واجبا حضارياً، لأنه يوفّر فرصة للقراءة، وشهدت المجتمعات حركة تأليف نشطة، ولا سيما تلك المجتمعات التي تتعرض للإبادة الجماعية، فواحدة من وسائل مقاومة هذه الإبادة- عدا الإقبال على الإنجاب وتعويض خسائر الحرب البشرية- هو التحدي بالكتابة، وتوفر مادة للقراءة، لتدل على هذا الشعب المتحضر، وهذا ما شهدته بغداد على سبيل المثال بعد عملية "إبادة الكتب" التي نفذها التتار، وشهدها أهل غزة والعرب والمسلمين والمناصرين للحق والخير والجمال أن كتبوا

الإبـادة الأخيرة في كثير مـن الكتـب الشـعرية والسـردية والنقديـة التحليلية، إنها ظاهرة تستحق الدراسة والتحليل.

حول مسابقة تحدي القراءة العربي

تنطلق مسابقة تحدي القراءة[1] من فكرة أن القراءة فعل حضاري متقدم، يساهم في خلق جيل واعٍ، وله أثر ليس في النواحي المعرفية الشخصية وحسب، وإنما تأثير في النواحي الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع بشكل عام. فـ "المجتمع القارئ هو مجتمع متحضر، ومن يدعم القراءة يدعم صناعة حضارة، ويدعم اقتصاد معرفة، ويدعم بناء أجيال تبني مستقبل الوطن العربي". تصدر هذا المقتبس دليل المشاركين للمسابقة- متاح على الموقع الإلكتروني[2]- مع أنه يعطي القراءة حجماً أكبر مما هي عليه في الحقيقة، إلا أنه لا خلاف على أن القراءة الواعية، بمفهومها الشامل، أداة من أدوات فهم الذات؛ الذات الفردية، والذات الجماعية، وفهم الآخر، ذاتاً أو جماعة أيضاً.

كما أن القراءة، على مستوى القارئ الفرد، هي مؤشر فعال على بناء عقلية ناقدة مفكرة وحيوية، تعيد تنظيم أدوات التفكير وضبطها، وتوجيهها نحو أغراض محددة، وتؤسس في العقل بناء مرايا من الأفكار متعاكسة ومتضاربة، تشعل التفكير وتدفعه إلى

[1] تحدي القراءة العربي مشروع أطلقته دولة الإمارات عام 2015؛ لتشجيع القراءة لدى الطلاب في العالم العربي، ويلزم المشاركين بقراءة 50 مليون كتاب وتلخيصها خلال كل عام دراسي.

[2] https://arabreadingchallenge.com/

بناء منظومة جديدة من الوعي المؤسس على الفكر "المغربل" الصالح للعيش في البيئة التي ولد فيها. فالقارئ المرجو هو قارئ باحث، وليس قارئاً نهماً يغوص في الكتب من أجل المتعة المحضة.

في هذه الوقفة لا أريد أن أحول الكتابة إلى "مدحة" ممجوجة للقراءة، وإنما فقط أردت أن أؤسس لما أريد قوله في أهمية فعل القراءة على المستوى الفردي، للقارئ نفسه وللكاتب أيضاً.

أعتقد أنه لا كتابة جيدة دون قارئ جيد، ولا يوجد القارئ الجيد دون وجود كتاب جيد، والتأثر والتأثير جدلي، متشابك، يعمل في الاتجاهين، فالقارئ الجيد يدفع الكاتب لينتج كتابا جيدا صالحا للقراءة، والكاتب الجيد يدفع القارئ لقراءته، فيغريه بالفعل ليجره نحو كتابه. وأي كتاب يصدر لا يقرأ، فإنه لم يحقق هدفه، فالكاتب لا يكتب لمجرد أن يكتب، ويمارس هواياته، فالكتابة ليست لعبة للتسلية، كما أن القراءة ليست لعبة لتزجية الوقت. القراءة لا تقل خطرا عن الكتابة، القراءة فعل وجودي ضروري لوجود الكتابة، إذا غاب أحدهما غاب الآخر.

هذه الحقيقة ألتفت إليها خلال الاستماع إلى الطالبات والطلاب المشاركين في تحدي القراءة، وأغلب هؤلاء الطلاب "حافظ" من أجل المسابقة وليس "فاهماً" ما تعنيه المسابقة، وكأن ما هو

مسطور في التنظير للمسابقة مثالي جدا، مُسخ عند التطبيق، وبدا هذا المسخ في عدة جوانب:

- لم تبد الجدية بالمسابقة على أغلب المشاركين هذا العام (2024)، فأغلبهم اعتمد على قراءاته السابقة، المرصودة في "الجوازات" من العام السابق أو الذي قبله، فقد أتوا لتمثيل مدارسهم وهم غير مستعدين الاستعداد الكافي، فقد نسوا كثيراً من الأفكار المتعلقة بالكتب. ولعل الظروف العامة التي نعيشها في فلسطين كان لها الأثر السلبي جدا على أداء الطلاب وقراءاتهم، فالحرب المدمرة التي نعيشها يوميا والاقتحامات، وسقوط الضحايا، والاعتقالات التي وصلت إلى كل التجمعات السكانية حتى أكثر التجمعات هامشية وبعدا عن المركز، أضف إلى ما يشهده التعليم في فلسطين من تذبذب وتأرجحه بين التعليم الوجاهي والتعليم عن بعد، جعل المسابقة تبدو هامشية في الفعل المدرسي، مع أن هناك إشراقات مهمة، لكنها قليلة. وأقل بكثير من الأعوام السابقة.
- لم يتلق الطلاب المشاركون في تحدي القراءة اهتماما في مدارسهم، بما يساعدهم على أن يكونوا طلابا منافسين، فانعدم التوجيه الصحيح نحو الكتب، وكيفية التلخيص،

والتدرب على اللغة الفصيحة، والحديث والتعبير عن وجهة النظر، ولم يكن هناك إشراف مباشر على هذه العملية، ولم تقم المدارس بفرز أفضل ما لديها. بل اكتفت بتسجيل الطلاب في البرنامج، ثم حملوهم إلى مركز التحكيم، وكثير منهم لا يستحق أن يمثل بين يدي لجنة التحكيم التي تريد فرز أفضل الأفضل، فصار عمل اللجنة فرز الأفضل من بين الجميع، وهذه مهمة أرهقت اللجنة، وحملتها أكثر مما ينبغي لها أن تحمل وتتحمّل.

- تدني مشاركات الطلاب الذكور في المسابقة، فعلى مدار خمسة أيام من التحكيم لم يكن هناك سوى مدرستين مثلهما طلاب من الصفين الخامس والسادس.

- افتقدت المشاركات الطلابية من إستراتيجية محددة لفعل القراءة، عدا حالات قليلة، فالمشاركون أتوا إلى المسابقة وهم يحملون واجباً عليهم أن يؤدوه، لا مهمة مدروسة ذات أبعاد ثقافية وإنسانية، ولذلك لم أصل إلى قناعة أن الكتب المقروءة كانت ذات أثر في الوعي المؤسس للطلاب، لأنهم قرأوا ما تيسر، ولم يقرؤوا ما يلبي الرغبة، ويمتع النفس ويغذي العقل، فكثير من الكتب ليست ذات قيمة للقارئ الطالب

نفسه، لأنها أقل من مستواه العقلي، وبالتالي يصبح النشاط الفكري المرتجى من فعل القراءة، فارغاً من المضمون، ومحصلة القراءة صفراً.

- لم يتم توطين المسابقة لتعميم الكتاب الفلسطيني، فكانت نسبة حضور الكاتب الفلسطيني في هذه الكتب المقروءة لا يشكل أية نسبة معقولة، لغياب الاستراتيجية الأكبر من ضرورة توظيف المسابقة لخدمة الكاتب الفلسطيني وتعميم التجارب الكتابية التي أثبتت حضورها على المستوى العالمي والعربي، وهذا الأمر لا يخص الكاتب الفلسطيني، بل ربما انسحب على الكاتب الأردني والمصري والجزائري في بلدانهم المشاركة في هذه المسابقة، فلا بد من أن يكون للكاتب الوطني (فلسطيني، أردني، سوري، لبناني، وسواهم) حضور في إستراتيجية القراءة الوطنية، لأنه لا بد من تحقيق شرط المعرفة والتعرف على الكاتب المحلي، وعلى الأفكار المطروحة ومناقشتها ومقارنتها بالكاتب العربي الآخر، والكاتب العالمي، لإحداث فعل الوعي الشامل الذي بنيت عليه المسابقة أصلا، وأشارت إليه في أدبياتها المنشورة.

وبهذه المناسبة أودّ أن ألفت النظر إلى هذه المسألة؛ حضور الكاتب المحلي، والعمل ضمن خطوات واضحة لزيادة نسبة حضوره في المسابقة، إذ يمكن أن تتعاون وزارات التربية والتعليم مع اتحادات الكتاب ووزارات الثقافة ودور النشر والكتّاب أنفسهم في كل بلد على تعميم الكتاب الوطني على المدارس؛ إما بتبرعات، أو بأسعار مناسبة، ورفد المكتبات المدرسية بكل جديد كل عام، ليكون الطلاب على دراية بما ينشر في بلدهم من كتب، وأن يتعرفوا على كتّابهم أيضاً. مع وجود برنامج مدرسي موازٍ يعمل على تعميم الفكرة في الإذاعة المدرسية يومياً، وعمل الندوات الدورية، وما شابه؛ ليظل الفكر لطلابي في تطور، وفي توهج، من أجل المعرفة أولا وأخيراً.

- اتجهت أنظار القراء نحو الكتب المترجمة، وكتب الروايات والقصص، وغاب الشعر تماما عن القراءات، وغابت الكتب النقدية، وكتب علم الاجتماع، وكتب الفلسفة، وتدنى مستوى الكتب المقروءة لتكون متوازية مع ما هو سائد، ويتماهى مع الواقع، ما يجعل البرنامج عديم الفائدة في إحداث وعي اجتماعي يقوده الطلاب أو يؤسسون له، بوصفهم قادة المستقبل ومفكريه.

- كشف البرنامج عن ضعف المكتبات المدرسية، وعدم فاعليتها، وأن ما تكسبه المدرسة من مركز التطوير الخاص بالمكتبات المدرسية هو مجرد عبء على الوزارة والهيأة التعليمية، كما أن الضعف كان واضحا فيما تحتويه تلك المكتبات من كتب، يجعلها مكتبات فقيرة فعلا، وأن المدرسة تفتقر لبرنامج تفعيل للمكتبة المدرسية، وهذا ما كنت ناقشته في مقالة سابقة بعنوان"المكتبة المدرسية ضرورة"[1].

- مارس بعض الطلاب حيلا مكشوفة في تعبئة الجوازات المخصصة للمسابقة، في أنهم لم يقرؤوا جميع الكتب التي كتبوا عنها في تلك الجوازات، وإنما اتجهوا إلى ملخصات الإنترنت، ما انعكس سلبيا على أدائهم، ورؤاهم، كما أن هناك حالات لتعبئة جوازات الطلاب بنسخ زملاء المدرسة الواحدة، بعضهم عن بعض، ما أسس لنزعة "الغش" لدى الطلاب، وهذا ما يتنافى مع أهداف المسابقة وحيويتها. كما أنهم أيضا اتجهوا إلى بعض العناوين الداخلية وجعلوها كتبا مستقلة في عناوينهم، كأن يعد أحدهم قصة في مجموعة قصصية عملا أدبيا مستقلا، ليمارس نوعا من الخداع للجنة التحكيم. وبذلك

[1] مجلة عود الند الثقافية، العدد 81: 3/2013: https://www.oudnad.net/spip.php?article687

نقضي على الهدف الإجرائي الأساسي للمسابقة المتمركز حول (قراءة 50 مليون كتاب سنوياً).

- غالب الظن أن المدارس لم تُطلع الطلاب جيدا على المسابقة، وشروطها، وآليات التحكيم، ولم تعقد لذلك اجتماعات، ولم يكن الطلاب على علم ببنود التحكيم في الـ (Rubric) المعد لذلك، وهو متاح للمدارس، وموجود على الموقع الإلكتروني للمسابقة.

لا شك في أن هذه الملحوظات السلبية لم تفقد البرنامج أهميته، ويعوّض كثيرا عن غياب حصة المكتبة المدرسية، وإن جعلت القراءة قرارا فرديا، مدعوما بأساس التنافس على الجائزة، وكأن الطلاب لن يقرؤوا إذا لم يكن هناك جوائز، ونسوا- كما نسي معلموهم- أن أهم جائزة يحصل عليها القارئ هي المعرفة المتحصّلة من القراءة، وبناء فكر منتظم قادر على الحوار والمناقشة وسعة الأفق. فكل الكتّاب الكبار كانوا قراء نهمين، بل المفكرون والسياسيون هم كذلك أيضا، فالقراءة أداة مهمة من أدوات الحوار بين البشر، لأن القراءة بمقدورها التأسيس لفكرة تقبل الأفكار المتضاربة والمتصارعة، وإمكانية محاورتها، وفهمها على وجهها، وإن لم نتفق مع تلك الأفكار ونتبناها، إلا أنه يجب علينا-

نحن القراء- أن نحترم تلك الأفكار، ونعطيها شرعية الحياة، ففكرة "المكارثية" الفكرية والثقافية يجب أن تحارب من هذا المدخل، فشرعية الحياة للفكرة مهما كانت هي شرعية الحياة لأصحابها، ولا يعني بالضرورة أنه يشكل خطرا وجوديا على الآخر، فللناس أفكارهم، ولنا أفكارنا، وهذا لا يعني أي فكر تصالحي ألبتة لفكرة التدجين الثقافي والانصياع لأفكار الآخرين، إنما هو إعادة تذكير بطبيعة الحياة في أنها مختلفة، وحيويتها في اختلافها، فكرا وتنظيما وأسلوب حياة، "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ"، وبغض النظر عن التفسير العقدي للآية الكريمة إلا أن مبناها يحتمل شرعية الاختلاف البشري في كل شيء، فهذه هي طبيعة الحياة التي لا يشك بهذه الطبيعة أي عاقل.

إن ما أشرت إليه من "سلبيات" ليست خاصة بفلسطين وحدها، بل ربما لاحظها محكمون آخرون في بلدان أخرى، وربما في بلد المنشأ أيضاً، ومع ذلك يمكن تجاوز تلك "السلبيات" بالعمل المدروس، والمتابعة المستمرة، ونقل فكر الطلاب من فكرة التحوصل نحو "ميكافيلية" القراءة إلى فكرة "الفاعلية الحضارية" للقراءة من خلال كادر مؤهل يتابع ذلك في المدارس عن كثب، وأن يكون بموازاة هذا البرنامج برنامج كتابي أو إعلامي على المستوى

المدرسي، يجعل المدرسة بنخبها الطلابية وحدة مجتمعية فاعلة ومؤثرة. بهذا- ربما- سنكون عرفنا الفلسفة التي يستند عليها برنامج تحدي القراءة العربي.

مفهوم جديد متفشٍّ وواضح جدا للقراءة

ما زلتُ مقتنعا أن الجميع قارئ بالفطرة، وليس صوابا ما يشاع بأن شعبا يقرأ أكثر من شعب أو أن أمة من الأمم تعاني من ركود في هذا الفعل الثقافي الإنساني، الذي هو فطريّ بالضرورة؛ إذ إن وجود الحواس الخمس، والعقل السليم والقلب النابض وجدا حزنا وفرحا، حبا وكرها، هو قارئ لا محالة، ولا يتوقف مفهوم القراءة عند ذلك الفعل التقليدي المتمثل في ترجمة الحرف المكتوب والمنتمي إلى الكتاب أو الصحيفة أو أي شكل من أشكال النصوص الحديثة.

خلال أحد النقاشات العابرة، يخبرني أحد أصدقائي بأن علينا اليوم أن نكتب أكثر مما علينا أن نقرأ- هو وأنا قد تجاوزنا حد الأربعين خريفا- ماذا كان يعني صديقي وقتها؟ هل كان يعني التوقف عن ذلك الفعل التقليدي الثقافي المفتعل أم أنه كان يعني قراءة من نوع مختلف؟ اليوم قفزت كلماته إلى الذاكرة من جديد، لعله كان يعني قراءة النفس البشرية؛ إذ إنك بوصفك كاتبا أنت قارئ بالفطرة، فقبل أن تكتب عليك قراءة الأشياء من حولك، استنطاق الشجرة والنهر والبحر والطريق والتاريخ والذات التي تسكنك. هنا تذكرت العرب القدامى الموغلين في التاريخ الشفاهي القديم، هل

كانوا قارئين وهم أمة أمية لا تقرأ (تقليديا) ولا تحسب (تقليديا أيضا). ألم يكن امرؤ القيس وعنترة وكل المثقفين الجاهليين قرّاء من نوع مختلف؟ فكيف قرأ هؤلاء الجاهليون الصحراء؟ وكيف فهموا الجمل والناقة والنار والقوس؟ وكيف فهموا الأشياء كلّا من حولهم؟ وكيف استطاعوا أن ينتجوا أدباً خالدا يتحدّى سلطة الزمن لولا أن فيهم هذا الحسّ العميق من القراءة غير التقليدية.

أتأمل الآن بعض المشاهدات، وأراجع الآن بعض المقولات القديمة، فإذا كانت أول كلمة في القرآن الكريم نزلت هي "اقرأ"، ولكنها لم تتكرر بعد في أي آية، وحلت محلها أفعال أخرى، وتوجيهات أخرى، انظر معي لترى "وفي أنفسكم أفلا تبصرون" "أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت" "انظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الله الأرض بعد موتها". وتأمل قول الشاعر، قارئا اللوحة الطبيعية الناطقة:

أتـــاك الربيـــع الطلـــق يختـــال ضـــاحكا

مـــن الحســـن حتـــى كـــاد أن يتكلمـــا

إنها القراءة المستبصرة العميقة التي تغوص في الأسرار وتكتشف ما لا يستطيع أحد قراءته واستيعابه، وانظر إلى قراءة العلاقات الإنسانية في قول الشاعر كذلك:

نعيـــــب زماننـــــا والعيـــــب فينـــــا

ومـــــا لزماننـــــا عيـــــب ســـــوانا

كيف توصل الشاعر إلى هذه القناعة التامة، إنها القراءة الاجتماعية الفاحصة التي تحاول تفكيك العلاقات وإعادة صياغتها، إن النمط البسيط الجاري على السطر ليكون كلاما مكتوبا، ويقرأ بعدها قراءة تقليدية لن يفهم إلا إذا كنا قراء نعرف معنى القراءة بمفهومها الشامل الواعي الذي يبحث ويفكر، ولذلك لا بد من القول إن القراءة هي فعل تفكير وتدبر، وهذا ما يفعله إيهاما من نوع ما قرّاء الطالع والفلك والكف والفنجان من العرافين.

وفي هذا السياق الواعي للحقيقة يبرز قول الأديب عباس محمود العقاد رحمه الله "أن تقرأ كتاباً جيداً ثلاث مرات.. خير لك من أن تقرأ ثلاث كتب جديدة"، إنه الحث على التفكير والبحث عما وراء الحرف المكتوب، لتجعلك القراءة مفكرا تبحث عن سر، لا يكتشفه غيرك، إن القراءة التقليدية المعروفة ستعيدك إلى مفهوم القراءة المتفشي والمفتوح على أفق التفكير في الأشياء ومما حولها، وإن لم تفلح قراءة السطور في العودة بالقارئ إلى منبع الأفكار فلا خير فيها، إنها ستصبح عملية عبثية مقصودة بحد ذاتها، وبعدها ليس شرطا إن قرأت كتابا أو لا، فأنت تجاوزت مرحلة فك الحرف المكتوب إلى

سر ذلك الحرف، وعندها ستحقق الفعل ذاته بمفهومه الأعمق. وتأكدوا أن الإنسان قارئ بالفطرة، ولا يستطيع إلا أن يقرأ، ويقرأ فقط، وهذا النوع من القراءة يستطيعه كل من أوتي العقل والحواس والقلب.

وإذا ما نظرنا إلى هذه المسألة بهذه الطريقة سنكفّ فعلاً عن جلد الذات، ونمتع عن قول "أمة اقرأ لا تقرأ" فجميع بني آدم قرّاء، ولا معنى لكلّ إحصائيات الدول والمؤسسات الغربية التي تصنفنا وتصنف غيرنا أننا لا نقرأ أو أن حصة الفرد العربي من القراءة كذا دقيقة في السنة، إنها كلها أوهام العقلية الغربية العنصرية جدا التي تريد احتكار كل شيء حتى الطبيعة وفطرة الخلق، وكل الشرّ في متابعة أوهامهم وتصديقها.

قرأت أجساد النساء كذلك

في كتاب "نسوة في المدينة" سجلت تجربتي في التعرف عن قرب على أجساد النساء وقراءتها، إن كل جسد من تلك الأجساد كتاب كامل ممتد نابض بالحياة، لذلك عندما كتبت الكتاب أعدت قراءة تلك الأجساد والتمتع بها فكرياً وحسيّاً. لقد تخلقت معي فكرة المرأة الكتاب منذ تلك الفترة التي انغرست فيها بكل كياني الحسي والعاطفي، فقابلت بين المرأة المكتنزة والكتاب الضخم، وكتبت في ذلك مقاربة نصية بين تلك المرأة والكتب التي أحب قراءتها أو ألفتها، لقد كانت كبيرة الحجم مثل حبيبتي التي تملأ العين مهابة[1].

بالقطع، لا أريد الحديث عن كل تلك الأجساد المقروءة في الكتاب وقد تجاوزت أربعين جسدا أنثويا، كل جسد كتاب مختلف عن غيره، يبدأ من العنوان حيث الرأس وما فيه من شعر وجهة وعينين وخدين وأنف وشفتين شهيتين ووجه يحتضن كل تلك السطور والعتبات، وينتهي بالخاتمة حيث أصابع القدمين، وما بين العناوين والخواتيم فيض من التفاصيل والأفكار المودعة في تلك الأجساد الجميلة. إنها صنعة الخالق التي تتناظر مع صنعة الكتابة،

[1] يُنظر: فتنة الحاسة السادسة- تأمّلات حول الصور، دار الفاروق للثقافة والنشر، نابلس، 2025، الفقرة (30) من الكتاب، ص 117- 120

وكلاهما صنعتان إلهيتان[1]، وما عليّ أنا سوى أن أحسن القراءة في تلك الكتب الناطقة بلسان الحال مرة، ومرة بلسان المقال.

افتتحت رحلة القراءة تلك مع جسد جميل ممتلئ مشدود، قدمته لي صاحبته صفحة صفحة، وكلما قرأت تلك الصفحة ازددت نهما لأرى الصفحة التالية، وهكذا حتى تعرفت على جميع أفكار جسدها المشبع بالنشوة والشباب، وأثمرت تلك القراءة الأولى الممتعة قصيدة فارهة بدأتها بالقول: "يفيض الحسن منك لجانبيك من الشعر الحرير لأخمصيكِ"[2]

في لقاءاتنا بعد ذلك كنت أعيد قراءة جسدها عن قرب، وأشم رائحة دمها وعطرها، أقرأ صدرها الفوّار الممتلئ، أغرس عيني في ذلك الخط الفاصل الذي يعطي كل ثدي من ثدييها مساحته وكينونته. أتصور نعومة ذينك النهدين وحلاوة الحلمتين، أنفعل في القراءة لكنني لا أستطيع أن أترجم قراءاتي العميقة تلك إلى فعل سريريّ. إننا في المطعم الآن، وعلينا أن نتحدث ونقرأ أكثر مما نفعل، وأظن أنني لو ترجمت تلك القراءات إلى فعل لحصلت علماً لا يمكن

[1] أقول إن الكتابة فعل إلهي والقراءة فعل بشري، فكرة ناقشتها في كتابة أخرى بعنوان "لماذا يكتب الكتّاب؟".

[2] القصيدة في ديوان "وأنت وحدك أغنية"/ دار ليبرتي بوكس، وبيت الشعر الفلسطيني، القدس ورام الله، 2015، ص 329.

أن يكون موجودا في أي كتاب آخر، ولذلك بقيت قراءاتي ناقصة وتهوّم في الخيال، وغير واقعية.

جسدها في الواقع أجمل من جسدها في الصور، قرأت ردفيها، وعجيزتها في كثير من القصائد، لا يوجد لعجيزتها مثال عند أية امرأة أخرى، مهندسة لتبدو فقرة مضبوطة الأطراف ليست كروية لتبدو نافرة، إنها مثل غلاف كتابٍ أحسن الصانع تصميمه، تسير مع العين سيرا منتظما "لا ترى فيها عوجا ولا أمتا"، قرأت تلك العجيزة مرات عديدة وفي كل مرة أكتشف شيئا جديدا فيها، إن لها سمتا جميلا باذخا كفكرة مبتكرة أعيدها فأقرأها في أفكاري، أتأمل سلاسة ملمسها، ومساحتها، وانفصام جبليها كأنها في تلك اللحظة دفتي كتاب مفتوح من منتصفه، يمينه يماثل يساره، ويتناغم مع دفتي كتاب صدرها. دائما ما ألاحظ تلك الصفحات المتماثلة في جسمها.

وكما يهتم الكاتب بكتابه، فإنها هي أيضا تهتمّ بكتابها من هذا الجسد المرفّه الناعم المكتنز، وعلى الرغم مما يمرّ عليها من أحزان إلا أن صفحاتها تزدان بالألق وبجميل الأفكار، لأنها حريصة في كل لقاء أن تعطي جسدها حقه من التألق حتى إذا اجتمعنا وبدأت بقراءتها وفك رموز كثافتها أبهرتني كلي، إنها تشبه الفكرة التي تقول

عن الأفكار إنها من السهل الممتنع. نعم إنها من السهل الممتنع، سهلة في القراءة وفي متعة النشوة العاطفية، لكنها ممتنعة في أن ترى غيرها مثلها أو أن توجد شبيها لها يقاربها، على الرغم من أنها ظاهريا تشبه أية امرأة أخرى، في النهدين والعجيزة وأشياؤها الأخرى الباهرة.

تأتي إليّ وهي محملة بأفكارها لتفيضها عليّ مرتين، مرة دفعة واحدة فأتشبعها وأمتصها في نظرة واحدة، ومرة أخرى عندما تأخذ بتلقيني أفكارها فكرةً فكرة، وتمررني على سطور صفحاتها بكل تؤدة وصبر، حتى أتشبع من تلك التفاصيل، كان الوقت يمرّ سريعاً كما يمرّ وأنا أقرأ كتاباً ممتعاَ.

حررت لها كتاب جسدها وحللت لي ذلك الجسد، وأعدت كتابته في القصائد، والسرود الكثيرة، لقد أعلمتها بكل تلك الأفكار التي ابتكرتها من وحي هذا الكتاب الإلهيّ المتهادي على الأرض لكن بينه وبين الأفق الأعلى ألف سطر وسطر وألف فكرة وفكرة، لم تتفاجأ ولو مرة واحدة بما كتبته عن قراءاتي لجسدها لأنها تعلم أن الفكرة المختزنة في جسدها أبعد مما كتبت، وأن قراءتي ستظل قاصرة وسطحية.

الآن أعترف أن كل ما كتبته هو مجرد اقتباس من فيض جسدها الذي منحتني إياه لأقرأه، أعترف كذلك أنني خسرت أهم مصدر من مصادر الوحي الخاص بي، إنني أعيش على صدى تلك القراءات التي حولتني إلى ما يشبه النمط المحنط الذي يحتاج رعشة الحياة ليحدّث عن تلك القراءات التي أفاضت السعادة في عقلي ومرّنت أصابع يدي الوحيدة على الكتابة، فهل ستعود إليّ لأقرأها من جديد كما قرأتها في شهرزاد، وفي ليالي الحكايات الطويلة والسهر الممتد "حتى مطلع الفجر"؟ فيا ليتها تعيد الحياة إلى كتاباتي لأشعر بالحياة!

وثمة اعتراف ثالث أنني ما زلت إلى الآن أقرأ كل يوم أجساد النساء من خلال ما يُنشر لهنّ من صور ومرئيات على مواقع التواصل الاجتماعي، فأرى فيهنّ أفكارا شتى بمصاحبة هذا الجمال وتلك الأناقة، وأفسر لغاتهنّ وحركاتهن وسكناتهن وأعضائهنّ الظاهرة، وأستدلّ بالظاهر على الباطن، إنها طريقتي في الكشف عما استكنّ وراء الثياب من عميق الأفكار، وشهيّ التطلعات.

بل إنني أذهب أبعد من هذا عندما أبدأ يومي بقراءة أجساد النساء من حولي، وخاصة تلك المرأة المسماة "خاتون صافي"؛ إنها امرأة تتيح لي يوميا آراءها في كتابها الجسدي، لأقرأها من لدن

شـفتيها الحمـراوين اللذيـذتين، وأظل في تأمل فكـري فـأقرأه ردفيهـا المهندسـين، وطولهـا المتناسـق، لتبـدو كتمثـال فنيّ تنتصـب بجـانبي لتقـول إنني هنـا بين يـديك كاملـة الأفكار، دافئـة الأمطار، فلتغتسـل بي.

ابن الرومي يقرأ وحيد المغنية في قصيدته الدالية

إذاً، لا تنحصر القراءة بفعل قراء الكتب أو المكتوب، ثمة أفعال قراءة أخرى، كما هو فعل قراءة أجساد النساء، أي اكتشافها، وتأملها، والتلذذ بها حسيا وفكريا ثم كتابتها شعرا أو نثراً كما فعلت في كثير من القصائد، هذا النوع من القراءة أشار إليه الشاعر خليل روكز في هذا المقطع المكتوب باللغة العامية:

نســـيت حبـــك والليـــالي الحمـــر

وفكـــري نســـي جغرافيـــة جســـمك

ومـــن بعـــد مـــا كنـــت رفيقـــة عمـــر

صـــرت إنـــدهلك يـــا "شـــو إســـمك"

ولعل الشاعر امتنع عن تقديم قراءته لجغرافية جسم (اللي ما تتسمى)؛ لأن فكره قد نسي تلك الجغرافيا أو أراد نسيانها، وإن نسي الفكر فإن القراءة لم يعد لها قيمة، وبالتالي فإنه لن يكتب عنها وعن تلك التفاصيل التي كانت رفيقته في "الليالي الحمر"، بل إنه نسي اسمها، فكيف يجسد ما قرأه وقد نسي كل شيء؟ لكن هل ينسى العاشق جسد حبيبةٍ تمتع به وبها يوماً ما؟ إنه فعل النسيان في هذه الرباعية، فعل قصدي للتجاهل ليس أكثر، كما قال القرآن

الكريم عن المنافقين: "نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ"، والله- جلت قدرته لا ينسى- إنما يتجاهلهم، كأنهم لم يكونوا، كذلك فعل الشاعر- ولله المثل الأعلى- بتلك المرأة التي تأخذ واقعاً كأنها بعض المنافقين، فقد نسيت هي الشاعر أيضاً.

الشاعر ابن الرومي في قصيدته عن المغنية وحيد يقدم قراءة بارعة حاضرة لجسمها وقد قرأها في مجلس شرب وأنس، إنه يصف فعل القراءة الفاحصة وأثرها عليه حيث الهيام الذي ليس له حد، لذلك فهو يصف ويسرد ويتأمل ويتلذذ بفعل هذه القراءة العجيبة:

وغريـــر بحســـنها قـــال صـــفها قلـــت أمـــران هـــين وشـــديد

يسهل القول إنها أحسن الأشيا ء طـــرا ويعســـر التحديـــد

هذا هو فعل الإدراك الإجمالي لأفكار كتاب تقرأه، تفهمه على نحو ما، تشعر به، وتتلذذ بما يحويه من نفائس وكنوز، لكنك عاجز عن التفسير، إنه يشبه إلى حدّ بعيد فعل الإعجاز البياني في القرآن الكريم، تشعر بالعجز تجاه البيان في آياته وسوره ونظم جمله، وتعجز عن التفسير، فلا تدرك أسراره، لأنك لو اكتشفت السر، لبطل الإعجاز، وتلاشى.

ووحيد المغنية كونها جسدا مقروءا لها هذا الاعتبار في نظر الشاعر دون أن يرجع قارئه إلى نظرية النظم أو مقولات الإعجاز البياني، هذا الإعجاز تجلى كلاً دفعة واحدة، فهي أحسن الأشياء طراً، لكن لماذا؟ وكيف؟ يقف الفكر عاجزاً عن تقديم الأدلة، وما قدمه من وصف سابق لهذين البيتين ما هو إلا قراءة سطحية وصفية خارجية، كأنها كتاب ذو طبقات، في كل طبقة منها معنى مختلف عن غيرها، ففي القراءة الأولى رأى أشياءها اللافتة للنظر، فانفعل وكتب، كما يتحدث أحدنا عن كتاب للوهلة الأولى، فيعيد الأفكار ويسردها، وها هو يفعل الشيء نفسه:

غادة زانها من الغصن قدٌّ ومن الظبي مقلتان وجيد

لكنها أكثر من ظبي ومن غصن بان، ففي هذه القصيدة يرى المعنى على هذا النحو:

هو في القلب وهو أبعد من نجـ م الثريّا فهو القريب البعيدُ

ولذلك فإنه بفعل التأمل في وحيد المغنية واندماجه في تلك اللحظة أخذ يعبر عن ذلك السحر الذي لا يدرك كنهه، لكنه يشعر به، فلو سئل أحد البلغاء ما هو سحر البيان؟ لم يستطع أن يجيب، لأن السحر يبطُل عندما تُفك أسراره، لذلك ورد عن النبي

الكريم- ﷺ- "إن من البيان لسحرا". حكم عام لا يقدم فكرة مجسدة واضحة:

ليت شعري إذا أدام إليها كَرَّةَ الطَّرْف مُبدىءٌ ومعيدُ

أهْيَ شيء لا تسأم العين منه أم لها كلَّ ساعة تجْديدُ

إنها بالضبط، كالكتب المقدسة وأفكارها، كلما أعاد فيها القارئ النظر، رجع بما هو جديد وحسن بل وما هو ممتع ومفاجئ، وهذا ما يؤكد طبقية المعاني في هذه المغنية المقروءة على نحو تأمليّ، قراءة امرأةٍ تجاوز في تأثيرها الانبهار الظاهري لحاسة العين وتعدها إلى متعة الفكر والتلذذ بما هو أبعد من جسد جميل، وصوت عذب، لذلك فهو يطنب قائلاً، مستحضرا فعل الإملاء، وكأنه قارئ أو كاتب:

بل هي العيش لا يزال متى استُعْـ ـرض يملي غرائباً ويُفِيدُ

مَنْظَرٌ مَسْمَعٌ مَعانٌ من اللَّهْ وِ عَتادٌ لما نُحبُّ عَتيدُ

لا يَدبُّ الملالُ فيها ولا يَنْـ ـقُص من عَقْد سحْرِها تَوْكيدُ

هل كان ابن الرومي يعي أنه كان يقرأ؟ لا أشك في أن ابن الرومي كان واعيا لما يقوم به، فتلك الأفكار التي حصلها بقراءة المشهد، أغنته وأوفته عن قراءة كتب الفلسفة وكتب الشعر، بل لعله

يسقط ما قرأه في تلك الكتب على هذا الجسم وحركاته وأفعاله، لتنتج تلك القراءات قراءة جديدة تناصيّة تفاعليه أخذت من القديم أصله واستفاضت فيه، وهذا فعل كل كاتب يجيد إعادة إنتاج ما سبقه من أفكار، ليكون بارعا في صوغها وصياغتها في لحظة مجدولة من المفارقات الضدية:

فتراه يموت طوراً ويحيا مُسْتَلَذّاً بَسِيطُهُ والنَّشِيدُ

فيه وَشْيٌ وفيه حَلْيٌ من النَّغْـ ـمِ مَصوغٌ يختال فيه القصيدُ

ففي البيت الأخير تظهر ألفاظ (الوشي والحلي والنغم ومصوغ والقصيد)، وكلها مصطلحات استفاد منها الكتّاب فأعادوا توظيفها في الكتب وصناعتها، وصوغ أفكارها، كما هو حاضر أيضا فعل الإملاء، وفعل التدبر، والنظر، وهذه الألفاظ كلها يقوم بها القراء عند قراءة أي نص من تلك النصوص البارعة، ومنها قصيدة ابن الرومي في وحيد المغنية، تلك المرأة التي سيظل القراء يقرؤون أثرها وتأثيرها السحريين في قصيدة شعرية عابرة للأجيال.

حكاية مكتبة الثقافة في مدينة نابلس

أظنّ أن ذلك حدث عام 2016 أو 2017، عرفت من ابنتي التي كانت طالبة في الجامعة آنذاك، أن صديقي مجدي القطب أبو عصام صاحب مكتبة الثقافة في نابلس قد توفي بعد صراع مع مرض السرطان الذي لم يمهله طويلا، كان ذلك عندما توجهتْ إلى المكتبة لشراء بعض المجلات الجديدة التي كان يحجز لي نسخة منها، إذ أصبحتُ قليل الذهاب إلى نابلس، وكنت أهاتف المرحوم أبو عصام لحجز نسختي من المجلات الأدبية التي أحرص على اقتنائها، وخاصة مجلة العربي الكويتية ومجلة فصول وعالم الفكر وعالم المعرفة، وأحياناً مجلة الهلال، ومن خلال مكتبته- رحمه الله- تعرّفت إلى مجلة "بدايات" التي كان يرأس تحريرها الكاتب اليساري اللبناني فواز الطرابلسي، فاقتنيت بعض أعداد، وكان لهذه المجلة حضور في كتاباتي[1].

بالإضافة إلى بعض روايات البوكر الفائزة بالجائزة أو تلك التي وصلت إلى القائمة القصيرة. ولم يكن- رحمه الله- يكتفي بذلك، بل كان يشير علي بقراءة كتب معينة، صدرت حديثا، ومن مكتبته دخلت إلى مكتبتي الخاصة عشرات الكتب منذ كنت طالباً في

[1] يُنظر كتاب: فتنة الحاسة السادسة، ص 60 وص 112،

الجامعة عام 1991، إذ حملت لي ابنتي أحد أعداد مجلة العربي، لكنها حملت أيضا خبرا سيئا عندما قالت وهي متأثرة مقطبة الوجه: "عمو أبو عصام متوفي من عشرة أيام".

تعرفت منذ وقت مبكر جدا إلى أبي عصام كما تعرفت على كل أصحاب مكتبات نابلس، الرسالة، والشعبية، وخالد بن الوليد والكمال وغيرها الكثير، إذ كنت دائم التردد على هذه المكتبات وصار أصحابها وموظفوها أصدقائي أو على الأقل من معارفي، إلا أن صديقي (أبو عصام) كان الأكثر قربا إليّ؛ كنت أجالسه ونتحدث في السياسة والفكر والأدب والثقافة والمثقفين، وكثيرا ما كان يخبرني أنه يتابع صفحتي على الفيسبوك، وكان- رحمه الله- من أنصار حرية الفكر والكتابة، ووقف إلى جانبي ضد ما كان يوجّه لي من مساءلات ومحاكمات على خلفية بعض المنشورات التي كان المجتمع التربوي يضيق بها ذرعاً.

وعندما اصطحبت إحدى بناتي الصغيرات في واحدة من زياراتي للمكتبة يهديها كتاباً، وكان الكتاب واحدة من روايات غسان كنفاني، لقد كان أبو عصام- أطال الله ذكره والثناء عليه- يحب كنفاني، ويتحدث عنه بحب بالغ، ويبدو أنه- على الرغم من تدينه- ذو نزعة يسارية، على الأقلّ في الأدب.

صديقي أبو عصام كان مثقفا وحريصا على استمرار المكتبة رغما عن حال الثقافة المتردي، فقد افتتحها والده المرحوم في الستينيات وظلت رغبته الأكيدة في الحفاظ عليها مفتوحة تستقبل زوارها وطالبي الكتب الجديدة والمجلات.

سأفتقدك بلا شك كما سأفتقد حديثك وسيفتقدك كل المثقفين الذي كانوا أصدقاءك وكنتَ مستشارهم وأمينهم، وسأتذكرك دوما ما دمت أقرأ وأكتب وأشتري الكتب.

حول تداعيات القراءة أحياناً

كنتُ حريصا على ألّا أهزّ رأسي أو أتحرك كثيراً، لا أدري كيف فكّرت أن الشّخصيّات والأفكار المحتشدة في رأسي ستقع وتفرّ من إطار الجمجمة لو أنّني حككْتُ شعر رأسي، لذا فضّلت على نحو غير اعتياديّ أن ألازم السّرير صامتا متأمّلا، ليس معي غير القهوة وعلبة من السجائر مراجعا الأحداث حدثاً فحدثاً بعد أن أصبتُ بدوار روائيّ عنيف جرّاء قراءة رواية ممتعة.

مضى أكثر من ثلاثين عاما على آخر رواية خياليّة قرأتها، كنت شغوفا بالروايات البوليسيّة عاشقا للأدوار الإجراميّة للشّخصيّات، كنت أضعف من أن أكون شخصيّة إجراميّة كواحدة من تلك الشّخصيّات، كنت فقط أكتفي بالقراءة والاستمتاع وأنا أحطّ على جناحيْ طائر خرافيٍّ كنت أجبر خيالي الضّعيف على أن يحملني عليهما لأحلّق بعيداً.

بعض الأحداث كان يأخذني لأبعد من كون الرّواية حدثا خياليّاً، كنت أفكّر كيف تصنع الأفكار على ذاك النّحو المشتّت كأشعة الضَّوْء المتناثرة على سطح خشن، ثم تعود فتتجمّع مرّة أخرى شيئا فشيئا حول بؤرة حدث واحد. كنت أفكّر بالعلاقات الّتي تحكم الشّخصيّات، ولماذا تدمّر الشّخصيّات بعضها، وتمتلئ بالحقد

الشّرعيّ المرتبط بالكثير من الأسباب المنطقيّة؟ في ذلك الوقت لم أكن أعرف أنّ الكاتب هو الّذي يُحيي الشّخصيّات ويُميتها، كنتُ شبيهاً بأمّي الّتي كانت تبكي عندما يموت أحد الأشخاص الطّيّبين في مسلسل بدويّ.

كنت عاطفيّا شديد التّأثُّر بالمشاهد العاطفيّة، إلى درجة الغيرة من البطل الذي أحبّ فتاة جميلة وشهيّة كقطعة حلوى فاخرة، وكنت أحزن عندما يضاجعها أو يتزوجان، كنت أحبّ الشّخصيّة الأنثويّة تلك وأريدها حبيبة لي، تنام معي أنا، وليس مع البطل. حلمت بالكثيرات في صباي وأحرجنني كثيرا في صباحات متعددة كنت مضطرا فيها للاغتسال قبل الذهاب إلى المدرسة. وكنت أصل لحالة من الحزن المعقّد والغريب، ولم يخرجني من تلك الحالة إلّا النّظر إلى غلاف الرّواية الأخير الّذي كان ينبّهني إلى أنّ الأحداث غير واقعيّة، لم أكن أضحك على نفسي، ولا أسخر منها، إنما كنت واقعيّا في حبّ تلك الشّخصيّات الرّوائيّة، وأتمنى أن تكون إحداهنّ حبيبتي وتفرّ من الكتاب وتعتدل أمامي كأنّها خارجة من فوهة البركان المضطّرب فيّ دون توقف.

تكوّن لديّ مع الزّمن أصدقاء كثيرون من هؤلاء الشُّخوص الودودين، وكثير من الأعداء أيضا، وكثير من الفتيات المعشوقات،

حملت ذلك كلّه وطمرته في عقلي سحيقا وعندما كبرت قليلا، كانت تلك الأفكار تستمني على جدران المخّ وتصنع خلاياها الخاصّة من لزوجة لعاب تلك الأفكار الّتي لو تركتها تفرّ لتطايرت أمامي كأنّها الفراشات، لعلّها ستكون أشبه بالجراد الّذي سيتسلّق جدران الغرفة ليحوّلها إلى السّواد. أو لعلّها كانت صراصير ليلٍ تزعجني طوال نومي المتقطع.

كم هو مرعب أن تخرج الأفكار طيورا جارحة أو حتى حشرات لاذعة، حاولت جاهدا ألّا أصدّق أيّ رواية، حتى وإن كانت تاريخيّة أو دينيّة أو سياسيّة، وإن اصطبغت بألوان نوّار اللّوز واكتست فتياتها بحريرها الشّفاف أو خرجت منها حوريّة البحر لتبوح لي بحبّها الأسطوريّ العظيم. أظنّ أنّني شخص خياليّ روائيّ مصاب بعدوى الأفكار التي تقضمني بفكّها اللّغويّ المسنون وتقتطع خلاياي كأنّها مشاهد من رواية غير مصوغة بعناية فائقة، كأيّ رواية معاصرة مريضة شاذة تعاني من العرج المشوَّه كجذع شجرةٍ غير مستقيم.

"لسان العرب" يستقرّ في مكتبتي أخيراً

سؤال محرج لمتخصصي اللغة العربية، وأول هؤلاء صاحب هذه "الكتابة"؛ إذ كيف تكون متخصصا في اللغة العربية وآدابها، وليس عندك هذه الموسوعة المهمة "لسان العرب". أخيراً حصلت على هذه الموسوعة. أيعقل في حالتي هذه أن أقول: "بعد ما شاب ودوه الكتّاب". المهم أن "لسان العرب" أصبح كتاباً بين يديّ وها هو يستقر في مكتبتي العامرة المضطربة المنتفخة بالكتب.

لا توجد مكتبة فوضوية مثل مكتبتي، يا إلهي كم أعاني وأنا أبحث عن المراجع اللازمة، أمكث ساعات وأبا أبحث، لأنها فوضوية، فلو كانت مرتبة على منطق ما، فإنني سرعان ما أستل الكتاب المقصود دون أن أحتاج إلى كل هذا الجهد والوقت والتوتر. أحياناً أصاب بالملل فلا أبحث، لأعاود الكرة في يوم آخر.

بطبيعتي منذ كنت صغيرا وأنا أحب الكتب، وأجمعها، و"لسان العرب"، منذ درست عنه في مساق المعاجم العربية مع أستاذنا الفاضل الدكتور محمد جواد النوري وهو مطمحي ومطمعي، لكنّ طالباً فقيراً مثلي كيف له أن يقتني هذا الكتاب الموسوعة وهو يتألف من ثمانية عشر مجلدا؟ ظل في النفس شيء من "لسان العرب" حتى أتت هدية صديقي حسن عبادي الذي قال لا أحد

يستحق هذه الموسوعة سواك، لقد مرّت فترة في حياة صديقي حسن كان مغرما فيها بجمع الموسوعات، فاقتنى هذه الموسوعة وغيرها الكثير، اليوم حسن ذو اهتمامات أكثر جدوى من جمع الموسوعات، فأحب أن ينحلني هذه الهدية الرائعة، فتخرج من مكتبة بيته لتسافر من حيفا إلى تلفيت، لتستقر في مكتبتي. فيا أهلا وسهلا بها، فلها صدر المكتبة.

لقد شرّفني حسن عبادي بزيارتي، الجمعة (2021/10/15)، قبيل المشاركة بتوقيع كتاب صديقنا قتيبة مسلم، وكان في الحضرة رفيق دربه الفنان جميل عمرية الذي منح مطبخنا هدية مميزة أيضا، ثلاثة قوالب للكعك، صنعها بيديه من المعدن، لم تكن مجرد قوالب وحسب، بل إنها ثلاث تحف فنية، وقال إنها ستعيش مائة عام. بل ستعيش أكثر.

الموسوعة أيضا عاشت عشرات السنوات عند صديقي حسن، وها هي تنتقل إلى مسكنها الجديد لتحتل مكانها في أرفف المكتبة. حسن يطالبني أن أعقم الكتب تحسبا لما قد يعلق بها. رفضت طلبه إذ لا يحسن بي فعل ذلك، أريد أن تظل رائحة صديقي وبيته عليها، إنها ليست مجرد كتاب مهم معرفياً، إنها هدية من صديقي الأقرب والأعز إلى نفسي.

كان يوم توقيع كتاب قتيبة مسلم "حروف من ذهب" يوما مميزا في كل شيء، بمن شرفني وزارني حسن عبادي ورفيق دربه جميل عمرية، والصديق الكاتب أكرم مسلم الذي لبّى دعوتي مشكورا على الرغم من ارتباطاته العائلية. ولا أنسى أيضا صديقيّ إسماعيل حج محمد وابن خالته محمود حج محمد اللذين انضما إلينا، على الرغم من ارتباطاتهما الاجتماعية أيضاً.

بهذه الممكنات العرَضية تحلو الحياة، ويكسر روتينها، والفضل كل الفضل للأسير قتيبة مسلم الذي وفّر الأجواء عن بعد لمثل هذا اللقاء مع الأصدقاء من حيفا في الشمال لتتصافح الأيادي في تلفيت.

بالتأكيد لم يكن الوقت كافياً، أكثر من ساعتين، مرّتا كلمح البصر، وخشينا أن يدركنا موعد التوقيع وإشهار الكتاب، فعاجلنا الوقت ورشفنا القهوة متعجلين. لم ينتهِ البرنامج ولم يُنفّذ كما كنّا خططنا له، كنا نريد الاحتفال بعيد ميلاد حسن عبادي الذي صادف يوم الخميس 2021/10/14، فقد أعددنا له الكعكة لنقول له: كل عام وأنت بخير، فرجل مثله وصديق على شاكلته، لهو أمر نادر في هذا الزمان الصعب.

شكرا لكم أيها الرائعون: حسن وجميل وأكرم وإسماعيل ومحمود أنْ شرفتموني في بيتي، ليحتضن أشخاصكم الكريمة،

وتؤثثون المكان بأحاديث الثقافة والشعر والأدب والأخوة الصادقة والمحبة العميقة.

في وصف النّصّ المُعْجِز

هو فقط شعور من الدّهشة يتملّكني ويجعلني صامتا للحظات، وربّما دفعني ذلك الشُّعور لأُعيد القراءة مرّة ثانية وثالثة، وأنا في كلّ مرّة أزداد عجزا وحيرة، فلا أنا قادر على التّخلص من أسر العبارة الفاتنة الضّاجّة بالغواية، ولا أنا داخل إلى أعماق ما تريد، كأنّها متمنّعة ومخاتلة.

هو فقط هكذا، تضعني النّصوص الجيّدة في منطقة من التّوهان والذّهولِ وجمال النّشوة، ولذّة السُّكْر وطزاجة العبارات الّتي تكاد تسمعها لأوّل مرّة. تحسّ برعشتها تسري في أوصالك كامرأة ناعمة أثيريّة تسلك بك الطُّرق السِّحرية إلى عوالم لا نهاية لها.

هو بالضَّبط كحالة وصال روحيّ وجسديّ، تمارس كلّ شهواتك وأنت مكانك، يسرقك النّصّ من ذاتك ليتحوّل هو الذّات، يخرجك من كينونتك ويأخذك إليه بكلّك، وهيهات أن تصحو بعدها، لقد وصلت إلى حالة غرام لا تفسّر مع هذا النّصّ، فمن المستحيل أن تتركه أو يتركك دون أن تكونا واحداً؛ لغةً وروحاً وفكراً، تفهمه كما ينبغي، ولكن لا تستطيع أن تقول جملة واحدة، لإحساسك أنّ التّفسير يفضي إلى التّجسيد، والتّجسيد يفضي إلى التّحجيم، والتّحجيم لا يعني سوى البلادة والسكون.

هذه الحالة من الغرام نادرا ما تصادفك، إنّها كالحبّ تماما لا تحدث للكائن الحيّ إلّا مرّة واحدة فقط، مهما تعدّدت حالات الإعجاب والتّغزل، فكم من امرأة يعجبنا جمالُها، ولكنّ جمالها لا يدعونا لنحبّها حبّا كاملا يضعنا في محرابها وتستولي على كلّ ما فينا من أحاسيس الجمال.

هذا النّصّ هو ما تقول عند قراءته: "لا يشبه غيره، ولن يكون مثله". إن استطعتَ أن تكتبه، هذا النّصّ الموصف بأنّه عظيم، فاعلم أنك قد كتبتَ ما هو معجز، ولن يستطيع كاتب مهما بلغ شأوه في البلاغة، وعلا كعبه في الإبداع أن يكتبَ ما يضاهيه، ولو اجتمعت لمساعدته الإنسُ والجان، هذه هي حالة النّصّ المُعْجِز. فهل صادفنا منها الكثير، ونحن نقرأ أو نكتب؟ يا ليتنا رسل النّبوّات الجليلة.

دودة الكتب الصديقة لي

من أرض المعرض الرابع للكتاب في مدينة البيرة الذي يحتضنه مركز بلدية البيرة الثقافي. كتب كثيرة لمؤلفين أكثر، يتكاثر الكتاب ويموت القراء، ثمة مجموعة طالبات لمدرسة خاصة، ورواد لا يدرون ماذا يصنعون ربما يُزَجّون الوقت من أجل هدف ما.

تحركت دودة الكتب في داخلي، فأخذت أعبئ كيسي الأسود. هل سأقرأ كل هذه الكتب؟ ربما يموت المرء ولا يجد وقتا أو رغبة لقراءة كل هذه الكتب. وربما يأتي يوم أندم فيه على كل كتاب اشتريته، سواء أقرأته وكتبت عنه أم اكتفيت بقراءته كله أو بعضه. أو ربما لم أقرأه أكدسه في مكتبتي الخاصة التي امتلأت رفوفها.

يقفز ذلك السؤال البسيط المتحرش بي، من الزوار الذين يرون المكتبة. هل قرأت كل هذه الكتب؟ ما معنى أن تشتري كتابا؟ لست أدري. ربما هي رغبة في اقتناء الكتب ليس أكثر.

أزور أيضا مكتبة تجارية، وأقتني سبعة أعداد متأخرة من جريدة "أخبار الأدب" وكتبا أخرى، يدور حوار بيني وبين صاحب المكتبة يقول لي: الكتاب كثيرون، والناشرون يطبعون كتبا مليئة بالأخطاء. هؤلاء الكتاب يدفعون لأن كتبهم لا تبيع، الموزعون يكدسون كتبهم

الكاسدة في فضاء المكتبة، يشكو صاحب المكتبة من هذه الظاهرة. خجلت أن أسأله عن كتبي بعد أن سمعت منه هذا الحديث، رأيت ديواني "ما يشبه الرثاء" بين ركام الكتب المكدسة، وغاب عن الرفوف كتب أخرى كنت أراها في المكتبة. أين ذهبت؟ هل استرجعها الناشر أم أنها نفدت؟ خجلت أن أسأله فأكتشف أنه لا يعرف أنني مؤلف وكاتب ولي في مكتبته بعض الكتب، وأن هذا الكتاب هو لي أنا، فالتزمت الصمت.

سألته عن أكثر الكتّاب الذين تُقرأ كتبهم هذه الأيام، قال لي رواية أكرم مسلم "بنت من شاتيلا" عليها إقبال جيد، وسألت عن رواية وليد الشرفا الأخيرة "ليتني كنت أعمى"، كنت أود الحصول على نسخة، يخبرني أنها نفدت. وسألته عن إبراهيم نصر الله، وقد رأيت ديوانه المجدّد بطبعة فلسطينية في المكتبة "الحب شرّير"، قال قديما كان نصر الله مقروءا أكثر أما هذه الأيام فكتبه لا تبيع. وقال إنه يكثر من الكتابة. وثلاثيته الأخيرة لم تنفد على الرغم من أنه قد أحضر منها أربع نسخ فقط، ينهض من على كرسيه، ويريني أنه ما زال عنده نسختان منها.

رويت لصاحب المكتبة أن مكتبة عريقة في نابلس قلب أصحابها المكتبة إلى محل بيع الخضروات، البندورة والبطاطا والبصل أهم

من الكتب، لم يستغرب صاحب المكتبة من هذا الفعل وأخبرني عن رغبة إخوته في إقفال المكتبة واستثمارها لعمل أكثر نفعا. يشكو صاحب المكتبة من ندرة بيع الكتب والدوريات ولو مكثت عنده يوما كاملا، كما قال، فإنه لن يبيع بأكثر من خمسين أو ستين دولارا.

حال مزر جدا، ربما يعوضه قليلا أنه صار يبيع قرطاسية، حتى هذه لم تعد مطلوبة كالسابق، فقد قضت عليها الأدوات التكنولوجية من هواتف ذكية وأجهزة الحاسوب الشخصية، يستلّ جهازه الشخصي ويشير إلى أن هذا هو السبب. لولا هذه الأجهزة لوجدتني الآن أكتب على دفتر مستخدما قلم حبر! وليس باستخدام جهاز الهاتف. قال لي علينا أن نتغير نحن أيضا حتى نستطيع تلبية احتياجات السوق.

وأنا خارج من المكتبة سألت نفسي هل يأتي يوم وتصبح القرطاسية القلم والدفتر من الماضي، ولا نراها إلا في المتاحف أو مجرد ذكريات موروثة عنا نحن الذين سنصبح أجدادا لأحفاد ينبتون في زمن جديد لهم أدواتهم وتفكيرهم، ولهم حياتهم التي ستختلف عن حياتنا.

ما زلت في المعرض انتحيت جانبا لأكتب، لم ألاحظ ولم ألتق بمثقفين كثيرين، شاعر أو شاعرين لا أكثر! وتذكرت أن المثقفين

ينامون لساعات متأخرة، أو ربما لأنهم مشغولون في أمر مهم. تذكرت أن اليوم أيضا المؤتمر الرابع لاتحاد الكتاب والأدباء الفلسطينيين. غادرت إلى مكان انعقاد المؤتمر، لتبدأ قصة أخرى وحكاية خاصة لكتابة بطعم المرارة.

الكتاب عموما شكّاءون، وأنا واحد منهم، أول كاتب التقيت به، وصافحته بحرارة الكاتب أمين دراوشة، أحمل كيسا منفوخا من الكتب أخبره أنني اشتريت كتابا له، يبتسم ابتسامة فرح حقيقي، ونظل أغلب وقت المؤتمر معا. في المؤتمر لم أحادث أحدا في موضوع الكتب إلا الكاتب الصديق زياد الجيوسي الذي حضر من عمان ليشارك في أعمال المؤتمر، يتشفى بي مازحا بما فعلته بي نزهة الرملاوي، والتشويش على ديواني "ما يشبه الرثاء"، وسرد عليّ قصة مؤداها أنه كان سببا في نفاد طبعة إحدى الكتب بعد أن كتب فيه مقالا سلبيا، فقال للكاتب يجب أن تشكرني لأنني سبب في الترويج لكتابك. ولذلك هو "مبسوط" لأن الرملاوي هاجمتني[1]، فلعل وعسى تنفد الطبعة من المكتبات. تصورات بعيدة لا أعتقد أنها قد أفلحت في هذا الغرض، فما كانت إلا زوبعة في فنجان وانفض السامر في انتظار فضيحة أخرى لكاتب آخر يقع في محظور التلقي العقيم.

[1] خصصت لهذه القصّة فصلاً كاملاً في كتاب "الوقوع في اللهب- فصول من المحاكمات الجائرة".

إن أغرب ما سمعته في المؤتمر ونحن على هامش الجلسات، رأي الكاتب محمد شريم الذي لم يكن مؤيدا لفكرة القصيدة التي شهرت فيها نزهة الرملاوي أنه لا يقرأ سورة يوسف أمام أبنائه. فهل فاقت بصيرتُه الوحيَ ليحجب السورة عن أبنائه بحجة أن فيها إغواء من زوجة العزيز التي قد "غلقت الأبواب وقالت هيت لك"؟ ربما! فعجائب الكتاب وخيالاتهم لا تنتهي، ويفوق ذكاؤهم كل حد ممكن، ليفاجئوك بالدهشة التي تدعوك للصمت والوجوم والحسرة.

حكاية ذلك الفتي الذي تعلّم القراءة بسرعة

في الثمانينيات حيث كنت فتى، بل غلاما محدود التطلعات. دخلت الصف الأول الابتدائي (هكذا كانت تسميته) في العام الدراسي 1979/ 1980، وشيئا فشيئا قطعت عقد الثمانينيات طفلا مشاكساً. نعم كنت مشاكسا، ولكنني كنت مجتهدا كذلك، الذاكرة ما زالت عامرة بكرا لم تفضّ الكتابة ختمها، مرحلة الطفولة كانت بائسة جدا. لا أريد أن أتحدث عن طفولتي وكيف عشتها، فقط أريد أن أتحدث عما يتصل بعالمي الكتابة والقراءة في تلك الفترة.

أمي، أطال الله في عمرها، كانت لا تقرأ ولا تكتب، وأبي، رحمه الله، بحكم عمله آنذاك لم يكن موجودا دائما في البيت معنا، ولحسن حظي وجيلي في تلك الفترة أن أغلب أمهاتنا كنّ أميّات وأغلب آبائنا كانوا مشغولين في العمل، ولحسن الحظ أيضا لم تكن الدراسة مرهقة، ولا المقررات صعبة، كنا قادرين على أن نتابع ذلك من المعلمات والمعلمين بيسر في المدرسة خلا بعض الوظائف التي كنت أنجزها بمساعدة فتاة الجيران، وكانت تكبرني كثيرا، ولعلها في تلك الفترة كانت قد تجاوزت المرحلة الثانوية، أو بالكاد. هذه الفتاة لها فضل كبير عليّ، رأيتها وأنا في سنة أولى في الجامعة، وكنا قد

افترقنا لنسكن في بيت جديد في قرية مجاورة، مرت سنوات كثيرة. رأيتها وكان معها أطفال، ربما هم أطفالها. هممت أن أسلم عليها. تراجعت وتخوفت، ولكنني أذكر أنني قد شكرتها في سري وقد جمعتنا حافلة القرية.

هذه الفتاة علمتني الرياضيات، وكانت تساعدني في حل واجبات الجمع والطرح والضرب والقسمة، كانت تتابعني ونساء الحي وأمي مشغولات في أحاديث الناس وما قد تعلمونه من تلك الأحاديث، لم أكن ألقي بالا لتلك الأحاديث ولم أتذكر منها شيئا، ربما لعاديّتها المفرطة، لا شيء كان يثير شهيتي لسماعها.

هذه الفتاة كانت تعلمني دون مقابل، ليس لأننا جيران خير، وعلاقتنا جيدة فقط، وليس لأننا كنا فقراء أيضا، بل لأن الدروس الخصوصية لم تكن شائعة لطلاب المرحلة الابتدائية، أو للطلاب عموما في القرى، كانت شائعة ومعروفة في المدن، وكان لسان حال الناس في ذلك الزمان: "عيب توخذ أجرة، وَلْ يا عيب الشوم، الناس للناس، هوّ الدنيا بليت"، وكثيرة تلك التعبيرات التي كنت أسمعها تغذّي هذا الاتجاه.

لم تكن هذه المساعدة هي الوحيدة للناس في القرى، بل إن هناك أعمالا كثيرة كانت تؤدّى من باب المعروف والواجب، دون

مقابل، وكان تقاضي المرء عليها أجرة يعد عيبا ومنقصة، الآن أصبحت "شطارة" و"الزرق يحب الخِفيّة"، و"لحلحة"، وما إلى ذلك من تعبيرات جائرة على كل قيم التعاضد والتكاتف.

هذه الفتاة غرست في روحي قيما جميلة، فصرت مثلا أنفر من النظرة المأجورة لأعمال الخير، بين الجيران، وغير الجيران، كنت دائما إلا في حالات نادرة أعلم الطلاب دروسا بدون مقابل، وقد امتنعت أخيرا عن فعل ذلك، لأنني كنت مضطرا في حالات معينة أن أدرّس أحد أبناء الذوات، وكانوا يصرون على دفع أجرة، صحيح أنهم كانوا كرماء وهم من كان يحدد المبلغ، ربما كرمهم هذا كان يشعرني بالتفوق الطبقي لا احترام العلم والمعلمين، فكنت كثير الضجر من داخلي، فقررت الامتناع عن ذلك إلا لمن هو بحاجتها فعلا وليس هناك بديل والمعلمون الآخرون مشغولون ووقتهم مزدحم، وعلى شرط واحد أن يكون ذلك في بيتي ودون مقابل.

وقبل أن أعود لموضوع الكتابة أحب أن أستذكر شيئا من الذكريات التي ما زالت واضحة كأنها حدثت أمس، موقف لمعلم اللغة الإنجليزية. كنت في الصف الخامس الابتدائي لاحظ تعثري بالقراءة، فكلف أحد الزملاء بتدريسي بعد الدوام، لم أستجب للمعلم، خجلت من ذلك، ورأيت الأمر غير لائق وغريب، عرف

المعلم بعصياني لأمره بوشاية زميلي بي، أتذكر أنه عاقبني، وكان عقابه محتملا عكس معلم اللغة العربية والاجتماعيات في الصف السادس الأساسي الذي ضربني ست مرات بـ "البربيش" على راحة يدي الوحيدة ضربا مبرحا، ولكم أن تتخيلوا الألم الذي أصابني، فقد بقيت أبكي متوجعا مركونا على عتبة الصف طوال تلك الحصة وفي فترة الاستراحة، موقف لن أنساه وسيظل محفورا بكل عنفوانه وقسوة ذلك المعلم الذي لن أسامحه ما حييت. نجوت من عقاب معلم اللغة الإنجليزية بالإصرار على أن أقرأ جيدا، وأخذت أسابقه وهو يقرأ لنا قطعة جديدة، فانتبه لي وتركني أكمل، فشجعني وأثنى عليّ، ومنذ تلك اللحظة أعفى زميلي من مهمة تعليمي بعد الدوام.

وفي العودة إلى موضوع الكتابة. فأي شيء كنت أعرفه عن القراءة والكتابة غير الكتب المقررة في عقد الثمانينيات، لم نكن كأسرة نعرف الكتب والصحف والمجلات، لم يكن في بيتنا كتاب سوى المصحف، وربما لم يكن في بيتنا في طفولتي مصحف، فالأم لا تحسن القراءة، ولا تصلي بغير الفاتحة، وأبي في عمله يكدّ "من العتمة للعتمة"، لا شيء كان يشجع القراءة والكتابة، لم يكن في قريتنا مثلا مثقف واحد، ربما كان موجودا ولكن لا أحد يعرفه ولم

يسع إلى التعريف بنفسه، ولم يكن أيضا في القرية شاعر أو كاتب أو مفكر، لم أسمع بذلك، كانت الكتابة على ما يبدو حكرا على آحاد الناس المفرقين في أشتات المدن الكبيرة، هكذا أتصور الأمر الآن، لعلك لا تجد من بين كل ألف شخص، شخصا كاتبا أو شاعرا. كان للكتابة ألقها على ما أظن، وكانت الناس تعرف قدرها، فلم تكن لتجرب حظها، أو أن تتطفّل فتكتب وتنشر، مع صعوبة النشر ومحدودية آلياتها آنذاك على ما أصبحت أدركه فيما بعد.

في هذا الجو البعيد عن أجواء القراءة والكتابة قطعت فترة الثمانينيات، وأظن أن أول كتاب قرأته كان في المرحلة الإعدادية مستعارا من مكتبة المدرسة، كان كتاب مختارات من شعر الرصافي. ولما أن أخذت أكبر قليلا اكتشفت أن أبي كان يمتلك ثلاثة كتب: رسالة لأبي العلاء المعري وكتاب الرسالة الخالدة، وسيرة عنترة. لم تكن هذه الكتب في بيتنا، كان أبي يحتفظ بها في بيت جدتي رحمها الله.

قرأت من تلك الكتب فقط كتاب سيرة عنترة كله، كان كتابا سلسا وما فيه من أشعار كانت سهلة، وأشك أن عنترة هو صاحبها، بعد أن قرأت ديوان عنترة وجدت فرقا شاسعا بين تلك القصائد وقصائد الديوان، وربما ركّب القصّاص قصصا ومشاهد لبعض

قصائد الديوان، المهم أن الكتاب استهواني وأتممته بشغف على الرغم من حجمه الكبير وعدد صفحاته وخطه الصغير. وأما كتاب الرسالة الخالدة فتفسخت صفحاته وذهب هنا وهناك وأتلفته بعد ذلك، ولكنني عندما تولعت بالكتب، لم أنسه واشتريت نسخة منه مطلع سنة ألفين ولم أقرأه، ورأيت أنه من الواجب تعويض نسخة أبي التي أتلفتها، أما رسالة أبي العلاء المعري، فقد قرأت بعضا منها، كانت لغتها صعبة عليّ، ولم أعد إليها وأقرأها حتى بعد أن تمرّست بقراءة الكتب الأكثر صعوبة منها. وبقيت هذه الكتب في مكتبتي الخاصة شاهدة على فترة كنت فيها أحبو على ظلال الكلمات، وأتلمس وهج المعاني الناضجات.

ما بين أول واجب ساعدتني فيه ابنة الجيران، جزاها الله خيرا، وبين أول طريق نحو الكتابة، كانت عوالم تنمو في الخفاء، وخلّفت مثلا عدم حبّ للرياضيات؛ لأنني كنت دائما محتاجا لغيري كي أفهم، وانسحب ذلك أيضا فيما بعد على مادتي الكيمياء والفيزياء، كنت وما زلت أكره هذه العلوم. خرجت منها إلى الأدب وعوالمه، ولكنني صحوت وإذا كل الناس كتّاب، وصار عددهم أكثر من عدد القراء، وصرت تجد في كل قرية كتابا ومؤلفين، وصار الهوس واضحا للتلبس بهذه الصفة، اختلط كل شيء بأي شيء، ففي الفترة

التي كنت أتعلم فيها الرياضيات على يد ابنة الجيران كان الكتّاب نادرين، وكان الكتاب نادرا، والكتابة قيمة نادرة.

والآن وأنا أستذكر هذه الحوادث يضجّ العالم بالكتّاب، صغارا وكبارا، رجالا ونساء، فقراء وأغنياء، متعلمين وغير متعلمين، مؤمنين وملحدين. والكتب متاحة لمن هبّ ودبّ ولكن لا تجد لها قارئا مركونة على قارعة الطريق.

كنت أتمنى لو أصبحت كاتبا في عقد الثمانينيات، لكنت الآن أكبر عمرا، وأفضل أسلوبا، وأفخم حضورا، ولكن كيف يتأتّي ذلك وأنا كنت في تلك الفترة تلميذا يُتَأْتئ بالعمليات الحسابية الأربع على يد ابنة الجيران. فيا ليتني، "وهل ينفع شيئاً ليتُ"!

القراءة المرة في رسائل البريد الإلكتروني

في ديسمبر يستبدّ بي الحنين، أعود إلى قراءة رسائل البريد الإلكتروني؛ أفتش فيه عن بقايا تلك المرأة الراحلة، أجدها ما زالت ماثلة أمامي في النصوص والصور والأغاني العذبة بصوتها المجبول بالسحر النقيّ، ثمة حبّ وغضب، وأشياء أخرى، تصلح هذه الرسائل أن تكون مادة روائية، ثمة حبكة جميلة تنتظمها منذ أن بدأنا بالتراسل وحتى آخر رسالة بعثتُها، روايات قرأتها كانت تقوم على أسلوب الرسائل، وأخبرتها بها في واحدة من تلك الرسائل، أهم تلك الروايات رواية "الوطن في العينين".

بلغ عدد الرسائل بيننا (529) رسالة، بدأت هذه الرسائل بتاريخ 2015/10/22، وانتهت برسالة مؤرخة بـ 2023/2/14، وهو موعد عيد الحب الذي يسبق تاريخ ميلادها بيومين، أرسلت لها رسالة مقتضبة على شكل صورة، تمثل حوارا بين شخصين افترضتهما أنا وهي: أقول لها: "مهما عدت السنين ما بتتنسيش"، وتأتي الصورة الثانية للمرأة لتقول، وكأنها هي: "السنين ما بتنسيش". لم ترد على الرسالة، وبقيت وحيدة شاهدة على حب انقطع حبل وصاله بيننا، لكنه لم يمت، يا للمفارقة البائسة لقد كان يوم عيد الحب عام 2021 سبب فراقنا واختلافنا، لم يكن سببا وجيها أو منطقيا

لنفترق، إنما كانت تبحث عن فبركة حجة لتقول لي: لقد وصلت أيها البائس إلى محطتك الأخيرة، فانزل من حافلتي، فنفضتني عن جسدها، كما تنفض عجيزتها وأفخاذها وقد تعلق غبار الطريق على بنطالها الجينز الذي كنت أقرأ ما تحته كلما التقينا وانتعشنا من الخلف ومن الأمام وعلى اليمين واليسار ومن أسفل ومن علٍ، قراءة متأنية فاحصة، فأتشبّعها كما الأفكار، فأعيدها صياغتها لغة بهية من جديد في كتاباتي.

أنفقت في قراءة هذه الرسائل يوم دوام كاملاً، بعضها وظفته في كتاب "الثرثرات المحببة"، وبعض آخر منها تحدثت عنه في كتاب "فتنة الحاسة السادسة- تأملات حول الصور"، وأظن أنْ لو قرأت الكتابين ستتعرف على رسائلها وصورها بسهولة، ولو قَدّر لها أن تقرأ هذا الحديث لعرفت نفسها، ولربما ضحكت من سذاجتي التي لم تنفكّ تتلبس بي كجنيّ عنيد، إذ كيف لها أن تظلّ متوهجة بذاكرتي بعد كل هذا الضباب الكثيف الذي صنعته في مرأى البصيرة والبصر؟ فإنها لم تعمَ الأبصار، ولم يعمَ القلب الذي في صدري عامرا بحرارة صدرها المتوثب الموّار بشهوة لم تُنل.

لا شك أن في هذه الرسائل كمّاً هائلا من الحبّ، ومن الألم، ومن الجمال، ومن الخديعة أيضاً، كنا نفكر سوياً، ونكتب النصوص

معاً، ونتبادل الكتب لنقرأها، قرأنا معا كتب ماريو فاغاس يوسا، وكتب نيتشه، لقد عرفتني على الماركيز دوساد وروايته "جوستين" تلك الرواية التي اصطحبتها في واحدة من سفراتها الكثيرة. لقد كانت تسافر كثيرا قبل الحرب، وكتبت لها رسائل عن السفر، إنها كانت وحيي الذي كاد ينقطع لولا ذاكرتي الحية التي تصرّ على استعادتها كلما جف فيّ عرق الزمن، فأعود لأرويه ليظل نضراً أخضر، يحدّث بالحب كلما اشتقت لتلك المشاعر التي تفيض أحياناً فتغرق الكتابة بمائها ومكّائها.

ليس الكتب فقط، بل كنت أزودها بالصحف والمجلات التي أنشر فيها شيئا من النصوص التي كتبتها فيها، أو تلك التي نشرتْ فيها نصوصها، قراءة نصوصها كانت تعني لي أنني أقرأها هي، وليس النص، كنت أراها تتلوى بين الحروف راقصة باليه ماهرة، كنت أراها ضاحكة بسخرية على أعتاب نص حميميّ يستدرجني إلى سرير المتعة.

ثمة نصوص كثيرة كتبتها لها في تلك الفترة، اشتهيتها فيها بعنف لتراقص أعضائي، وأعزف على جسدها معزوفة الموت الشهيّ. قرأتْ تلك النصوص، ولم تأت إليّ ولو مرة واحدة. كانت قاسية جدا،

منحتني جسدها لأقرأه عن بعد فقط أو في التخيلات والتصورات المميتة.

ثمة رسالة تخبرني فيها أن كتبي التي أرسلتها طرودا عبر البريد العادي قد وصلت، لم تهاتفني لتبلغني، ليهدأ قلبي ويطمئن، أعرف أنها ستلتهم تلك الكتب ولن تتركها تأخذ مكانها على رف مكتبتها، في كل مرّة تقرأ لي كتاباً تهتم بكل حواسها الست؛ تقرأ، وتحلل، وتربط، وتستنتج، وتقرر، وتفتش عني وعن أخريات في ثنايا سطورها. بعثت إليّ رسالة في البريد الإلكتروني، مع صورة للمغلف كاملا بطوابعه، وبجانبه نظاراتها التي تكسب جمالها رونقا مقدساً، يعلو على كل جمال، أنتظر رأيها في ما ستقرأ، لكنها كانت تحجم عن فعل هذا، مما يثير فيّ الحنق والغضب، وأعزم على ألا أبعث لها مرة أخرى أي كتاب.

هذه القراءة بعد نحو ما يقارب الثلاث سنوات من الانقطاع التام في الكتابة، والانقطاع التام في اللقاءات، أعادت لي كل تفاصيل هذه العلاقة المريبة التي ليس لها معنىً. نعم إنها علاقة لا معنى لها؛ لأنها دون فائدة سوى الألم الذي كان يكبر يوميّا، وكلما وصل حافة الاندثار لتصمت ناره، وإذا بها تفور مرة أخرى حارقة لا ترحم. كأنني كنت أقرأ حبا لا يعرف الرحمة، وعن امرأة لم تأخذ

حرارة دمها من دمائي عندما قررت أن تغادرني إلى غير رجعة، تركت روحها متعلقة في روحي لتعذبني كلما مرّ بي اسمها أو بعض اسمها، بل إن اسمي صرت أخاف منه لأنه يذكرني باسمها على نحو مخيف، صرت أتوجس من كل فاءاتي التي تغرس فيّ أنيابها حادة كلما قرأت كتابا أو كتبت نصاً أو مقالة، إنه عذاب قدريّ طويل العمر، لن ينتهي!

أخذتني هذه الرسائل إلى رواية الكاتب محمد السالم "حبيبتي بكماء"، ثمة تشابه بيني وبين بطل الرواية الذي يوظف البريد الإلكتروني في مناجاة حبيبته، وبث عواطفه ومشاعره، رحلت ولم يتبق له إلا رسائلها، ويعاني مثلي من عقدة عدم النسيان، يقول: "النسيان لص ماكر في اختيار ضحاياه، لا يسرق منك ما لا تريده أن يرحل، ويختار تلك الذكرى التي تريدها أن تبقى، يسرق لحظات الفرح منك ويوهمك أنك لم تذق حلوى السعادة طوال أيام حياتك، ويتجاهل أطياف الحزن التي ترهقك بمشاكساتها وبقفزها أمامك"، لذلك تظل أطيافها تتقافز أمامي كلما رأيت امرأة، أي امرأة، فلا بد أن فيها شيئا منها، ولو كان حرفا أو لفتة أو خصلة من شعر.

قراءة رسائل الراحلين غير مريحة، ولا تشبه قراءة الكتب، تجعلك تلك الرسائل حزيناً، خائباً، تشعر بالتفاهة، كيف لحب عاش كل هذه الملحمة من الكتابة والصور والكتب واللقاءات أن يموت فجأة؟ هل مات حبها فجأة؟ الرسائل تقول شيئا آخر؛ أن هذا الحبّ قد اختنق ولم يمت، يتنفس بصعوبة كبيرة، لكنه لا يشعر أنه في النفس الأخير من حياته، إنه يصارع فقط، كمن هو في الجحيم فلَا يقضىٰ عليه فيموت ولا يخفف عني من عذابه ولو مقدار خردلة.

لماذا أقرأ رسائلها إذاً وهي تجعلني أتقلب على جمر النار؟ شيء غريب يقول لي عليك أن تقرأها بين الفينة والأخرى، فأنا لا أحب التخلص من القديم مهما كانت حالته، الرسائل والأشياء والأشخاص، حتى الكتب، كثير من الكتب القديمة جدا وحالتها رثّة لا أستطيع التخلص منها، وكتب أخرى مزّقها أحفادي أو عبثت بخربشاتها عليها بناتي، بقيت على حالها في المكتبة تذكرني بشقاوتهم، مرأى الكتب الممزقة والملطخة بالخطوط العشوائية الطفولية يثير فيّ الحزن والبؤس والحسرة، لكنها كتبي على أية حال، ولا يصح التخلص منها، فكيف لي أن أحرق كتابا صالحا للقراءة ولو تبقى منه صفحة واحدة؟ كذلك رسائل هذه المرأة، كيف لي أن

أتخلص منها، وهي شواهد عمر قضيته متبتلا في أحضانها ولو مجازاً، لست عاشقاً أحمقَ لأتخلص من تاريخها الشهيّ، حتى لو تجرعت آلاف المرارات وأنا أقرأ تلك الرسائل.

كيف يعتدلُ الميزان فجأة؟

القارئ الضمني هو ذلك القارئ الذي قد يقرأ العمل الأدبي ويقصده بمعنى آخر. هل فكر الكاتب بهذا القارئ؟ وكيف يمكن أن تكون ردة فعله؟ وأحيانا أخرى يتطابق القارئ والكاتب، وقد حدث الأمران معي.

آخرها ما أفاض فيه صديقي الكاتب والباحث الدكتور نبهان عثمان إثر قراءته لكتابي "مساحة شخصية- يوميات الحروب على فلسطين". يتصل بي الدكتور ويعبّر عن إعجابه بالكتاب وأفكاره وبأنني كتبت ما بداخله. في الحقيقة نحن نتطابق في أمور كثيرة أنا والدكتور نبهان، ولاحظت ذلك وأنا أعمل على تحرير كتابه الجديد "الثقافة الاستعمارية والألم البشري". يا لها من صدفة جميلة ومبهرة حقاً!

تحتاج إلى هذا النوع من القراء الكتّاب المثقفين الذين يمثلون مرتبة عليا من الوعي وامتلاك الرؤيا والفكرة، ثمة كتّاب أصدقاء أقرأ لهم ويقرؤون لي، أكتشف أننا نتشابه كثيراً. إنه جميل إلى حد ما، لكن لا بد لك من قارئ مختلف، يختلف معك ليثيرك ويشجعك على أن تنمّي مهارات التفكير والحجاج وتقليب الفكرة على غير وجه، بل ويدفعك إلى الشك بما تكتب لتعيد مراجعة ذلك. هذا

النوع من القراء مفيد، وعبقري، وضروري لا سيّما إذا كان متربصا بك، يعتبرك الوجه المضاد لأفكاره.

إلى الآن لم أجرب هذا النوع من القراء بهذه الكيفية بحيث نشكل معاً حلقة من اتجاه معاكس على مستوى الفكرة ونقاشها. اقترب من هذه الصورة قليلا صديقان، الأول الكاتب السياسي عمر حلمي الغول الذي عارضني في كثير من الأفكار التي كنت أضمنها مقالاتي، وصل الأمر به إلى أنه كتب مقالة وافية في الرد على مقالة لي، ونشرها في زاويته الخاصة في جريدة الحياة الجديدة. وأما الصديق الآخر فهو الشاعر والناقد الدكتور المتوكل طه الذي ناقشني مطولا هاتفيا حول مقالتين، إحداهما حول المثقف وعلاقته بالسلطة، والآخر عندما وجهت له رسالة ضمن مقالٍ لمناقشته في فكرة طرحها في ندوة أدبية حول الأسرى الفلسطينيين ودورهم. كلا الصديقين رائع، ورغما عن اختلافهما معي واختلافي معهما في بعض الأفكار والتوجهات السياسية، إلا أن لغة النقاش كانت راقية، وتدل على أن الحكم هو الفكرة وليس التعصب.

أما خارج دائرة الأصدقاء، أي من خارج دائرة المعارف، فثمة كتاب وقرّاء تفاعلوا مع ما أكتب، وكانت آراؤهم محفّزة لي على أن أجد في ما أكتبه أهمية كبيرة، وقد أفسحت لهم ولآرائهم مجالاً في

كتبي، مرسخاً بآرائهم أمرين اثنين، وهما: ديمقراطية الكتابة، بما تعنيه من حق الاختلاف، ومنهج النقد التفاعلي الذي أرى أنه من الواجب الأخذ به في كل كتاب جديد، لما له من أهمية نافعة في تصوير الفكرة وبحثها. وسبق أن أشرت إلى ذلك في مقدمة كتاب "الكتابة في الوجه والمواجهة"، وعدا هذا فقد خصصت كتابة غير هذه لبحث مسألة النقد التفاعلي كما بدا في تجربتي الكتابية، وخاصة النقدية، مبينا مظاهرها وورودها في كتبي، وأهمية أن يحافظ عليها الكتاب، ويولوها عنايتهم ففيها الكثير من المنفعة للقارئ والكاتب ومناقشة الأفكار سواء بسواء.

يمثّل هؤلاء- إذاً- نوعين من القراء، وثمة نوع آخر مختلف تماماً، هو ما سأتحدث عنه بالتفصيل فيما سيأتي:

في حالات نادرة، أشبه بالهدايا الربانية العظيمة، تمنحك الحياة قارئاً متفحصاً، نهماً، عارفاً، متيقناً من صنعته. نعم صنعته! ليست وحدها الكتابة هي صنعة، بل القراءة صنعة لا تقلّ أهمية عن صنعة الكتابة، و"القراءة عملية معقّدة" كما يقول إدوارد سعيد، لا سيّما القراءة التي يمارسها قراء من هذا النوع؛ الذين لا يطمحون أن يكونوا كتّاباً، ولا نقّاداً، لكنهم يعرفون أن الكتاب جيد، وجيد جدا، بل ممتاز، ويعرفون من خلال معايشتهم تفاصيل كثيرة عن

الكتاب المقروء إلى الحد الذي يفاجئ الكاتب نفسه. إنهم فخورون بأنفسهم كونهم كذلك، يكشفون عن روح الكتب وروعتها، ويضعون أيضاً أيديهم على مواطن الخلل التي فيها.

لقد حباني الله- ككل الكتّاب- في حقيقة الأمر بأمثلة كثيرة من هؤلاء القراء المثقفين الذين هم أفضل عندي من النقّاد؛ الأغبياء أحياناً. أغبياء لأنهم حشروا أنفسهم في أسمائهم ونصوصهم، ولا يبحثون ولا يجددون، إنما هم يدورون حول أنفسهم كما يدور الثور بالساقية، ويعتمدون على اللغة النقدية الجاهزة التي تشعر القارئ بالغربة عن النص المنقود.

هؤلاء الأصدقاء يعرّفون أنفسهم بأنهم قراء، لهم مجساتهم الذاتية في الحكم على ما يقرأون؛ فهم لا يملّون من الكتاب، ولا يستطيعون التخلص منه إلا بعد أن يُتِمّوه لآخر جملة فيه، فلا يؤجلونه إلى وقت آخر، فيتحول إلى صديق ورفيق طوال الوقت، وقد يعيدون قراءته على مهل، ويدفعهم إلى متابعة البحث والتحري عن بعض ما جاء فيه، ليضيف لهم في نهاية عملية القراءة شيئا جديدا، مرسخا فيهم قناعاتهم التي شكلوها بفعل الحياة والتجارب، أو يُحدث لديهم قلقا معرفيا لأسئلة جديدة مقلقة، لعلها تساهم في خلق قناعات مغايرة. إنهم يتعاملون مع الكتب بجدية مطلقة؛ إن

استطاع الكاتب أن يقنعهم بكتابه منذ الصفحات الأولى، أو من خلال الفقرة التعريفية على الغلاف الخارجي للكتاب.

إنهم يستطيعون أن يقولوا للكتّاب الكثير عن كتبهم: الشكل العام، والعنوان، ولوحة الغلاف، والأفكار، وتفاصيل صغيرة؛ في العبارات، واللغة، والألفاظ، والتراكيب، وثراء اللغة، وإحداث الدهشة، والمتعة، والجدية في التأليف، والرسالة المبتغاة. إنهم عارفون أيضا بمآلات الصنعة الكتابية في بعدها البراغماتي الذي يهم القارئ، وحركة الكتب والأفكار بين عموم المهتمين، ويجيبون ببراعة عن جملة من الأسئلة المتصلة بلبّ عملهم: لماذا يقرأ القراء؟ ولماذا يكتب الكتّاب كتبهم؟ ويعرفون أيضاً أين أخطأ الكاتب، وأين فشل الكتاب في تحقيق رسالته التواصلية مع القراء.

كل هذا حدث مع زميلة قارئة، نهمة، تحب القراءة، ولديها تاريخ طويل فيه، تشعرك كأنها مثل ألبرتو مانغويل في التمتع بفعل القراءة، تتحدث عن هذا الفعل بفرح كبير، كما يتحدث مانغويل نفسه. لقد قرأت زميلتي هذه كتاب "**الكتابة في الوجه والمواجهة**"، وعلى الرغم من أن الكتاب طويل، صغير الخط، مكتظ بالأفكار إلا أنها استطاعت أن تقدّم حول الكتاب أفكارها بوضوح كبير.

لهذه القارئة محدداتها، فأنا لم أكتب رأيي في المسائل المطروحة دون أدلة. في حقيقة الأمر كنت حريصا على أن أدعم وجهة نظري بالأدلة النقلية والعقلية، وأحافظ على إيقاع واحد للكتاب في المناقشة العقلية الهادئة المطمئنة. انتبهتْ إلى ما في الكتاب من أفكار صادمة، لقد أزعجها أن تصطدم بهذا الواقع المرعب للثقافة، وما يدور في كواليسها من امتهان للمرأة، وتشدّد على امتهان المرأة لذاتها، وتمهّد الطريق للآخرين لتكون ضحية تصوراتها وهواجسها وتطلعاتها. لقد كسر الكتاب- كما قالت- تلك الصورة النمطية الذهنية التي تشكلت لديها منذ تعلقت بالقراءة وتعرفت إلى الكتّاب والكاتبات، فكانت ترى الكاتبات قديسات وعظيمات، وفي مكانة رفيعة ومكان عَليّ. جاء هذا الكتاب وكسر تلك الصورة بأطرها كلها، وفتح الملفات السرية للنظر إلى هذا الواقع الثقافي العفن، لقد كان الكتاب كفيلا بأن يسبب لها اكتئابا طويل الأمد، منعها أن تكمل القراءة، وكانت تتحاشى أن يجمعنا الوقت والظروف خشية أن أسألها عن الكتاب ورأيها فيه. لأنها كانت في قمّة الإحباط.

أكدت لهذه القارئة أن هناك خفايا أشد وأبلى، ولم أتطرق إليها، لأنها ستجعل من الكتاب حاوية لخطايا الكتاب والكاتبات، ولأن الهدف ليس هذا بالتأكيد من الكتاب، واكتفيتُ بالإشارة وبينت ما

أريد من أفكار بأمثلة محددة لئلا يتحول الكتاب إلى فضيحة ثقافية كبرى لوسط لا ثقافي، يعاني ما يعانيه من مشاكل أخرى هي أعظم من استغلال جنسي لكاتبة والتمتع بها من أجل إرضاء شهوة النفس الأمارة بالسوء لكاتب سمج وشهواني وعديم اللباقة والحس والذوق.

ماذا ستقول- مثلاً- عندما تعلم أن الكتّاب؛ بعضا منهم بالتأكيد تتأطر صورتهم في صورة أشخاص، أكثر انتهازية من أي شخص انتهازي آخر، مصلحجيون من طراز دنيء جداً، وأنهم في العموم ذوو مكائد وحسد ونفسية سوداء في تعاملاتهم البينية، وأنهم يشكلون فيما بينهم شِلَلاً طافحة بالغدر وسوء النوايا، ويتقنون أفعال النميمة الاجتماعية، وأنهم فشلة فكريون وكسالى، وانتقاميون، وكيف سيكون وقع الحقيقة عليها لو علمت أن من الكتّاب منافقين، وكذابين ودجالين، ونصابين، وعملاء مدسوسين، ومروجين للتطبيع، ويدافعون عن حلم الاحتلال والوجود التوراتي في الأرض المقدسة؟ وأنهم ماديّون لا يقدّسون سوى الدولار، ويطوّعون ما لديهم من مهارات وعلاقات مع المستوى السياسي من أجل تحقيق مصالحهم الصغيرة والكبيرة والفوز بالجوائز، والحصول على الامتيازات في الطباعة والسفر والمشاركة في الأنشطة الثقافية المهمة.

لقد اكتشفت دفعة واحدة على نحو صادم أن الكتّاب ليسوا أنبياء، وأن الكاتبات لسن قدّيسات، كما كانت تفكّر وهي بعدُ على مشارف القراءات الأولى لعالم الكتّاب الطافح بالخيال والرومانسية المثالية، وعلى أية حال كنت أشترك معها في هذا التفكير السابح في الصورة الفنتازية إلى أن دخلت هذا الوسط، وتعرفت إلى ما يدور فيه من كواليس ومكائد، وما يعتمل فيه من إقصاء وتشويه سمعة، وتدمير موهبة، وعايشتُ سياسة التعهير الثقافي من الكتّاب والكاتبات على السواء. وعرفت كيف تتم طباعة كتب الكاتبات الجميلات، وكيف يتم إشراكهنّ في المهرجانات الشعرية والمؤتمرات الأدبية في الداخل والخارج، وعرفتُ أيّ ثمن يدفعنه مقابل كل ذلك. وحتى لا تغضب مني جميع الكاتبات الجميلات من ذوات الصور اللامعة، والوجوه الحسنة والقدود الممشوقة والممتلئة، والصدور الفائرة الشهية، والأرداف اللافتة، وتحديدا الجميلات جدا، والأنيقات جدا، وصغيرات السنّ، أؤكد أن الأمر ليس عاماً، وليس هو قاعدة تنطبق على كل كاتبة أو شاعرة مشاركة في ندوة أو مهرجان أو طُبع لها ديوان، أو كتب لها "ناقد كبير" قراءة نقدية في أعمالها أو قدّم لها كتاباً أو ساهم في حفلات توقيع كتبها. فوجود

العفن في أي وسط لا يعني انعدام اللبنات الصالحة والصورة المناقضة النقيضة لتكون أمثلة إيجابية.

تتجاوز هذه القارئة تلك الصدمة بعد نقاش طويل ومرهق، وتستعيد القدرة على إكمال الكتاب، فيدور حديث آخر بيننا، تعبّر فيه عن إعجابها بالكثير من التراكيب اللغوية، وتخطّ في نسختها تحت الكثير منها. بل وترى أن الكاتب يجب أن يكون له هذا الثراء اللغوي والمعرفي، وهذا الاقتران المدرك بفطرة الصنعة الكتابية "أن لكل موضوع ألفاظه وتراكيبه التي تفرض نفسها على الكاتب في لحظة الكتابة". أعجبتني جدا هذه الإشارة الذكية، وكأنها تومئ إلى ما يقوله النقّاد إن لكل كاتب معجماً خاصاً به، وإن لكل موضوع معجماً خاصاً به كذلك.

إنها بالفعل قارئة محترفة، فأنا أفعل ذلك أيضاً. وأنا القارئ المحترف، أقرأ الكتب منذ كان عمري 13 عاماً وإلى الآن. لا تنفع نسختي التي أقرأها أي قارئ بعدي لكثرة ما أخطه عليها وما أكتبه من ملاحظات، سبق أن قلت ذلك في تغريدة على توتير (21 سبتمبر 2017): "الكتب التي أقرؤها لا تصلح لأحد من بعدي، ولذلك أيضا لا أعير كتابا قرأته لأحد، فعليه ما عليه من صوتي الداخلي وأنا أقرأ". نعم إنه صوتي وحواراتي مع ذاتي، وكذلك الأمر بالنسبة لأي

قارئ، ومع كل هذا، كم تمنيت لو أعطتني نسختها من الكتاب لأتأمل عملها القرائي؛ فأرى صنعتي الكتابية بين يديها على هديٍ من تفكيرها ولأسمع صوتها الداخلي، وأرى صورتي في هذا الصوت. إن هذا- وقد حدث- مذهل جدا، بحقّ، بل ومفرح فرحا لا حدّ له.

تزداد رغبتي في تعريف زميلتي هذه على كتب أخرى، فأمدّها بنسخة من كتاب "**شهرزاد ما زالت تروي**"، لما بين الكتابين من تشابه في الهدف، وإن اختلفا في طريقة العرض والتناول، فتأتي أيضا ملاحظتها دقيقة وعبقرية في نفورها من القراءات النقدية التي احتواها الكتاب.

لم تستسغ تلك القراءات، وشعرتْ أنها تقرأ عن أعمال أدبية غريبة عنها، فلم تفلح تلك القراءات بجسر الهوة المعرفية ما بين القارئ والقراءة النقدية، فثمة مسافة بينهما، لا تشجع القارئ على القراءة والاستمرار فيها، فهي لا تلبي شغف المعرفة، بمعنى أن الكتابة عاجزة وليس ناقصة فقط، هذا جعلني أفكّر بميزات القراءة النقدية الفاعلة.

أعتقد أن قراءات "**شهرزاد ما زالت تروي**" تختلف عن قراءات "**الكتابة في الوجه والمواجهة**"، فلم يظهر اعتراضها إلا على قراءات "شهرزاد..." النقدية. هل تطورتُ نقدياً؛ فثمة سنوات بين الكتابين

تزيد عن ستّ سنوات؟ أم أنها هي من شعرت بالملل بعد أن قرأت كتابين لهما الرسالة ذاتها، وربما تقاطعت الأفكار بينهما في منطقة ما؟ هل كانت فلسفة المجموعتين مختلفة أم أن أحدهما تكرار للآخر؟ لقد سألتها عن هذا الهاجس بالتحديد، لأنني أريد أن أعرف السبب، فلم تكن المشكلة في الأفكار ولا في الأسلوب، فقد استمتعتْ بالفصل الأول غير المرتبط بالأعمال النقدية. النتيجة الأخيرة مع هذا الكتاب، لم تكمله، لأن الكتاب في هذا الفصل لم يستطع أن يكون كتابا معرفياً مستقلا بذاته، ظل يعاني من النقص والعجز، ولا يفيد إلا من قرأوا تلك الأعمال فقط والكاتبات اللواتي كتبت عن كتبهنّ، لأنهم وحدهم من يستطيع أن يفهم ماذا كتبت حول العمل الأدبي.

دفعتني ملاحظتها المتبصّرة إلى أن أعود إلى كتاب "شهرزاد ما زالت تروي" لأرى كيف كتبت قراءاته النقدية وأقارن بينها وبين قراءاتي النقدية في كتاب "الكتابة في الوجه والمواجهة". ثمة إسهاب واضح في الكتاب الثاني، جعل القراءة النقدية أوضح في فكرتها وإضاءتها على العمل الأدبي، إضافة إلى أنني في كتاب "الكتابة في الوجه والمواجهة" أوردت النصوص المدروسة مع بعض القراءات، وركزت على الاقتباسات في التحليل النصي للأعمال الأخرى، ما

جعل القراءة مكتفية بذاتها في أغلب الأحيان، بالإضافة إلى أنني في مقالات هذا الكتاب ركزت على موضوع التنظير النقدي الذي أسهبت فيه عندما تحدثت عن الكاتبات أو أعمالهنّ، وذهبت نحو تعميم الأفكار، وحررتها من الارتباط الحتمي بالنصوص المدروسة.

على أية حال، فإن ما توصلت إليه أيضا مع هذا الكتاب له أهمية نقدية بالغة القيمة، فهي أولا تؤكد ما قاله إدوارد سعيد في أن المقال النقدي لا يغني عن العمل الأدبي، وتوصلتْ إلى هذا الحكم النقدي بخبرتها في القراءة، وثانياً يدفعني رأيها إلى ملاحظة جسر الهوّة بين القارئ والمقال النقدي في المستقبل؛ إذ الأمر الذي يراودني للكتابة حوله، كيف تجعل القراءة النقدية تغني نوعا ما عن قراءة العمل الأدبي؟ أو على الأقل لا تجعل القارئ يشعر باحتياجه للعمل، ويشعر بنوع من عدم الانسجام مع القراءة النقدية. هذا كان أمرا بالغ الأهمية من أجل تجسير الهوة بين القارئ- أي قارئ-، والكتاب- أي كتاب- وخاصة الكتاب النقدي، وفيما بعد بين القارئ وبين المقال النقدي الذي يحلل أي عمل أدبيّ، ويُنشر مستقلاً في الصحيفة أو المجلة فلا بد من الإيضاح والعمل على جسر تلك الهوة المكتشفة. كانت تأتيني قبل هذا الموقف تعليقات على تلك المقالات ولم أكن أهتم بها، تعليقات لها هذا

المضمون تقريباً، من مثل: "لم نقرأ العمل لنحكم على صحة القراءة أو منطقيتها".

بعد هذه التجربة توصلت إلى قناعة أنه من الضروري ألا يشعر القارئ أن عليه أن يقرأ الرواية أو ديوان الشعر محل الدراسة، وعلى المقال النقدي أن يُرِيَ القارئ الكتاب، فيحببه إليه أو ينفّره منه، لا أن يجعل بين القارئ والناقد هذه المسافة الداعية إلى قطع التواصل بين أطراف العمل النقدي: القارئ والناقد والمبدع. فالنقد هو الجسر الواصل بين الطرفين، ولا بد من أن يكون هذا الجسر مبنياً بخبرة مهندس فنان، بقراءة نقدية ممتعة ومكتملة الأركان، وعلى الجانب الآخر أسرّ عندما يقول لي أحدهم إنني صرت أكتفي بما كتبته عن أعمال الكتّاب لأحكم على جودتها، وهل هي جديرة بالاقتناء والمتابعة. هذا الحكم جاءني من شخصين مهمين بالنسبة لي، الأول أستاذي الدكتور عادل الأسطة، والآخر الصديق، شريك الأفكار الدائم الكاتب حسن عبّادي. فكلاهما يثق بما أقوله حول أغلبية الأعمال الأدبية، وإن اختلفنا؛ فاختلافنا في بعض الجزئيات، فأنا أحمل في داخلي بعض مميزات د. عادل في الطرح والمناقشة، فإن لم يرضَ عما أقول، فستعجبه- غالباً- طريقة التناول والبحث. وأما حسن فأنا أثق فيه كثيرا، ولذا فإنني غالبا ما أعرض عليه كتبي

لمراجعتها قبل أن تصدر. وهو يفعل ذلك، فالكتابة والقراءة بيننا قسمة وتفاعل.

هذا النوع من القراء يمنح الكاتب جرعات من الأدرينالين الذي يضخه في دمائه، فيزداد ثقة على ثقة. أنا- وكل الكتاب- بحاجة إلى مثل هؤلاء القراء الذي يكشفون جماليات ما نكتب. فيعطوننا الرغبة في زيادة العمل ومواصلة المشوار، لأننا بالفعل نقوم بعمل يستحق كل هذه المكابدات والتضحيات بالوقت والجهد والمال.

ترى هذه القارئة الشغوفة بالجمال أن الكاتب يكتب "لنا نحن القراء"، وهذا حق وعدل، فهذه الجموع القارئة التي تلتهم الكتب وتحرص على اقتنائها، هم من يصنع مجد الكاتب وحياته وحيويته وشهرته، ولولا هذه الجموع، لا معنى لوجود الكاتب، فلا كاتب يكتب للفراغ، وللّاشيء.

عليّ أن أعترف اعترافا صغيرا، لكنه فاضح، أن بيئة العمل التي أعمل فيها محبطة، فالزملاء لا يقرأون، لا كتبي ولا كتب غيري ولا حتى الكتب الرسمية ولا التعليمات وربما لا يقرؤون الكتب المقررة التي عليهم التعامل معها يوميّا في الميدان، فهم لا يجددون ولا يتجددون، على الرغم من أننا- نحن المشرفين التربويين- من أكثر الموظفين حاجة للقراءة بحكم عملنا التربوي اليومي المتجدد

المفتوح على الأفكار وتنوعها واضطرابها. فمنذ ما يقارب 28 عاما عملت فيها في وزارة التربية والتعليم معلما ثم مشرفا تربويا لم أجد في هذا المحيط قارئا جديا سوى أربعة قراء أو خمسة على أبعد تقدير، ومن سوء ما فعلتُ أنني أهديت بعض كتبي إلى زملاء لا يستحقونها، فقد "دحشوها" في أدراج المكاتب، أو بين أوراقهم المهملة، وكنت أرى منظرها وأتألم، ما دفعني إلى أن أسترجعها، ولم يحدث أن راجعني زميل ليسأل عن نسخته التي تكون قد ضاعت في هذه الحالة. أظن أن الفرَج قد جاءه من غامض علم السماء ليخلصه من هذا الذي حمّل حمله!

تأتي هذه القارئة لتعدّل كفة الميزان، وتقدم لي هذا الذي يطلبه أي كاتب في الكون؛ الاهتمام بكتابه، وقراءته بوعي فكري وبلاغي متقدم، ومناقشته، والتعبير عن الفرحة بقراءته، وأنه كان كتابا جيدا، ومفيدا، ولا بد من أن يُقرأ؛ لأن فيه ما يستحق القراءة، هذا النوع من القراء يستحق أن يكافأ بالمزيد من الكتب الجيدة، وهكذا فعلت وسأفعل دائماً مع كل قارئ جيد يُرضي طموحي، ويسعدني، فمن حقي ككاتب أن أنحاز لمن ينحاز لي من القراء العظماء، ولن أملّ من البحث عن أمثال هؤلاء، لأبذل لهم كتبي عن طيب نفس، طمعاً في توثيق علاقتي بهم كقراء أصدقاء يعرفون للكاتب حقه،

ويقدرون بصنعتهم العبقرية هذه صنعته التي يطمح لها أن تكون عبقرية لتتناغم العبقريتان في الهدف وفي النتيجة. فمعاً وسويا من أجل كتابة فاعلة وقراءة أشد تفاعلية.

عندما قرأتني سلمى بطريقة مشوّهة

سلمى هذه قارئة، ويبدو أنها متابعة لجلّ ما أكتب، أو على الأقل ما ينشر لي في موقع جريدة رأي اليوم الإلكترونية، وهي كذلك ذات لغة جيدة في التعليق والتعقيب على المقالات والنصوص المنشورة. أقرأ لها تعليقا على مقالة كتبتْها الصديقة الكاتبة صفاء أبو خضرة تناولت فيه كتابي "استعادة غسان كنفاني"، ونُشرت المقالة في الموقع بتاريخ: 2022/7/11، ثم عادت لتعلق على مقالة الرفيق عمر كتمتو حول الكتاب نفسه، وقد نُشرت المقالة أيضا في الموقع ذاته بتاريخ: 2022/7/12 لتؤكد الملحوظة الخاصة بعنوان الكتاب، لترفضه هذه المرة رفضا باتا ونهائيا.

هل كان تعليقها مزعجاً في المرّتين؟ لا أظن أنه يصل إلى درجة الإزعاج، لكنه مستفزّ بمعنى ما، أي يدفع الكاتب للكتابة، لأن الصورة التي في ذهن "سلمى" عني صورة مشوّهة كثيراً للأسف، وأنا هنا لا أصحح الصورة، ولا أحاول أن أزيل عنها الغباش، وما تراكم عليها من غبار، إنما لأوضح أكثر ما كنتُ كتبته يوما تحت عنوان "**كيف يصنع القراء الصورة؟**"، إن أي صورة لأي كاتب في ذهن أي قارئ هي صورة ناقصة بالتأكيد لاعتبارات كثيرة؛ أهمها عدم القدرة على الإحاطة والشمول بكل عوالم الكاتب الكتابية والنفسية،

فالقراء، ومنهم سلمى، يحكمون على ما تخايل لهم من صورة في تلك الكتابات.

في تعليقها الأول؛ أظن أن الصورة بعيدة درجتين حسب هذا المقال؛ الدرجة الأولى أن الكاتبة صفاء أبو خضرة استنتجت صورة ظنية لي من خلال كتابي، وهذا حق كل كاتب أو ناقد؛ فكل كتاب يحمل صورة لكاتبه، يطلق عليها في النقد "الكاتب الضمني" أو "المؤلف الثاني"؛ وهي الصورة التي قد تصل للقراء من هذا الكتاب، وهذه الصورة هي صورة متوهمة ومتخيلة، لكنّ لها شروطاً موضوعية لرسمها قد تساعد فيها الأفكار، وطريقة تناولها، وحدة مناقشتها، وطبيعة اللغة المستخدمة، والتوتر العاطفي، وما إلى ذلك من شروط، وقد لا تكون هي صورة الكاتب الحقيقية، وقد تلتقي مع بعض صفاته، وأحياناً قد تتطابق تطابقا تاما، مع ندرة هذا الاحتمال.

أما الدرجة الثانية في ابتعاد صورتي في "عيون سلمى وفكرها" أنها رسمت لي صورة أخرى أكثر توهما وبعدا من خلال نسجها من الصورة المتخيلة التي تكونت في "عيون صفاء أبو خضرة ومقالتها"، فكأنها رسمت صورة متخيلة عن صورة متخيلة أخرى؛ صورة بعد صورة، أو محاكاة المحاكاة، فابتعدت مرتين، فإذا كان الكاتب أو

الناقد وهو يحلل كتاب كاتب آخر يرسم صورة هي غير متطابقة قطعا، وبعيدة، فمن يرسم صورة أخرى لهذا الكاتب من خلال المكتوب عنه سيبتعد خطوتين، وتصبح الصورة مشوّهة وغير حقيقية.

ما هي الصورة التي رسمتها لي سلمى في تعليقها على المقال؟

أستطيع تتبع تلك الصورة في أنني **"كاتب غير دقيق"**، فخطأتني في عنوان الكتاب، فغسان "حي في نبض كل الأحرار الشرفاء ولا يحتاج إلى استعادة"، هذا يمسّ صنعة الكتابة وعصب الكتاب وفكرته الأساسية، مع أنها- وهذا جزء من التشويه المضاعف- لم تقرأ الكتاب، تعود في التعليق مرة ثانية لتكتب بشكل قاطع اعتراضها على العنوان بهذه الصورة: "عنوان كتاب الشاعر فراس حج محمد ليس موفقا... أنا قد اعترضت عليه لأن العنوان يوحي بأن الشاعر فراس قامة أدبية عملاقة أكثر من غسان كنفاني نفسه، وهذا بالطبع يجافي الحقيقة تماما!!!! وأرفضه بشكل مطلق!!!!! وحيث إننا بشر فلنا الظاهر ولا نستطيع معرفة نوايا مؤلف الكتاب!!! ومن فحوى مقالك هذا أستطيع الاستنتاج بأنك في البداية اعترضت على عنوان الكتاب مثلي تماما... ولكن بعد اتصالك بالشاعر فراس وافقت على عنوان الكتاب".

وحيث أن اتصالك كان على هيئة سؤال فرض رؤيتك على المؤلف الذي أجاب بنعم لرؤيتك وتوجهك الوارد في صيغة السؤال ولم يترك للشاعر فراس أية خيارات اخرى سوى تبني رؤيتك المفروضة عليه... مما يدعوني للتشكيك بصدق مقصد الشاعر فراس... وبالتالي ما زلت معترضا على عنوان الكتاب.... ولو صدقت النوايا بإمكانه تصحيح وتغيير عنوان الكتاب.".

إن في هذا التعليق كما هائلا من الاستهجان، يدل على ذلك علامات التعجب التي تستخدمها "سلمي" في تعليقها، وأظنّ أنها لو قرأت الكتاب ربما لغيرت وجهة نظرها، وأنا أهيب بها- إن قرأت هذا الرسالة- أن تراسلني على البريد الإلكتروني لأرسل لها الكتاب إلكترونيا، فهو متاح (بريدي الإلكتروني) إن بحثت عنه، وستجده إن كانت معنية بتصحيح هذا الخطأ الذي وقعتْ فيه، أو تعزز خطأي أيضا الذي وقعتُ فيه، كما قال القرآن الكريم: "فإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين"، أو على الأقل لتشرح لي كيف يوحي العنوان بأنني قامة أكبر من غسان. هذه النقطة تحديدا لم أفهمها. في هذا التعليق أبدو أيضا **مغرورا ونرجسيا** كثيرا، ربما **ومتطاولا** على العظماء كذلك.

الملمح الثاني لهذه الصورة المستقاة من التعليق الأول هي أنني **"حسود"**؛ أحسد غسان كنفاني على محبوبته غادة السمان، وأتمنى أن يكون لي حبيبة كغادة. هذا أيضا- كما جاء في الكتاب- له سياق كامل متكامل وضعت فيه هذه الأمنية. إنّ موضوع الحسد والغيرة موضوع مبرر لو كنت أنا وغسان من جيل واحد أو متنافسين على أمر واحد أو أنّ كلينا يحب امرأة واحدة، متعلقيْن بها، أما أن أكون ولدت بعد استشهاد غسان بثلاثة عشر شهرا تقريبا، فكيف سأحسده؟ هذا من باب المقاربات غير اللازمة، ولا تدخل في حساباتي ككاتب. هذه الصفة صفة نفسية قاسية ومقيتة، ولن تصدقني "سلمى" لو دافعت عن نفسي في ذلك، ولو عرفت علاقتي بالزملاء الكتاب والكاتبات لم تقل ذلك، ولم تُلبسني هذه الصورة المشوّهة، ولو قرأتْ ما كتبته تحت باب "غسان كنفاني وأنا" لربما أيضا رأتني بصورة أكثر إيجابية.

كتابتي عن غسان كنفاني كونه مثقفا وعظيما وكاتبا مُهمّاً، أحبّ وأرغب أن أحقق ما حققه من تأكيد صدق مواقفي تجاه الأشياء؛ مثله تماماً، كونه كاتبا قدوة. هذه هي رغبتي الحقيقية في الكتابة عن غسان في هذا الكتاب، وفي هذا الفصل تحديدا، وموضوع الأمنية هي أمنية كل كاتب أن تحبّه كاتبة على درجة كبيرة من الوعي

والثقافة والحب والجمال كغادة السمان، وهذا أيضا ليس موضوع حسد إنما موضوع رغبة، فتجارب الكتاب يُقاس بعضها ببعض، ويتقارب الناس أو يكادون، ولا يحمل ذلك أي معنى سلبي، بل ربما أشار إلى أن غسان كنفاني كان ذا حظ عظيم حتى في الحب، كما في الكتابة، ومن بعدُ في حيازته شرف الخلود والشهادة، إذ أحبته كاتبة لها هذه المواصفات، وهذه من منح الحياة التي لا توهب لأي أحد، أذكّر فيها من باب ذكر النعم والمواهب والعطايا الإلهية، فكيف يكون حسدا؟ لعل أقرب ما يدافع عني ما قاله يوما الشافعي عن الصالحين: **"أُحِبُّ الصالِحينَ وَلَستُ مِنهُم، لَعَلّي أَن أَنالَ بِهِم شَفاعَةْ".**

فأنا أحب الكتاب الناجحين، ولست منهم، لعلي أن أنال بهم شفاعة، فإن لم نكتب عن هؤلاء وهم أصل الأدب، والتعلم منهم واجب، فهم أساتذتنا بمعنى من المعنى، فهل سنكتب عن الكتاب الرديئين السطحيين؟ وهل ستحمينا "سلمى" من قراء آخرين يسلقوننا بألسنتهم الحِداد ليقولوا عنا إننا مجاملون، ونشوه الحقيقة، وننسى الكتاب الكبار. سنجد من هم على شاكلة سلمى، وربما هي أيضا، ما تتهمنا به كذلك. فمن رام عيبا وجده.

تؤكد سلمى صفة **الحقد** فيّ، هذا الحقد المتفرّع عن الحسد بالضرورة، وتدعي أنني أحسد محمود درويش، فتقول: "المتتبع لكتابات ومقالات الشاعر فراس حج محمد يلاحظ- وبشكل فج- أنه يكنّ نوعاً من الحسد أيضا للشاعر الكبير الراحل محمود درويش". لا أدري كيف أتت بذلك؟ هل قرأت كتابي "في ذكرى محمود درويش"؟ وهل في هذا الكتاب أي ملمح للغيرة والحسد؟ وما ينطبق على غسان كنفاني في كتابتي عنه ينطبق على محمود درويش وكتابته، فأنا أحب درويش شاعرا، وناثرا، ولم أترك له كتابا أو حوارا أستطيع الوصول إليه إلا وقرأته، وأقرأه بلذة متناهية، وأكتب عنه بحب، ومقالاتي في ذلك كثيرة، وموقفي من درويش شاعراً يختلف عن موقفي منه سياسيا أو صاحب فكر، مال أحيانا إلى الإسرائيليين وصادق كتّابهم، وأراه "شاعرا مدجنا وانتهازيا وباحثا عن مجد شخصي" كما يُفهم إلى حد التصريح من حواراته، وكان ينادي بالدولة الواحدة، ويدعو إلى الصلح العام مع الإسرائيليين كما في قصيدته "سيناريو جاهز"، هذا الانتقاد ليس حسدا، إنما هو انتقاد لموقف سياسي، كما أنتقد السلطة الفلسطينية عامة، أو وزير الثقافة الفلسطينية، أو اتحاد الكتاب الفلسطينيين أو الأمين العام للاتحاد، أو الرئيس محمود عباس نفسه أو أي كاتب

آخر، فهل كل هؤلاء أحسدهم؟ يا لطيف، ما هذه النفسية التي أحملها؟ ما أشد سوادها يا سلمى!

الصفة الثالثة التي منحتني إياها سلمى، هي أنني أكتب عن هؤلاء العمالقة **طمعا في الشهرة**. تقول سلمى: "وبالرغم من كل ذلك، فإنه يتناول بالنقد وغيره سيرة هؤلاء الشعراء وكتاباتهم. وأتمنى أن لا يكون ذلك من باب التمسّح بسيرة هؤلاء العمالقة من أجل الشهرة". عندما نشرت بعض المقالات والنصوص الشعرية والنثرية ذات الأفكار "الإيروتيكية" اتهمني بعض القراء بأنني أكتب في هذه الموضوعات من أجل الشهرة. وها أنا عندما أكتب عن كنفاني وعن درويش أتهم بأنني أسعى إلى الشهرة أيضاً. بهذه التهمة صفعتني زميلة عندما حدثتها أنني كتبت مقالة ونشرتها عن تميم البرغوثي. ضحكت بمكر، ورمت تهمتها التي جرحتني بكل تأكيد.

بماذا ستصف "سلمى" من يكتب عن القرآن الكريم وعن شخصية محمد ﷺ، أو من يكتب عن الله عز وجل؟ فهل ستصفه بأنه يكتب ليكون نبياً أو إلهاً؟ لله درك يا سلمى ما أخصب خيالك هذا الفذ! وهذا ليس سخرية ألبتة، إنما امتداح لهذا الأفق المحمول على الدهشة الذي فتحته لي سلمى بهذا التحليل، أرأيت يا سلمى كيف يكون تلاقح الأفكار ذا إيجابية مطلقة؟

في واقع الأمر، هذا مقتل كبير يصيب الكتّاب، ولن يدافع عنك مثلُ كتاباتك، ولأن "سلمى"- رعاها الله- لم تطلع على كتاباتي جميعا ولم تُحِطْ بها علماً، توصلت إلى هذه النتيجة المستفزة. في الحقيقة كتبت عن كتّاب ما زالوا في أول الطريق، وهم كثر أكثر بكثير مما كتبت عن الكتاب العمالقة، بل ونشرت كتبا عنهم، وخاصة الكاتبات. هنا ربما حمل "سلمى" هذا "الاعتراف" على أن ترسم لي صورة مشوهة أخرى بأنني "**نسونجي**" أتمسّح من النساء وأتقرب لهن بالكتابة عنهنّ. أعتقد أنها مؤهلة لتقول هذا عني، سامحها الله. فكل شيء يصدق على الكتّاب هذه الأيام.

على أية حال، تأكدي يا "سلمى" أن صدري واسع ومتسع لملاحظاتك، ولم أضق بها ذرعاً، كما قد يجعلك هذا المقال ترسمين صورة أخرى عني لتضيفي لي من الأوصاف ما ليس فيّ، إنما من عادة الكتابة أن تجلب الكتابة وتجلّيها، وتتوالد الأفكار وتنمو على أذيال بعضها البعض، فشكرا جزيلا لك، على ما تفضلت به، وهذه دعوة لأن تقرئي كل كتبي فسأمنحها لك هدية، تأكيدا أنني لست منك غاضبا أو منزعجاً.

ودمت بود، ولتستمري في متابعتنا- نحن الكتاب- حتى وأنت ترسمين لنا مثل هذه الصور المشوّهة، "فمن نشر عرّض نفسه

للنقد"، علينا أن نكتب فقط ما نحن مقتنعون به، رغما عما يتشكل من صور ضمنية لنا، وعلينا أن نقرّ ونعترف أيضاً بأن الكتابة- مهما كانت شارحة- فهي ناقصة، ولذلك نحن الكتّاب نتحمل أحيانا ما يصل القراء من صور مشوّهة عنا من خلال كتبنا ومقالاتنا ونصوصنا، فهذه هي المعادلة فلنكن أكثر تسامحاً وديمقراطيّة.

وإلى اللقاء يا "سلمى" في المتون وليس في الهوامش.

كتاب "تاريخ القراءة" علامة مضيئة في تاريخ الإنسانيّة

كتاب "تاريخ القراءة" من الكتب المهمّة الّتي تكشف عن الوعي الإنسانيّ العامّ تجاه تعمّق الأشياء والأفكار والمعاني، وتقدّم بعدا فلسفيّا وجوديّا، فعلى مدى (345) صفحة من القطع الكبير، يقدّم المؤلّف (ألبرتو مانغويل)، وبترجمة سامي شمعون معلومات غاية في التّفصيل حول هذا الفعل الحضاريّ الفعّال، غير مهمل أيّ ثقافة من الثّقافات الإنسانيّة ومنها بطبيعة الحال الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، ولكنّه بدا غير مطّلع اطّلاعا شاملا على تفصيلات هذه الثّقافة اطّلاعه على الثّقافة الغربيّة، فيما يخصّ القراءة واحتفاء العرب بالقرّاء حتّى في عصر ما قبل الإسلام، وكذلك ما بعد حركة الدّين الجديد الّذي بسط نوره أوّلا في الجزيرة العربيّة شاملا مناطق واسعة من العالم منتجا كثيرا من الموادّ الأدبيّة الشّعريّة والنّثريّة والنّقديّة والعلميّة فيما يخصّ على الأقلّ مدوّنة القراءة الّتي هي من صلب موضوع الكتاب، من صناعة الكتب وتجليدها والمكتبات العامرة والشّغف بالقراءة، واهتمام الرّسول الكريم عليه السّلام والصّحابة بالقراءة، وبعض الأحداث المهمّة الّتي تجعل القراءة كفعل إنسانيّ تتساوى مع المال وتحفظ كرامة الإنسان.

لقد تعدّدت مصادر الكتاب، بتعدّد أسفار المؤلّف الّذي جاب العديد من العواصم شرقا وغربا، عدا أنّ صاحبه قارئ نهم منذ نعومة أظفاره، وله كثير من الطّقوس الّتي كان يؤديها في محاريبه الخاصّة بالقراءة في مكتبة والده العظيمة أو في غرف الفنادق الّتي قضى فيها بعض أيّامه متنقّلا بين العواصم بحكم عمل والده.

جاء كتاب "تاريخ القراءة" كتابا شاملا في كل ما يتّصل بالقراءة، فكان المؤلّف يؤسّس لأفكاره ويستعرضها تاريخيّا رابطا كلّ العصور والثّقافات معا في كلّ فصل من فصول الكتاب، فقد تحدّث عن القرّاء وعاداتهم في القراءة، وكيف يقرأون، كما أنّ الكتاب سجل حافل بأسماء القرّاء العاديّين والقرّاء من المشاهير عبر العصور في شتّى صنوف المعرفة الإنسانيّة متوقفا عند المكتبات وتنظيمها، وكيفية التعامل مع الكتب وتجليدها، واختراع آلة الطّباعة وأثرها في توسيع دائرة القراءة وجعل الكتاب أكثر شيوعاً، وما إلى ذلك، كما أنّه لا ينسى أن يزوّد القارئ بتلك الرّوايات الطّريفة حول سارقي الكتب الشّغوفين بها.

اعتمد الكاتب في عناوين الفصول الدّاخلية للكتاب على المجاز، فجاءت العناوين مجازيّة ذات دلالات خاصّة بالقراءة أو المعرفة، عدا أنّ الكاتب في كثير من المواضع يسرد تاريخ المعرفة الإنسانيّة

سردا يقترب من الشّاعرية ينمّ عن مدى حبّه للقراءة وانحيازه لها بوصفه أحد الشّغوفين بها، إذ لولا أنّه كذلك لم يكن ليقدم هذه الموسوعة الشّاملة حول "تاريخ القراءة".

يشكّل هذا الكتاب علامة أخرى من الكتب المهمّة الّتي ترصد إيقاع الحركة الإنسانيّة السائرة نحو الحضارة والنّور، وبذلك يكون المؤلّف قد رفد المكتبة الإنسانيّة بما يؤرّخ لحياتها الرّوحيّة والفكريّة عبر العصور. فكان كتابا مهمّا في موضوعه متفرّدا في مادّته، جميلا في أسلوبه، محفّزا على التّواصل الإنسانيّ الدّائم.

وبما أنّني أتحدّث عن تاريخ القراءة، فلا بدّ من الإشارة إلى ذلك التّطور الحادث في هذا الفعل الإنسانيّ، من تطوّر تكنولوجيّ وإلكترونيّ، وقد مسّ المؤلف شيئا من هذه القضية مسّا خفيفا عند الحديث عن بعض تجاربه الخاصّة مع الحاسوب في الكتابة.

فهل سيظلّ، والحالة الرّاهنة تبدو لصالح هذا التّطوّر، شغفُ القارئ التّقليديّ موجودا بالكتب التّقليديّة، أم أنّه بعد جيل، ربّما، سينقرض جيل من القرّاء الشّغوفين بالكتاب الورقيّ لتحلّ محلّه أجهزة (الآيباد) و(اللّاب توب)، ولتنتهي تلك العلاقة الرّوحيّة الحميمة بين القارئ والكتاب، وينتهي الكتاب إلى كونه قطعة أثريّة

تخلّد في المكتبات تحمل تاريخ عشق لم يبق منه سوى ما خلّد في كتاب مثل كتاب "تاريخ القراءة". وهذا ربّما ما تحيل إليه ظاهرة المجموعات الفيسبوكيّة الّتي تهتمّ بقراءة الكتب الإلكترونيّة بصيغتها المشهورة الـ (PDF)، الّتي صار بإمكانها اختراق الحدود والقوانين أيضا.

أيهما أهم أن تقرأ أم أن تكتب؟

غنيٌّ عن القول إن القراءة لها أثرها الواضح في لغة القارئ وكتاباته، وتشكل تلك القراءات وعيه، وتصوغ لغته وتصقلها وتمده بثروة لغوية وانفتاحاً فكرياً على آفاق متعددة، خاصة إذا كانت قراءات المرء متعددة الموضوعات وتنهل من موائد كُتّاب شتى، ولكن عليه ألّا يكون مقلدا عند الكتابة، فعندها لن يكون له أدنى فضل، ولذلك يصحّ أن نقول: "إن الأسلوب هو الكاتب نفسه". فلكل كاتب أسلوبُه ومعجمه اللغوي وطزاجة نصوصه التي تجعله مختلفا عن الآخرين، وتشير إليه حتما حتى وإن تجرّد النص من اسم كاتبه. فمن منا لا يستطيع معرفة نصوص جبران خليل جبران أو محمود درويش أو أشعار أبي الطيب المتنبي ويميّزها من بين ذلك الركام الهائل من النصوص؟ وقد التفت إلى ذلك كثير من النّقّاد قديما وحديثا، ولعلّ أول من فعل ذلك ابن سلّام الجُمحيّ عندما ناقش مسألة الانتحال في الشعر العربي في كتابه "طبقات فحول الشعراء"؛ فالأسلوب وطبيعة التركيب يدلان على النصّ دلالة شبه حتمية.

وتأتي أهمية القراءة في زمن التكوين العقلي والفكري للقارئ، تلك الفترة التي يكون العقل فيها محتاجا لما يملأه من أفكار

وأساليب، والقراءة لهذا الهدف سوف تكون أقل جدوى في فترة معينة من عمر القارئ، وخاصة بعد أن يكون قد استوى على سوقه كاتبا بلغته وأسلوبه وطريقة تفكيره، وتأخذ القراءات في هذه المرحلة بعدا وهدفا آخرين يكون فيها الشخص معنيا بمناقشة أفكار الآخرين وحوارها حوارا فكريا ضمن ما لديه من استعداد وقوى وملكات عقلية ومهارات كتابيّة، وليس من أجل أن تنداح تلك الأفكار انديا‌حا شاذا في نصوصه فتشي بأنه متّبع مقلد لم يزد على أن أعاد ما قاله الآخرون، وهو بهذه الحالة سيكون أدنى مستوى من الأصل المُحاكى، وفي هذا السياق نفهم مثلا تلك النصيحة القديمة لمن يريد أن يكون شاعرا مثلا أن يحفظ كذا بيتا أو قصيدة ثم ينساها. ولكن هل سينساها أم أن المطلوب أن يتجاوزها ليكتب الكاتب/ الشاعر نفسه بلغته وأسلوبه؟

تذكر هذه المسألة بما قاله الشاعر محمود درويش يوما إذا أردت أن تكتب الشعر فاقرأ النثر، وإذا أردت أن تكتب النثر فاقرأ الشعر، على ما في قول درويش هذا من أهمية إلا أنه يحتاج إلى فهم حقيقي يندرج في مسألة البعد عن الأسلوب في الحالتين، وتغريب الأفكار ومنحها هُويّة مختلفة.

إن مسألة القراءة في هذه المرحلة- مرحلة الكتابة- دقيقة وخطيرة في الوقت ذاته، وربما احتاج المرء فيها أن يتأمل الأشياء من حوله ويتأمل كل تلك الأفكار التي تضج بعقله وتعصف بخاطره، ولذلك كان احتياج المرء إلى أن يكتب أكثر من احتياجه لأن يقرأ، فثمة تجربة ذاتية يجب أن يستفاد منها إلى الحدّ الأقصى من الاستفادة، فلا يصقل الكاتب بعد تلك القراءات الأوليّة مثل ما تصقله تلك التجارب وتأملها وكتابتها على نحو مختلف، وهذا ما أشار إليه يوما خلال حديث قصير أحد الكتّاب الروائيين بأن ما يلزمنا اليوم في هذه المرحلة هو الكتابة والمواظبة عليها.

يبدو ذلك صحيحا إلى حد كبير؛ لتصبح عملية الكتابة نسجا من آمال الكاتب وتطلعاته، وليس تصورا آنيا لما يقرأ، فليس شرطا لكي تكتب نصا مختلفا أن تكون قرأت شيئا مختلفا، إن هذا الاتّهام لهو أكثر ما يعيب الكاتب ويدخله في دوائر من التبعية والتقليد، وكل من ظنّ مثل هذا الظنّ إما أنه جاهل بطبيعة الكتابة لدى الكاتب المتمرّس أو أنه يشكّ بقدرته على أن يأتي بجديد دون تأثر لحظي مباشر بقراءة لحظية ما، وفي كلتا الحالتين يكون الأثر التقييمي سيئا على الكاتب ونصّه، ويحدث غصّة بالغة الأثر، لا سيما إذا كانت تلك الأحكام تطلق على عواهنها دون تأمل أو رويّة.

فلتتقوا إطلاق الأحكام جزافا أيها المتسلطون، وكونوا أكثر حكمة وتعقلا، ومعرفة بشروط الكتابة التي تجعل من النصّ نصّا مختلفاً.

لا تحجبوا عنّا الكتب بالمقدّمات الخائبة

لا أرغب بقراءة مقدّمات الكتب التي يكتبها الآخرون عن الكتب، خصوصاً الأصدقاء منهم. ثمّة مقدّمات لازمة يكتبها آخرون عن كتب غيرهم، كالكتب العلميّة أو المترجمة أو الكتب القديمة التي يُعاد إحياؤها. لا أتحدّث عن هذا النوع من المقدّمات العلميّة المنضبطة، وهي لازمة في الواقع، وذات أهداف غير ترويجيّة

راجت هذه العادة- عادة كتابة الآخرين للمقدّمات- بين الكتّاب في السنوات الأخيرة، يتوسّل بعضهم بعضاً ليكتبوا مقدّمات، أو تظهيرات. الأمر خائب تماماً كما يبدو لي. ونادراً ما يتطوّع كاتب ليكتب مقدّمة لكتاب دون طلب. إن حدث هذا فإنّ له هدفاً آخر. أعلمُ أنّ هذه العادة موجودة وشرعيّة بين الكتّاب وتحدّثتُ عنها في مقالات سابقة، ووُجدت عند كبار الأدباء؛ كالعقّاد، وطه حسين، والرافعي، وميخائيل نعيمة، والقائمة تطول. وتحتاج تلك المقدّمات إلى دراسة بحثيّة منهجيّة للكشف عن طبيعتها، ومقارنتها بالمقدّمات الخائبة الرائجة هذه الأيّام.

كثيراً ما أفكّر بهذا النوع من المقدّمات، أراها حاجزاً نفسيّاً كبيراً، أمتعض من وجودها، أشعر أنّني كائن ضالّ، ويتقدّم صاحب المقدّمة ليوجّهني قبل الدخول إلى النصّ. هؤلاء أيضاً لا يعرفون

كيف تُكتب مقدّمات الكتب. في الحقيقة، هم بارعون بالكتابة الرديئة عندما يكتبون ذلك.

لماذا يطلب الكتّاب هذه المقدّمات؟ من تجربتي وعنها أتحدّث أوّلاً، وتجربتي أظنّ أنّها قد تتشابه مع تجارب الكثيرين. لو عاد بي الزمن لأنشر كتبي من جديد، لن أطلب من أحد أن يكتب لي مقدّمة أيّ كتاب. أيّ تعاسة مكتشفة في هذا الأمر الذي يشعرني بالكدية الأدبيّة المهذّبة؟ على الرغم من أنّ من قدّموني بكتبي قلائل؛ فمن "25" كتاباً لم يقدّمني منها سوى ستة كاتبات وكاتب واحد فقط، وعندما طلبت ذلك منهم طلبته لاعتبارات غير كتابيّة، إلّا مقدّمة أحد كتبي "السرد- قصصيّة"، متوخّياً من ذلك الكاتب- وهو محمود شقير- اعترافاً بقدرتي على الكتابة السرديّة، أمّا الكتب الأخرى فقد قدّمتها لي كاتبات؛ تحقيقاً لنواحٍ عاطفيّة ووجدانيّة بيننا، كوننا أصدقاء، وكنّا نتعايش معاً بصنعة الكتابة، وبيننا الكثير من الأمور المشتركة، فكان التقديم بدافع الألفة، رغبة منّي لإثبات حضورهنّ في سياق تلك الكتب.

هل لكتابة المقدّمة من أهداف خارج نطاق هذين الهدفين الكبيرين. ربّما كانت- مسبقاً في بداية عصر النهضة- نوعاً من

التقريظ؛ أي المدح، فكانت مختصرة ومكثّفة، ولا تشرح الكتاب، ولا يمارس كاتبها أيّ سلطة على القارئ.

المقدّمات اليوم- في أغلبها- مضلّلة، لقد كتبت هذا في نقدي لكثير من الكتب، غضب مؤلّفوها منّي غضباً شديداً إلى حدّ القطيعة النهائيّة، فكيف لبعض تلك المقدّمات أن تطول طولاً مرهقاً، تستنفد طاقة القارئ قبل الدخول إلى متن الكتاب. ألم يفكّر الكتّاب بالقارئ في تلك اللحظة؟ إنّ كتّاب المقدّمات الخائبة يضعون القارئ بين خيارين؛ إمّا أن يكفّ عن القراءة ويرمي بالكتاب ومؤلِّفه ومقدِّمه ويلعن الكتابة والكتّاب، وإمّا- إن كان يطيق الصبر قليلاً كحالتي- فلا يحفل بتلك المقدّمة، ويُسقطها من الكتاب حكماً. النتيجة واحدة، لا فائدة إذاً من كتابة تلك المقدّمات.

إذا كنت تعدّ نفسك كاتباً ناقصاً، وتحتاج إلى مقدّمة أحد الكتّاب؛ ليقدّم كتابك، فانتظر حتّى تكتمل وتنضج، واصبر قليلاً على نفسك حتى ترشُد، وتنضج، وتحسن الصنعة، وتستطيع السير وحدك في حدائق القرّاء الغنيّة بملايين الكتب الخالية من المقدّمات، وتتخلّص من عبء المقدّمات، ولا تُحمّل أكتاف القرّاء

كتّاباً آخرين غيرك، ينوء بحملهم وثقيل دمهم، ألا يكفيهم أنتَ وكتابك وما فيه؟

ما تتركه المقدّمات من عبء نفسي ونقدي في القرّاء كبير جدّاً، وغدا الأمر مزعجاً، وذا نتائج عكسيّة على كلا الكاتبين، لا سيّما الكتّاب الجدد الداخلين إلى نوادي الكتّاب الذين يبحثون عن شرعيّاتهم المفتقدة بالتشبُّث بمقدّمات الكتّاب الموصوفين بالكبار. لكنّ الكبار سيكتبون بالفعل مقدّمات خائبة يكلّ تأكيد، لأنّهم سيكتبون من خبرتهم، وموضعهم، ووضعهم، وإحساسهم بالأهمّيّة المضاعفة لما سيكتبونه، وينظرون من علٍ إلى الكتاب المقدّم له وصاحبه. سيشعرون بالزهو والجنون الإبداعي، وهم يقدّمون واحداً من هؤلاء الكتّاب الصغار. ونادراً ما يتواضعون، فهذا موضع يحبّون فيه النظر إلى ذواتهم، وهي تتضخم بنرجسيّة مرَضيّة عالية الظهور.

إنّهم- فيما أعتقد جازماً- يقتلون صاحبهم، ويشيّعونه وكتابَه ليكونا في عداد الموتى. فإذا أردت لكتابك أن يصنع حياته الخاصّة، فاتركه وحيداً بمواجهة القرّاء. إنّ هذه المواجهة غير الموصى بها أكثر نفعاً لك ولكتابك، إنْ كنتَ من العاقلين المقدّرين لأهمّيّة كونك كاتباً، تسعى إلى تأسيس سلطتك الإبداعيّة بعيداً عن الاستلاب

وعن سلطة الآباء، عليك أن تفكّر جدّيّاً بقتل كلّ الآباء الفعليّين والمحتملين، لتكون أباً لنفسك وحدك.

هذه النرجسيّة المترعرعة آنفاً ليست فقط لدى الكتّاب الكبار المقدِّمين، بل إنّها أيضاً تفعل فعلها بصغار الكتّاب، إذ تتضخّم ذواتهم تبعاً لتضخّم ذات المقدِّم، إنّه شديد التذكير بهذا الفعل، حتّى ليخيّل إليكَ أنّ هذا التقديم يُحيي ويميت، إنّها نقطة فاصلة حدّيّه وجدّيّة في مسيرته، يشكر القدر على أنْ منحه هذه الفرصة.

ليس هذا وحسب، بل إنّ كتابة الكاتب الكبير مقدّمة لأحد الكتّاب المتمدّدين في الظلّ، يشعل الغيرة في نفوس معارفه وأصدقائه القابعين معه في الهامش ذاته، ويصبحون كأنّهم على نار، يتحرّقون. يدفعهم هذا إلى التطفّل، والطلب والإلحاح من ذلك الكاتب أن يفعلها مرّة أخرى. إنّ هؤلاء لا يقدّرون الموقف، ولا يعرفون معنى الكتابة، ولا يحقّ للكاتب أن يجعل كاتباً آخر موظّفاً لديه، ليكتب له تقديماً أو تظهيراً. على صغار الكتّاب أن يكفّوا عن هذه السذاجة التي توصلهم إلى حدود البلاهة والبلادة والجهل، وعدم تقدير الذات الكاتبة حقّ قدرها.

ولتعلموا- يا معاشر الكتّاب- أنّ قراءة القراء للكتاب بشغف وحدها هي التي تصنع منكم كتّاباً مهمّين، وليست تلك المقدّمات

التي ربّما ستصبح عبئاً ثقيلاً عليكم وعليها في المستقبل، فتندمون على أنّكم قد قبلتم بأنْ تكون بينكم وبين القرّاء، فإنْ كنتم تحبّون قرّاءكم فلا تحجبوهم عنكم بالأسماء الكبيرة؛ فهم ليسوا ضوءاً لكم، إنّما سيكونون سدّاً منيعاً يحول بين كتاباتكم وتقديرها لذاتها وبين القرّاء والنقّاد الذين بلا شكّ يقدّرونكم لأنّكم مختلفون، إن وجدوا هذا الاختلاف الذي يبحثون عنه دون واسطة بينكم وبينهم بمثل هذه المقدّمات التي لا تنفعُ ولا تشفع، ولا تغني عن أمر إجادة الكتابة شيئاً.

مع سلسلة كتاب مجلة "ميريت الثقافية"

مع الإصدار المجاني الثالث لسلسلة كتاب مجلة ميريت الثقافية، أيلول، 2021 تكون مجلة "ميريت" الثقافية قد خطت ثلاث خطوات نحو تعزيز مشروع مهمّ في توفير مجموعة من الكتب للجمهور مجاناً، فقد بدأت هذا المشروع بديوان للشاعر سمير درويش، رئيس تحرير المجلة بعنوان "**ديك الجن**"، ثم مجموعة "**دفاتر عائلية**" القصصية للكاتبة العراقية إشراق سامي، وأخيراً ديوان "**تدريبات يومية**"، للشاعر والناقد الدكتور محمد السيد إسماعيل.

تتميز هذه الإصدارات في أنها صغيرة الحجم؛ جاءت في "92" صفحة في كل منها، ما يجعلها سلسلة مشجعة على القراءة، إضافة إلى أنها مبنية من نصوص قصيرة داخل المجموعة الواحدة، ما يجعل كتب هذه السلسلة خفيفة الظل للقارئ العادي الذي تغريه النصوص القصيرة والكتيّبات صغيرة الحجم. وإن ابتعادها عن التعقيد في مادتها أيضا منحها ميزة إضافية، وكأنها تصرّ على محاصرة القارئ وتسد عليه الذرائع من أجل دفعه لأن يقرأ. وبهذا تكون هذه السلسلة قد تجاوزت كل تلك الإشكاليات المصاحبة لكتب السلاسل الأخرى، وخاصة المجانية منها على ما سأبينه لاحقاً.

تذكّر هذه السلسلة بسلاسل كتب دورية مجانية مهمة، تستهدف تقديم الكتاب مجانا لقرائها، ويقف على رأسها المشروع العملاق الذي استمر لأكثر من عشر سنوات "**كتاب في جريدة**"، وكانت تقوم عليه منظمة اليونسكو، إذ استطاع تقديم هذه الخدمة للقارئ العربي أينما وجد، وأيضا سلسلة كتاب مجلة دبي الثقافية، وهو كتاب مجاني يصدر مع عدد المجلة كل شهر، وتوقّف المشروع بعد أن احتجبت المجلة عن الصدور. وهذان فقط مثالان يحضران بقوة للكتب المجانية التي صدرت مع مجلات عربية تصدر شهرياً في بلدان عربية متعددة، وهي عادة ثقافية عرفتها المجلات العربية منذ أمد بعيد، ولكن لا بد من أن يدخلها التطوير والتحديث؛ تبعا للحالة والعصر والمستجدات الأخرى.

سلسلة كتب مجلة "ميريت" الثقافية تتميز عن هذين المشروعين المشار إليهما أعلاه، على أهميتهما الكبريين، في أن هذا المشروع مجانيّ بالكامل، إذ يكفي أن يكون لك حساب على الفيسبوك لتستطيع الوصول إلى كتبه، بل إن من فلسفة هذه السلسلة كما أعلنت دار ميريت الثقافية على صفحتها الفيسبوكية أنها "**تعتمد أساسا، وأولا، على التوزيع الإلكتروني، عبر إرسال الكتاب على نطاق واسع للقراء والمهتمين بواسطة الإيميل والواتس آب**

والماسنجر، ونشره على صفحات مواقع التواصل الاجتماعي، ومواقع تحميل الكتب المجانية"، بينما كان يتحتم على القارئ العربي أن يشتري نسخة من الجريدة التي ينشر فيها "كتاب في جريدة" ليحصل على الكتاب، فلم يكن موزعو الصحف يمنحون القارئ العربي الكتاب دون أن يشتري الجريدة، بل كان الكتاب محفزا للباعة المتجولين لأن يبيعوا نسخا أكثر من الجريدة لوجود الكتاب معها. ولعلّ بعض من كان يشتري الصحفية لا يحفل بها، بل يحصل على الكتاب، ويتبرع بالصحيفة لغيره، كما كنت أفعل.

وكذلك كان على القارئ العربي أن يدفع ثمن نسخة من مجلة دبي الثقافية للحصول على الكتاب. لقد كان كتاب مجلة دبي الثقافية كتابا كبير الحجم، وأظنه ليس مغريا للقارئ العادي- غير النهم- أو غير الباحث، وإنما كتاب يتخذ الطابع النخبوي، لا سيما وأن النسخة الواحدة من المجلة- ومعها الكتاب- كانت تباع في الأردن مثلا بمبلغ ثلاثة دنانير ونصف أي ما يعادل خمسة دولارات، هذا جعل السلسلة من وجهة نظري نخبوية، وليست عامة للقارئ العربي العادي محدود الدخل الذي يفضّل في المقام الأول شراء الخبز على شراء الكتاب. وهذا أمر طبيعي، فلا تستطيع أن تكون

مثاليا مع مواطن عربي يبحث عن تأمين الخبز وقوت عياله، لتقول له: "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان".

والشيء نفسه يقال عن سلاسل كتب مجانية أخرى تصدر مع مجلات عربية، كالمجلة العربية الصادرة في المملكة العربية السعودية، وككتاب مجلة الدوحة قبل أن تتحول المجلة إلى الرقمنة بشكل كليّ، وككتاب مجلة الرافد أيضاً.

أعتقد جازما أن البعد الاقتصادي عامل مهم في إشاعة الكتاب والإقبال عليه، وليس صحيحا أن "أمة اقرأ لا تقرأ"، إن قناعتي المبنية على خبرة عملية وواقعية تقول: "إن هذه الأمة تقرأ، وتقرأ كثيرا"، ولكن ما حيلتها إن وُضعت في سياقات البحث عن لقمة الخبز لتحتل هذه اللقمة الحافّ كل تفكير المواطن العربي؟ عدا متطلبات الحياة الضرورية الأخرى؛ فكيف لهذا المواطن أن يشتري كتابا ويقرأه وأبناؤه جوعى، عرايا، يضربهم البرد والحر، مهما كان الكتاب مغرياً في موضوعه وطباعته ورخيص الثمن؟

ميّزة أخرى تضاف إلى سلسلة ميريت الثقافية غير ما سلف، وتتمثل في أن الكتاب الذي يقدّم هو كتاب جديد يُطبع لأول مرة، وليس كتابا تعاد طباعته، كما في سلسلتي مجلة دبي الثقافية وكتاب في جريدة وغيرهما من الكتب المجانية لبعض المجلات، فهو-

إذاً- ليس إعادة تدوير للمعرفة، هذا التدوير الذي يأخذ شكلين، أحدهما ما ذكرت آنفا في هذه الفقرة، وأما الآخر فيتمثل بما كانت تقوم به مجلة العربي الكويتية في إصدارها "كتاب العربي"؛ إذ كانت تقوم فلسفة الكتاب على إعادة طباعة مقالات سبق "للعربي" أن نشرتها في أعدادها السابقة لكاتب معين في كتاب مستقل، وإما أن تجمع مقالات كتّاب متعددين كتبوا في موضوع واحد. إنها إعادة تدوير- على أية حال- وإن لم تخل من فائدة للباحثين، إلا أنها لا تقدم معرفة جديدة للقارئ العربي غالباً سوى إحياء ما كان قديماً، وربما فقد هذا القديم أهميته بحكم التطور المعرفي المتسارع، وخاصة فيما يتعلق بالعلوم المحضة أو النظريات الفلسفية والعلوم الإنسانية.

إن سلسلة "ميريت" بما توافر فيها من خصائص تراعي التطور التكنولوجي، وانتماء القارئ إلى عالم سريع ومتطور، وارتماءه في أحضان الأجهزة اللوحية والحاسوبية والهواتف الذكية ستنجح في تعميم الكتاب وانتشاره، وستساهم في التعريف بسلسلة من الإبداعات والمبدعين الجدد، لتُقدّم في كتب ظريفة وخفيفة الظل، تُقرأ على مهل بمصاحبة فنجان من القهوة صباحا أو مساء.

إنه مشروع عبقريّ؛ إن استمر في المحافظة على خصائصه التي تساعده على الشيوع والانتشار: حجم المادة، وطبيعتها، وجدّتها، ومجانيتها وتكنولوجيتها المطلقتين، سيكون له شأن عظيم بلا شكّ، وخاصة إن أعطاه الكتّاب اهتماماً ورعوه ونشروا إبداعاتهم الجديدة فيه، وإن حققت أسرة تحرير المجلة التنوع التجنيسي للكتب، ونقّبت عن مبدعين حقيقيين لا يملكون المال الكافي ليدفعوه لدور النشر لتحقق لهم أحلامهم في طباعة كتبهم؛ إذ يقدم فرصة للتنافس الشريف للحضور الإبداعي في سلسلة أدبية ثقافية راقية، لعلّ القارئ يستمتع بما يُقدم له خلالها، كما استمتعتُ وأنا أقرأ الكتب الثلاثة التي صدرت حتى الآن، فتساعد القارئ على تشكيل وحدة انطباع تجاه هذا العمل الذي يقرأه دفعة واحدة دون انقطاع.

لم تقرؤوا تلك الكتب أنتم أيضاً

على خلفية ما تعرض له سلمان رشدي من اعتداء عليه، بالطريقة ذاتها تقريبا التي تم فيها الاعتداء على نجيب محفوظ، طعنات متعددة منها في منطقة العنق، انهالت بكائيات الكتاب في تمجيد حرية التعبير، شرقا وغربا، واصفين العمل بأنه عمل إرهابي وحشيّ. حادثة الاعتداء على رشدي أعادت إلى الواجهة ما حصل مع نجيب محفوظ، أو ما تعرض له الدكتور حامد نصر أبو زيد وحيدر حيدر، ونسي القوم- على ما يبدو- فرج فودة الذي ذهب ضحية الجماعات المسلحة. لكل واحد من هؤلاء قصة لا يمكن أن تجتمع كلها معا إلا عن طريق التلفيق وإجبار الجمل لأن يدخل في سم الخياط، وأما بخصوص سلمان رشدي تحديدا، فلا بد من بيان النقاط الآتية:

- لا يصح تحميل النظام الإيراني مسؤولية الاعتداء عليه، لأن الفتوى بمقتله تجاوزها النظام وحكامه ولم يعودوا يحفلون بها، بل جاء الاعتداء على رشدي في قلب أمريكا، في نيويورك في مؤتمر، وعلى الهواء مباشرة. لقد تمكن الإرهابي من طعن رشدي 18 طعنة، قبل أن تتمكن الشرطة من السيطرة عليه، سلمان رشدي كان يعيش في بريطانيا باسم مستعار وتحت حراسة مشددة ما الذي جعل هذه

الحراسة معدومة، بل ويتمكن المعتدي من الوصول إليه بهذه السهولة ويستمر في تسديد الطعنات. غالب الظن أن الأمر لم يكن أكثر من ورقة ضد النظام الإيراني، ولعل مفتعلها ممن لا يريدون للاتفاق النووي أن يتم، فلم يكن محور الأخبار الموالية لأمريكا عربيا ودوليا إلا فتوى الإمام الخميني، وتسجيل قديم للسيد حسن نصر الله يحرض فيها على مقتله، فهل تستطيع أمريكا أن تذهب في تحقيق مستقل للكشف عن الفاعل الحقيقي؛ من يقف وراء المعتدي؟ على عائلة سلمان رشدي أن يطالبوا بمثل هذا التحقيق وأن يطلعوا على أدق التفاصيل فيه.

- كل ما قرأته من مقالات صحفية تتهم المعتدي أنه لم يقرأ رواية رشدي موضع الجدل، بل إنني على يقين أنهم أيضا هم هؤلاء المدافعون عن رشدي لم يقرؤوا تلك الرواية التي وصفها نقاد بالبائسة، ولم تكن رائجة في الأوساط الثقافية، وحسب علمي أنها غير مترجمة إلى العربية، وهي رواية- كما جاء في أحد التقارير الصحفية- مؤلفة من أكثر من (500) صفحة. ومن يستطيع قراءة رواية بائسة تمتد إلى مثل هذه المساحة؟ وأنه ثمة ما هو أكثر أهمية منها صدر قبلها، ولم يكتسب شهرته الأدبية منها، بل من أعمال أخرى أكثر فنية، أيضا كما جاء في بعض التقارير.

- إن هذه المقالات الواقفة مع رشدي تكاد تكون نسخة واحدة مكررة، المعنى نفسه، والتهمة واحدة، وهي نفسها التي كنت قرأتها في حادثة الاعتداء على نجيب محفوظ، بل إن كثيرين ممن دافعوا عن نجيب محفوظ لم يقرؤوا روايته تلك موضع الجدل أيضاً كما لم يقرأها المعتدي. لقد باتت هذه المقالات تعاني من البؤس الشديد إلى درجة الملل، فما عليك إلا أن تغير أسماء الأعلام لتكون صالحة في حادثة قادمة مشابهة. إن تهمة عدم القراءة لاحقت المرشد العام للثورة الإيرانية الإمام الخميني رحمه الله، كما جاء في تقرير لفضائية عربية موالية لأمريكا.

لا أحد يستطيع أن يوجه لكاتب يقف ضد الاعتداء على رشدي سؤال: هل فعلا قرأت الرواية؟ وهل بإمكانك أن تعطينا- نحن الجهلة الكسالى- نبذة عن الرواية تؤكد أن الروائي لم يمس معتقداً؟ على كثرة تلك المقالات، لم يتطوع أحد ليزيل جهلنا، بل ظل الجميع سادرين في غيهم، يمجدون الضحية ويشطنون الإرهابي المعتدي، ويتحسرون على العالم.

وهل يعتقد هؤلاء الأغبياء أن جمهورا واسعا يثور ضد كاتب أو قضية لا يعرف عنها شيئاً؟ يكفي هنا في هذه المسائل أن يقف الناس وقفة جادة بناء على رأي صحيح من شخص تثق فيه

الجماهير، كما تفعل هذه الجماهير في السياسة؟ إنها تنصاع للحاكم لأنها تثق فيه أو لأنها تخاف منه، إنهم يتناسون "سيكولوجية تحريك الجماهير"، ليس مطلوبا من كل فرد أن يطلع على خيانات الحاكم ليثوروا ضده، إنما قام به أحدهم والجماهير تثق فيه، وعليه تقاد الجماهير وتتحرك.

عندما اشتعلت فتنة "حيدر حيدر" وروايته "وليمة لأعشاب البحر" في التسعينيات، قرأت من بعض من دافعوا عن حيدر حيدر عن روايته، وفسروا المواقف الإشكالية فيها فنيا، لقد كان الكتّاب في ذلك الوقت أكثر رصانة وحكمة ومعقولية، على ما يبدو مما هم عليه الآن. في حالة حيدر حيدر لم تكن السيطرة على العقول بهذه السهولة التي نقع فرائس لها هذه الأيام.

- على أية حال، من يتحمل مسؤولية نفخ سلمان رشدي هو تلك الفتوى الشيعية التي جاءت بناء على مصدر معارضة سنية في باكستان، ولعل ظروف نشأتها كانت سياسية، فمعروف عن الخميني أنه كان ضد كل ما يفرق بين السنة والشيعة، وقام بإجراءات متعددة حتى لا يؤذي المشاعر الدينية للمسلمين السنة في إيران، وكان بحاجة والثورة في بدايتها تقريبا إلى تعزيز الثورة ومكانة إيران الإسلامية، هل معنى ذلك أن الإمام تسرع في إصدار

الفتوى؟ وهل إلى هذه الدرجة يتم إهدار دماء الناس؟ هنا يجب ألا نصدق أن رجلا كالخميني اكتفى بكلام عابر ليصدر فتواه، بل إن عنده من الأدلة الكافية لفعل ذلك. لقد سعى الإعلام الأمريكي المتصهين شيطنة الخميني وتجهيله، وهذا أيضا من دائرة الحرب على النظام الإيراني الذي يخوض معركة ليست سهلة مع العالم من أجل إثبات حقه في أن يكون له مشروعه النووي. إنه صراع سياسي محتدم، وكل الأسلحة فيه مشرعة وشرعيّة.

- أعتقد أنه لا أجمل ولا أنفع من ألا يدخل الأدب في معمعة الصراع السياسي، وقتل الأدباء، وأفضل طريقة للخلاص من رشدي وأمثاله هو السكوت عليهم وعدم منحهم فرصة أن يكونوا أيقونات حرية، فمثل هذه الأحداث تصنع منهم تماثيل حرية خاوية، تمرر من خلالها كثير من الأهداف. لذلك فإن ما حدث أيام طه حسين في الرد عليه وعلى أطروحاته في كتابه "في الشعر الجاهلي" هي أسلم طريقة، مواجهة الحجة بالحجة، بل إنها أنتجت الكثير من المؤلفات النافعة التي ما زالت مراجع ومصادر إلى اليوم، لكنني أعود وأكرر بصريح العبارة: أنه من الممكن أن يكون وراء هذا الحادث والأحداث المشابهة أيدي مخابرات قذرة، لتحقيق مصالح سياسية. فلا تدري كيف يدار هذا العالم، وأية آلهة خفية تلعب به، حتى أنني

أكاد أكون على يقين أنه لو انقطعت الكهرباء في قريتنا النائية التي تقف على طرف العالم الهش سيكون وراءها يد تعمل لصالح الإرهاب العالمي التي تقوده أمريكا، وينفذه عملاؤها، فهل كثير عليهم أن يهيئوا الأجواء ليطعن رشدي 18 طعنة قبل أن ينقل إلى المشفى؟

- أتمنى لرشدي- ولكل الكتّاب- السلامة فعلا، لكن عليه وعلى أمثاله ألا يقعوا فرائس النظام العالمي المجرم، فهل سيتعلم هؤلاء القوم الدرس؟ أم سنعيد الأسطوانة مع كل صنم حرية جديد لنظل ندور في الحلقة المفرغة ذاتها، ونعيد إنتاج ما لم يعد صالحاً للحياة من أصله.

لمن يكتب الكتّاب كلّ هذه الكتب؟[1]

سؤال يُلحّ عليّ كلما تجولت في مكتبة عامّة، أو خاصة، أو متجر لبيع الكتب، أو البسطات المعنية بالكتب المقرصنة وغير الشرعية، مئات العناوين، وملايين الأفكار، متى سيجد الإنسان وقتا لكل هذا الكم الهائل من الصفحات ليُقرأ، أعتقد أن هناك ملايين الكتب في العالم منشورة ولم يقرأها سوى مؤلفيها أو الناشرون، حتى الناشرون لم يقرؤوا كل الكتب التي نشروها، أكّد لي ذلك أصدقاء ناشرون لا يكذبون، قد يقرؤون منها وليس كلها. على الكتّاب أن يكفّوا عن الكتابة. وعليهم أن يقرؤوا كل ما كُتب من كتبٍ أولا. هل من جديد باقٍ في عقول الكتّاب الحاليين والمحتملين، حتى هذه المقالة، لا بد من أن أحدهم في مكان ما وزمان ما قد سبقني وكتبها. فلا يفرح أحد ويدعي أسبقيته وأحقيته بأي فكرة أو أي موضوع.

يا ألله كم أكون محبطا من منظر الكتب كلما رأيتها تتصافّ على الرفوف وتتراصّ نزقة تشعر بالملل! كثيراً ما أشعر بعدم الجدوى من الكتابة، نكتب ولا قرّاء، ما الفائدة؟ هل يفيد في ذلك أن نعزي أنفسنا بالقول "يكفينا قارئ واحد" كما تقول ملهمتي لي دائماً؟

[1] بمناسبة يوم الكتاب العالمي (23 أبريل).

بالتأكيد لا يكفينا. كم نويت أن أشتري مجموعة من الكتب أختارها وأتراجع عن ذلك من شدة ما يصيبني من الإحباط. يزيد من هذا الإحباط زيارتي عدة مكتبات في اليوم الواحد، لا سيما المكتبات العظيمة. آلاف من الكتب في كل المواضيع. يتحشرج السؤال في حنجرتي، وتتلبد سحابته أمام عيني، لمن تطبع هذه الكتب؟ من سيشتريها؟ من سيقرؤها؟ ماذا فيها من أفكار؟ كل ما يفكر فيه الناس مكتوب، الأفكار العظيمة مكتوبة والتافهة أيضاً، كل ما يخطر في البال مكتوبٌ، مكتوبٌ، مكتوب.

يا ألله كم هي خسارة فادحة أن تكتب في فكرة مسبوقة، وتعيد صياغتها. الجاحظ شخص رؤيوي عندما قال الأفكار مطروحة في الطريق، ولو شاهد الانفجار في عالم الكتب اليوم لقال أيضا إن الأساليب مطروحة في الكتب. كم هو متعب البحث عن فكرة طازجة وأسلوب غير مستعمل. هل يوجد فعلا أسلوب كتابي غير مستعمل؟ أشكّ في ذلك كل الشكّ، بل إنني على يقين أن كل الأساليب منتهكة، وأصبحت قوالب بالية، بدءا من وحداتها الصغرى وانتهاء بالتركيبة الكلية للنصوص. غدت مهمة الكتّاب الاجترار والتكرار.

لا شك في أن هناك الكثيرين من الذين يشبهونني من الكتّاب، أنا ضائع بينهم، عليّ أن أجد نفسي بينهم، عليّ أن أقرأ كل ما كُتب لأعرف أشباهي لأقتلهم فيّ. هذه هي مهمتي ككاتب أولا أن أغرّب نفسي عن أشباهها، يا لتلك العملية كم هي صعبة، وصعبة للغاية، بل إنها مستحيلة. عليّ أن أقرأ كل كتب العالم، بكل لغات هذا العالم. يا ألله! وهل من وقت لكل تلك الكتب؟ مرعبة هذه الفكرة ومحبطة أيضاً.

مع الوقت، توالدت لديّ فكرة مهمة أن الفكرة الجيدة هي "الفكرة غير المسبوقة"، وأن الأسلوب الجيد هو "الأسلوب غير المنتهك". هل يمكن أن يكون هناك أفكار وأساليب غير مسبوقة وغير منتهكة؟ هل بقيت أفكار عذراء لم ينتهكها الكتاب حول العالم ولم يكتبوها وبما لا يحصى من الأساليب؟ أنا أعرف أن الكُتّاب- وأنا واحد منهم- يتغاضون عن هذه الحقيقة؛ لأنهم لا يريدون أن يقرؤوا، فالقراءة متعبة وشاقة، وقد تتحوّل إلى مرض أو هوس. إذاً، الكتابة هي الأسهل! وأقرب سبيل للغرق في وهم المعرفة هو الكتابة، وليس القراءة. هكذا يقول الواقع المقلوب.

في تأمل عالم الكتابة، سنكتشف جميعاً أننا "أغبياء" فعلا، وندفن رؤوسنا في الرمل، ليس من حل إلا التمادي في هذا الغباء

المطلق. أن تكتب شيئا جديداً هو أكبر أوهام الكتابة حضوراً. لو كنت صاحب سلطة لمنعت إصدار أي كتاب جديد لمائة عام قادم. ولعملت على تبويب الكتب جميعها في العالم، وإن وجد ساعتئذ كتاب لم يكتب مثله، فليكن! ولكن هل سيقتنع الكتّاب "العظماء" بأفكاري، إنهم سيرمونني عن قوس واحدة ويشتمونني على الرغم من أنهم لن يضيفوا جديدا حتى في شتمي، من المؤكد أن آخرين قبلهم قد فعلوها في هذا العالم وشتموا آخرين غيري بالألفاظ والأساليب نفسها وبكمية الحقد ذاتها، وبالإيماءات والإشارات عينها.

من قال: إن الكتابة إبداع؟ إنها في ظل هذا الكم الهائل من جنون الكتابة عمل عبثي وكارثي وليست إبداعا مطلقاً، رضي من رضي وسخط من سخط. الله جل قدره، وهو العقل الكليّ لهذا الكون، لم يكتب إلا كتابا واحدا، ونسخ كل الكتب السابقة، فالله لم يرد أن يعترف الناس له إلا بكتاب واحد فقط، بعد أن ألغى كتبه السابقة وطلب من الناس إهمالها وعدم الاهتمام بها. لقد سبق الكتّابُ ربَّهم، في كثرة ما يكتبون. وهذا ما يجعلهم يتمادون في الغباء. لا تظنوا أنني لست من هؤلاء، بل إنني أشد منهم غباءً، لأنني أعرف هذه الحقيقة، وها أنا أكتب دافناً رأسيَ في الرمل، مدّعياً أنني آتٍ بجديد كلّما مارست الكتابة.

لا قانون يحكمني في قراءة الكتب

في البداية لا بدّ من الاعتراف بأنّ مسارات التعرُّف إلى الكتب مختلفة في كلّ مرّة أقرأ فيها كتاباً، فكوْني قارئاً مألوفاً لرفّ الكتب العربيّة، يجعلني دائماً أسيراً لما تتزيّن به تلك الرفوف بصيغتها الورقيّة التقليديّة، وبالصيغة الأحدث؛ الإلكترونيّة، فثمّة كتب ناضلتُ كثيراً لاقتنائها، وكانت الرغبة شديدة لقراءتها، لكنّ تلك الرغبة قد ماتت نهائيّاً، لا أدري لماذا، لا يعود الأمر إلى أنّ الكتاب جيّد أو رديء، إنّما هي حالة لا أدري كيف يمكن لي أن أفسّرها، وبالمقابل ثمّة كتب ندمتُ أنّني لم أكن قرأتها منذ زمن.

لقد خلقت عندي القراءة عادة اقتناء الكتب الصادرة ضمن سلسلة معيّنة، كالكتب التي صدرت في سلسلة "كتاب في جريدة"، وكتب مجلّة "دبيّ الثقافيّة" وكتب "مجلّة العربي"، وكتب المجلّة العربيّة، وكتب عالم المعرفة، والكتب الإلكترونيّة لمجلّة ميريت الثقافيّة، وغيرها، لقد غصّت مكتبتي الشخصيّة بهذه الكتب، وكنت حريصاً على اقتنائها مع أنّني لم أكن أقرأها جميعها، بل بعضها لم يكن ليروق لي أبداً، وليس من ضمن تخصّصي واهتمامي الأدبي والثقافي، فما زالت نسخ منها مغلّفة؛ على حالها كما اشتريتها، لم أفضّ عنها غلافها البلاستيكي، إنّما لا بدّ من أن تكون عندي،

وأشعر بخسارة شديدة لو ضاع منها كتاب ولم أحصل عليه في وقته، لذلك أعتبر خسارتنا في فلسطين لكتب السلاسل الثقافيّة؛ شهريّة الصدور خلال أوقات الأزمات والحروب، خاصّة الانتفاضة الثانية وحرب السنتين الأخيرتين على غزّة، خسارة ثقافيّة كبرى بالنسبة لي، تضاف إلى خسائر الدم والجغرافيا.

ومن عادتي الاهتمام بالكتب الصادرة حديثاً، ويقف على رأسها كتب أصدقائي وصديقاتي من الكتّاب والكاتبات، ممن أعرفهم شخصيّاً وبيني وبينهم لقاءات واهتمامات مشتركة، وأفرح جدّاً لإنجازاتهم، ولمشاركتهم فرحتهم وأفكارهم، أكون مهتمّاً للحصول على تلك الكتب وقراءتها والاحتفاء بها بالكتابة عنها.

ويضاف إلى كتب الأصدقاء الكتب الأخرى التي يُعلن عن صدورها في الصحف والمجلّات، فأتتبّع منها ما هو مثير، ويتقاطع مع مشاريع شخصيّة ملحّة، كما حدث مع كتاب "رسائل إلى شاعرة"؛ رسائل غوستاف فلوبير إلى لويز كوليه، وأثارني لأكثر من وجه؛ أوّلاً لأنّني مهتمّ بكتب "أدب الرسائل والمراسلات" وقرأت عنها، وجمعت منها ما استطعت الوصول إليه، وقرأتها؛ إذ نادراً ما لا أقرأ تلك الكتب، أو بعض ما فيها على الأقلّ ككتاب رسائل "سليفيا بلاث" الذي لم يرقني أسلوبها في الرسائل، وشعرت بملل كبير وأنا أقرأ فلم أكمل،

وثانياً لأنّني أكتب الرسائل وأحنّ دوماً إلى كتابتها لما تمنحني إيّاه من متعة المناجاة والحديث بأريحيّة دون ضوابط، وقد أصدرت كتابين في ذلك، وهما: "**رسائل إلى شهرزاد، 2013**"، وكتاب "**الثرثرات المحبّبة، 2024**"، وثالثاً لأنّني كنت أنوي أن أعنونَ كتاب "الثرثرات المحبّبة" "رسائل إلى شاعرة عربيّة" قبل أن يقع الفكر على هذا العنوان، ويستقرّ عليه، ولأنّه كذلك لم يعد خاصّاً بشاعرة واحدة؛ ففيه مراسلات بيني وبين ستِّ نساء، أربع منهنّ شاعرات.

كتب أخرى أخبرني عنها الأصدقاء، ونصحوني بها بلغة حماسيّة تأثريّة كبيرة، كما فعلت الكاتبة مادونا عسكر في وصفها المستفيض لكتاب نسيم طالب "البجعة السوداء"، ووفّرت لي نسخة إلكترونيّة منه، لم يستهوني الكتاب وتوقّفت عن قراءته بعد أن أجبرت نفسي على قراءة أكثر من نصفه، كانت القراءة في هذا الكتاب أشبه بالعذاب، بعكس الروايتين اللتين رشّحهما لي الصديق رائد الحوّاري فقرأتهما بمتعة كبيرة: "الوطن في العينين" و"من يتذكّر تاي"، وكتبت عنهما كتابة رائقة، وأظنّ أنّها مهمّة.

وما حدث مع كتاب البجعة السوداء حدث مع رواية "حارث المياه" التي شرعت بقراءتها ولم أتمّها، وقد نشرت ضمن مشروع كتاب في جريدة، ومن هذه الفئة كذلك رواية لحنا مينا لم أعد

أذكر اسمها، ورواية "ليل العالم" للروائي نبيل سليمان التي لم تعجبني، وقد قرأت أكثر من (30) صفحة منها، شعرت أنّ فيها شيئاً ما ضدّ الذات الجمعيّة، وانتقاد الثورة السوريّة، لقد كانت تلك الصفحات موجّهة ضدّ جماعات معيّنة إسلاميّة الطابع، وأنا بطبعي أنفر من كلّ كاتب ينتقد الدين أو التديّن، بسبب ذلك أيضاً لم أقرأ مثلاً رواية "وليمة لأعشاب البحر" أو كلّ رواية تثور ضدّها معركة لها أسباب دينيّة عدا كتاب طه حسين "في الشعر الجاهلي" الذي قرأته بعقل نقديّ، أبحث عمّا في الكتاب من استنارة في التفكير، ولعلمي أنّ طه حسين يكتب ليحلّل، لا لينتقد، وإن أخطأ في الطريقة، لكنّه لا يحمل نيّات سيّئة، فباعتقادي كان خطأ طه حسين أنّه يقرأ النصّ والتراث الأدبي بأدوات وطرق منهجيّة لا تناسبه، فمبدأ الشكّ الديكارتي لا يصلح للدراسة الأدبيّة؛ لأنّه منهج فلسفي عقلي بحت، وأمّا التراث فثمّة مناهج تاريخيّة وأدوات بحثيّة أكثر مناسبة وتقود إلى نتائج أكثر صحّة ومعقوليّة.

وثمّة كتب قرأت عنها مراجعات، وأحببت أن نتصادق فترة من الوقت، نقضيه سويّاً على طاولة القراءة، لكنّ الكتاب خيّب ظنّي كثيراً، وآخر ما حدث معي بهذا الخصوص رواية "**غيبة مَيّ**" للكاتبة اللبنانيّة نجوى بركات، رغبت فعلاً في قراءتها، قرأت عن الرواية

مراجعات صحفيّة كثيرة، شجّعتني على أن أبحث عن الرواية في منصّات الكتب الإلكترونيّة، لكنّها لم تكن متاحة، فظلّت تدور في رأسي وتضغط على أعصابي كلّما نشرت نجوى بركات في صفحتها الفيسبوكيّة مقالاً عن الرواية لأحد الكتّاب أو الكاتبات، لا سيّما إن كان المقال مادحاً، مع أنّني لم أقرأ في الرواية إلّا المدح، هل كانوا ينافقون ويجاملون نجوى بتلك القراءات؟ على أيّة حال الرواية تصل هذا العام (2025) إلى القائمة الطويلة من الجائزة العالميّة للرواية العربيّة (البوكر)، ولعلّها تجتاز إلى القصيرة، وربّما الفوز بالجائزة.

في نهاية المطاف تصبحُ الرواية في حوزتي، فقد جاءتني إلكترونيّة من إحدى مجموعات التليغرام الثقافيّة، فتر حماسي لها بشكل غريب، ثمّة افتتاحيّة، صدمني ما فيها من معنى غير مفهوم، لا تستطيع القبض عليه في واقع السرد: "مَيّ!/ *سقط الصوت عليَّ مثل غلالةٍ شفّافةٍ أوقفتْ شعر بدني وهزّت قلبي فطنّ في أذني طبلاً أجوف قويّاً تسمرتُ في مكاني وقطعت نفَسي*".

سطران تقريباً، يقضيان على الرواية عندي؛ فكيف يقع الصوت مثل غلالة شفّافة، وأيّ جسد لامرأة هذا الذي يكسوه شعرٌ ليقف؟ أعلم أنّ الجملة من التعابير الجاهزة التي تحمل دلالة

مجازيّة، مع أنّ أصلها "شعر الرأس" وليس شعر البدن، ولو جاءت على أصلها، لكان الأمر أكثر احتمالاً. وأيّ تصوير مبالغ فيه هذا الذي في قولها "فطنّ في أذني طبلاً"، كلّه من جملة النداء "مَيّ" أوّل تعبيرٍ يرد في تلك البداية التعيسة، عدا أنّ الطنين لا يتوافق مع الطبل، ألم تسمع نجوى "بطنين أجنحة الذباب"؟ فأين قرعُ الطبول المزعج المثير للرعب أحياناً مع طنين الذباب المزعج والمثير للعصبيّة في أحايينَ كثيرة؟

يقول الكاتب يوسف إدريس في واحدة من المقابلات المتلفزة: "*الكاتب يقاس بالجملة الأولى من كتابه؛ إذا لم يستطع أن يمسك القارئ من أول جملة يبقى كاتب فاشل*"، والحديث عن "مطالع الكتابة وبداياتها" طويل، وله تاريخ معتبر في الثقافة العربيّة منذ انتبه النقّاد القدماء إلى المطالع الحسنة لقصائد الشعر العربي القديم، ونصّوا عليه في تعليقاتهم وكتبهم النقديّة، بل إنّهم يذكرون قصصاً ومواقف نقديّة لشعراء تعرّضوا للضرب أو للإهانة وسوء الطالع بسبب عدم توفيقهم بمطلع مناسب لقصائدهم، وهذا لا يعني أنّ بقيّة النصّ ليس جيّداً، إنّما الأمور هنا معلّقة بالبدايات لا بالخواتيم.

وبالفعل كانت بداية رواية "غيبة ميّ" غير موفّقة، فيها عجينة لغويّة غير مقنعة، ولا أعتقد أنّ هذا يمكن أن يدخل في باب تشويق القارئ، فلا شيء فيه يُنذر بأحداث قادمة، دافعة للتقدّم بشغف نحو بقيّة الحكاية/ الرواية. فركنت الرواية في ملفّ الكتب الإلكترونيّة، ولم أعد إليها ثانية حتّى هذه اللحظة، ولا أدري ماذا سيستجدّ عليّ في المستقبل، وأخشى أن يصيبني مع الرواية ما أصابني مع كتب أخرى، ركنتها بعد أنْ خاب ظنّي فيها.

وفي موقف مشابه، لغيبة ميّ، تستفزّني رواية "ثمرة النار" للكاتبة حنين الصايغ، بعد أن كتبت عن روايتها الأولى "ميثاق النساء" ثلاث مقالات، توجّهت إلى حساب "مكتبة نوميديا" في التليغرام لتوفيرها، فاعتذروا لعدم توفّرها إلكترونيّة؛ كونها حديثة الصدور، فتواصلت مع الصديق حسن عبادي بأن يحضر لي نسخة من معرض عمّان الدولي بعد أن أعلنت الكاتبة على حسابها في الانستغرام عن توفر الرواية في جناح دار نشر أخرى غير جناح الدار التي صدرت عنها، فلم يجدها، وكانت صادرة منذ أيّام قليلة في بيروت، ومن المؤكّد أنّها لم تكن قد وصلت إلى المعرض الذي بدأت فعاليّاته قبل هذا الإعلان.

لم أستفرغ كلّ الإمكانيات بعدُ، تذكّرت صديقي الشاعر مرزوق الحلبي، فلجأت إليه لعلّني أجد الرواية لديه، لأنّه سبق وأمدّني بنسخة إلكترونيّة من "ميثاق النساء" بعد أن قرأت مقالته عن الرواية، فزوّدني برواية "ثمرة النار" على شكل رابط مؤقّت تنتهي صلاحيته بعد شهر من تاريخ الإرسال، لم أستطع قراءتها، لأنّ هذا سيجعلني تحت ضغط الوقت، وألّا أقرأ الرواية كما يحلو لي في الوقت الذي أرغب فيه لو كانت مرسلة على شكل ملفّ (PDF)، عدا أنّ مع الرابط تحذيراً من تسرّب الرواية وإرسالها للآخرين، ما يجعلني موضع شكّ، فعزفت عن الرواية وقراءتها، وتركتها لمصيرها حيث ستنتهي صلاحية الرابط، لتأتيني الرواية عبر الإيميل، وقد أوشكت على الانتهاء من هذه الكتابة، ولا أدري أيضاً ماذا سيكون مآلها، فآمل أن أحبّها لأقرأها، فأكمل بها مشروع كتابي الجديد "**ملامح من السرد المعاصر- أصوات نسائيّة**"، وهو الجزء الرابع من سلسلة كتبي النقديّة حول السرد العربيّ الحديث.

وعلى صعيد آخر تكون قراءتي لبعض الكتب وحماسي لها مبرّراً لامتداحها بلغة تأثريّة، تدعو الآخرين لقراءتها، كما حدث مع رواية "صلاة القلق" التي كان لي معها قصّة قراءة مختلفة. ينتبه الروائي د. أحمد رفيق عوض لهذه اللغة الحماسيّة في حديثي عن الرواية،

فيرسل لي رسالة عبر (الواتساب) يقول فيها: "أعجبني تحمّسك الشديد وإغداقك الكبير والإشادة والمديح، معنى ذلك أنّ الرواية استثنائيّة". لم يخبرني أنّه سيقرأ الرواية، وكلّي أمل أن يقرأها، فهي متميّزة موضوعاً وتقنياتِ سردٍ، وبنيةً كليّةً.

هذا الحدس بروعة الرواية يصدّقه الروائي الصديق أكرم مسلّم الذي يتفاعل مع المقال، ويتشجّع لقراءة الرواية التي كانت بحوزته لكنّه لم يقرأها حتّى ذلك الوقت، وعندما انتهى منها أرسل هذه الرسالة العاجلة: "رواية مرموقة وممتعة وذكيّة، انتهيت منها الآن، قرأتها على جلستين رغم ثقل المشاغل، أذكى ما فيها توقيع التقرير الطبّي: "سعدون زكريّا (ابن النسّاج)".

وفي مكالمة هاتفيّة طويلة بيني وبين الناقد الطليعي رائد الحوّاري على إثر كتابته مقالاً نقديّاً حول كتاب "**الأسوار والكلمات: عن أدب باسم خندقجي، 2025**" نطنب في الحديث عن الكتب، فأعود مرّة أخرى لرواية صلاة القلق. أظنّ أنّ الطليعي سيحبّ هذه الرواية، كما أحببتُها، وأحبّها أكرم مسلّم، وإن لم تعجب نجوى بركات، وسيقول عنها "مذهلة". هذا الوصف الذي إذا سمعته من الحوّاري تجاه أيّ كتاب فاعلم أنّه يريد أن يقول الكثير والكثير عنه، فهو قارئ مثقّف وذكيّ وحساسيته تجاه الكتب عالية، وقد

صنعته الكتب ليكون ذوّاقة من الطراز الرفيع جدّاً، وله فيها انتباهات نقديّة مبدعة.

من المؤكّد أنّ القصص كثيرة حول القراءة، تكثر بكثرة الكتب المقروءة، أو الذي يزمع أحدنا أن يقرأها ويكتب عنها، وهذه القصص مرتبطة أوّلًا وأخيراً بالقارئ المتمتّع المستمتع، لا القارئ الباحث الناقد الذي يقرأ الكتب وهو مجبر عليها؛ إمّا ليقول رأيه فيها لتحكيمها، وإمّا لضرورات البحث والنقد، وهذه الكتب وقصصها ليس لها مكان في عجقة هذا السير! مع أنّني بوصفي قارئاً أنسى أنّني أقرأ للمتعة، فيسحبني الكتاب إلى مربّع النقد، ولذلك فأنا قارئ لا أتمتّع بقراءة الكتب كما يتمتّع بها القرّاء الشغوفون البعيدون عن "مهنة النقد والكتابة"، ولهذه المعضلة وقفة أخرى.

عن "صلاة القلق" للكاتب محمد سمير ندا

هذه الرواية من الروايات القليلة التي لم أندم أنني قرأتها، وأنفقت في الاستمتاع بها يومين كاملين، فعلى الرغم من متنها الممتد لأكثر من (350) صفحة، إلا أنها دفعتني للقراءة دون توقف بنسخة إلكترونية، هذا لم يحدث معي سوى في كتب قليلة جداً، أعادتني "صلاة القلق" إلى نفسي قارئا نهماً، قبل أن تصيبني رعشة ترشيد القراءات وانتقائها بمعايير قاسية، إذ أصبحت أدرك وقد تخطيت عتبة الخمسين من العمر، وبعد قراءة آلاف الكتب، وكتابة آلاف الصفحات عن الأدب شعره ونثره، أن كثيرا من الكتب لا يصلح للقراءة، بل ويشكل مكرهة صحية لعقل القراء، ولا بد من التخلص منه. إن الرداءة ثقيلة الوقع نفسيا على قارئ مثلي، وهم كثر بالمناسبة، ولست وحيدا في ذلك.

ما الذي جعل هذه الرواية مهمّة لي كقارئ أولا قبل صفتي ككاتب يمارس كتابة النقد الأدبي؟ سأدخل في الإجابة مباشرة:

أولاً: لأن الرواية صيغت بلغة فنية عالية، لا ترى فيها خطأ لغويا واحدا، أو أنا لم ألاحظ ذلك، لغة فيها من الإتقان ما يجعلها "كلاسيكية الطابع" لا تحفل باللغة العامية ما خلا بعض الأسماء

التي اضطر الكاتب إلى شرحها في هوامش معدودة. هذه اللغة تنطلق من الوعي بأهمية أن تكون اللغة الأدبية مستندة إلى أساليب الكتابة التي تفيد القارئ وتمتعه، وتأخذه إلى آفاق لغوية ذات إيقاع جميل، يمتزج فيها الشاعري الشعري بالسردي النثري الفنيّ الذي يساعد على صقل موهبة القارئ وحسه الجمالي، لم تغرق اللغة بالمستويات الشعبية باللغة حتى وهي تتحدث عن أناس لا يقرؤون ولا يكتبون، إنها تحلق لغة سردية عملية وأدبية في آن، بحيث لم تغرق في إنشائيتها الجمالية ولا تسفّ في منطق الحياة العامة كبعض الروايات التي جمعت "كل الشرور اللغوية" على متن سفينتها.

لقد أمدتني الرواية في الواقع بخمس مفردات لم أتذكر أنني قرأتها من قبل، فلم أعرف معناها، وهي: شواهي، والمأتة، التشوين (شوّن)، رغيّات (الحمام)، والوجس، التّبّة، إذا كانت صحيحة هكذا ولم يقع فيها خطأ لغوي، ولا أظن ذلك. إضافة إلى أن الروائي- خارج سياق الرواية- وضح المقصود بلفظ "المسخوط"، وبذلك فإن الرواية تقدم خدمة لغوية مهمة للقارئ العربي، وتزيد من محصوله اللغوي، وهذا أمر نادر في الروايات، وإن كان موجودا مثلا في الأشعار المهمة التي كتبها الشعراء الكبار، وهذا بالنسبة لي- بصفتي

متخصصا في اللغة العربية، وأمارسها تعليما وتعلما، وكتابة لأكثر من ثلاثة عقود- شكّل ناحية فريدة، كما شكلت ألفاظ أخرى أحياها شعراء لتكون في قواميس القراء كـ"خشف" محمود درويش و"السِّوى" الواردة عنواناً لديوان الشاعرة رولا سرحان على سبيل المثال، وثمة أمثلة أخرى، لكنها قليلة على أية حال.

هذا الإحياء اللغوي لهذه الألفاظ دليل على أن مفردات اللغة لا يمكن لها أن تموت إذا وجدت كاتبا يعطيها حق الحياة والحيوية، وهذه أصلا هي مهمة الأدب، توفير سياقات طبيعية وحية للغة ومفرداتها التي يكتبون بها، وهذا أمر يقع في باب آخر، يشير إلى أهمية الأدب في حياة اللغة، وتحدث فيه كثير من اللغويين والنقاد، وناقشته في واحدة من محاضراتي في يوم اللغة العربية الذي يصادف 18 ديسمبر. (يُنظر: تربية حوارة تحتفي باليوم العالمي للغة العربية، جريدة القدس، عدد 19880، الأحد، 2024/12/22، ص 6)

ثانياً: قرأت الرواية وأنا محموم البال وأعاني من التداعيات النفسية للحرب على غزة، ومصاب بالقلق ومعجمه اللغوي كله من هواجس وأوهام وأرق وخوف، وأنا أتابع إعلامياً لعبة الخطة

الأمريكية لتصفية القضية الفلسطينية؛ "خطة العشرين بنداً". حضرت فلسطين في الرواية كثيرا، بل إن قضية الرواية الأساسية هي تحرر فلسطين، لذلك فإن هزيمة عام 1967 الناصرية المدوية ما زلنا نعيش آلامها حتى اليوم، فلم تنقطع الهزيمة منذ تلك الحرب المزلزلة للكيان العربي كله، وعلى الرغم من أن الرواية تتحدث عن عشر سنوات من ذلك التاريخ؛ أي حتى عام 1977 إلا أنها أسقطت أي ذكر لحرب أكتوبر عام 1973، ولم تأت على ذكر الزعيم؛ رجل السلام "أنور السادات" وأسقطته من الاعتبارات السردية والتاريخية والتأملية الفكرية. يحمل هذا "التخلي السردي" دلالة قوية على الإدانة المبطنة لكل تلك الحقبة التي أعقبت تلك الهزيمة التي لم يتعاف منها المواطن العربي ولا المفكر العربي حتى يوم الناس هذا، فيختم الكاتب الرواية بهذا القول: "إنني كلما تصورت نصرا عربيا يفضي إلى تحرير فلسطين، راوغتني الكلمات، وقادتني السطور إلى هزيمة جديدة، هزيمة أكثر إيلاماً"، ورأيت في الخطة الأمريكية هندسة لـ"هزيمة أشد فجوراً وسحقاً" من كل الهزائم السابقة، كأن كل هذه الهزائم بنات حرام للهزيمة الأم.

ثالثاً: لقد وجدتُ الحاضر في هذه الرواية، هو نفسه معاداً فيها، ولكن بلاعبين آخرين. عدوّنا ما زال واحدا معروفاً، فعدا الجهل

والتخلف والطيش على شبر ماء، كان عدونا الخارجي واضح؛ الكيان الغاصب وداعمته أمريكا؛ الشيطان الأكبر، قرأت الرواية وأنا أرى تحالف اللقيط مع "الملقوط" بدعم عربي وأنظماتي كامل وفظ، ما سبّب بضياع شلال الدم النازف في غزة بتواطؤ عربي صلف وفاجر ومخز إلى درجة القرف والاشمئزاز والأنفة من الانتماء لهذه الأمة التي تهندس هزيمتها بأيديها وتفتح فخذيها لكل عابر سبيل سافل ومنحطّ، ومحاولة النأي عن هذه البشرية التي جعلت الظالم القاتل المجرم ضحية، وسنت البنود لحمايته من المقتولين وجردته من وطنه، كما جاء في حكاية زكريا الريماوي ابن القدس حيث أضاعت الجيوش العربية فلسطين عام 1948، وما زال دورها القذر في حماية الكيان الغاصب، وقهر الشعب الفلسطيني كما هو، فمن يسلبه حقه ليست أمريكا والكيان الغاصب وحسب، بل الأمم المتحدة، والدول الكبرى والصغرى جميعها، بمباركة أنظماتية من محميات عربية وإسلامية، تسمى زورا وبهتاناً دولاً مستقلة.

رابعاً: لقد صاحبني صداع من هذه الأحداث التي أشارت كلها إلى حشر الفلسطيني في "زاوية" وهو بين خيارين الموت أو الاستسلام، ما يعني ضياع أرضه وقضيته، لم ينقذني من هذا الصداع سوى رواية "صلاة القلق"، لا أدري لماذا؟ لكنها أنقذتني من ضغط نفسي

هائل، كان يدفعني إلى البكاء، والإطالة في الدعاء خلال الصلاة لأتخلص من "قلق اللحظة"، يا لها من سويعات كانت قاسية جداً، وأنا ألاحظ العرب وغير العرب بتهافتهم المقيت من أجل دفع الفلسطيني إلى الاستسلام، لقد كانوا يستميتون من أجل هذا الهدف، عوضا عن أن يستميتوا في الدخول بالجو العام لمحاسبة الطغاة والاستفادة من الأجواء الدولية الشعبية، كانوا العصاة الغليظة التي صار "الأشقر الأمريكي الألماني- الأسكتلندي الأصل" يهدد بها الفلسطينيين، لقد مدوا يد العون لإنقاذ المجرمين، وسحبوا الفلسطينيين إلى دوامة شقاء لن تنتهي، فقد أوقف العرب مثلا "قافلة الصمود" ولم يدعوها تمرّ تحت حجج باطلة، لا تؤشر إلا إلى الاستخذاء والتيئيس، هؤلاء هم العرب الذين تحدثت عنهم "صلاة القلق" ووجدتهم على أرض الواقع، وفي هذا تمايز واضح بين "الحقيقي/ الواقعي المعيش" و"المتخيل السردي".

خامساً: دفعتني هذه الرواية لأفكر بقضايا السرد واللعبة السردية المراوغة، وكنت قبل أن أشرع في قراءة الرواية قد شاهدت الحلقة الخاصة مع نجوى بركات في برنامجها مطالعات، حضرت اللقاء مرتين، قبل أن أقرر قراءة الرواية، وبالمناسبة، فإن "صلاة القلق" هي الرواية الوحيدة التي قرأتها من كل الروايات الفائزة

بجائزة البوكر منذ إنشائها، على الرغم من أنني أحرص على اقتناء الرواية الفائزة، وأتابع مسيرة الجائزة، وقوائمها الطويلة والقصيرة ولجان التحكيم، وما يقوله الفائزون وغير الفائزين، وما يقوله المعترضون والراضون، وكتبت عن ذلك كثيراً، قرأت بعض روايات القائمة القصيرة وكتبت عنها، وآخرها رواية "ميثاق النساء" للكاتبة حنين الصايغ، وما زال في ذهني مشروع نقدي هو أن أنجز كتابا حول الروايات الفائزة. لم تعجبني مثلا رواية "محمد النعاس" "خبز على مائدة الخال ميلاد"، فلم أكملها؛ لإسفافها اللغوي الحامض المزّ، غير ناضجة اللغة، لكنني أحببت مثلا "ساق البامبو" للكاتب سعود السنعوسي، وحضرت المسلسل بشغف.

سادساً: كانت أسئلة نجوى بركات في تلك الحلقة هجومية، وغير مبررة من ناحية نقدية أو حتى من ناحية إبداعية، فلا يسأل كاتب "لماذا فعلت ما فعلت على هذه الشاكلة من السرد؟"، عدا أن لقاء محمد سمير ندا معها كان لقاء باهتاً، على عكس لقاء كتّاب آخرين- وقد حضرت جميع حلقات هذا البرنامج- كانت تبالغ في تحيتهم وإكرام مجيئهم، لقد كانت تُشعرك كمشاهد أنها تريد أن تحتضن ذلك الضيف أو أكثر، هذا لم يحدث مع كاتب صلاة القلق، وبطبيعة الحال مع كثيرين غيره، واتهمته بأنه يكتب للجائزة، فلا

يعقل أن يفوز وهذه هي روايته الثالثة، تلك الرواية التي كانت تعتقد أنها الأولى، لتكتشف أن له روايتين أخريين، وأعمالا مخطوطة لم تنشر، أضف إلى ذلك إلى أنها قطعت إجاباته مرات، ولم تدعه يكمل، وكانت تعطي أحكاماً، وتنتقل إلى محور آخر دون أن تطلب منه رداً، ما دفعه في واحدة منها أن يطلب الرد، فلم يكن اللقاء وديّا أو فيه نوع من حميمية كاتب يحاور زميله، إنما جاء محمد سمير ندا كمتّهم، خاضع للمحاكمة العلنية من نجوى بركات بصفتها الروائية والإعلامية.

هذه الحلقة أشعرتني بضرورة قراءة الرواية لأرى محمد سمير ندا الروائي دون وسيط إعلامي، فقرأت الرواية، وأنا أبحث عن اتهامات نجوى بركات وعن إجابات لأسئلتها، وخاصة فيما يخص "البنية الفنية للرواية".

سابعاً: كانت شخصية محمد سمير ندا في الحوار شخصية دمثة، هادئة، يتحدث وصوته واضح مع خفوت عقلاني، كانت هناك مسحة من الحزن بادية عليه، لا تدري من أين جاءت، لقد كان غاضبا في صمت، هذا الغضب الذي انفجر في الرواية معريا وفاضحا كل ألوان السلطة في المجتمع، السياسية والدينية والسلطة الاجتماعية، إنه أشبه ما يكون بحكيم الخوجة، بل إنه

هو هو، إذ كان هو السارد الفاعل في الرواية، والسارد كما بينت في دراسة موسعة هو "صنعة الروائي" ويشتقه من ذاته ليتجرد عن الحدث وليحكم "الفن صنعته" ليظهر أنه موضوعي وتمثيليّ، وهذا أمر أيضا ناقشته مفصلا في كتابة غير هذه بعنوان "السارد ودوره الخطير في القصص".

ثامناً: استفاد المؤلف محمد سمير ندا مما قرأه من روايات، وسأخصص هذه النقطة بالروايات لأعود مرة أخرى للأمور المعرفية في الرواية في بند آخر. تجلت استفادة الروائي من الروايات السابقة في أنه ابتعد عن كل سابقيه، موقف يذكر بموقف زكريا محمد الذي ابتعد عن كل لفظ استخدمه محمود درويش حتى لا يقع في حبال التسلط الدرويشي، وكذلك فعل محمد سمير ندا، فكل ما قاله الآخرون قبله كان يعيد كتابته ويبتعد عنه كما قال في مطالعاته مع نجوى، والأهم من ذلك هو بناؤه الفني لروايته على الإيهام بتعدد الأصوات، لكنه في الحقيقة كما هو واضح في الرواية في فصلها الأخير أن السارد حكيم خليل مسعد الخوجة هو من كتب الرواية من ألفها إلى يائها في جلسات العلاج النفسي الثمانية التي تكشف عنها الرواية، وفي تلك الأوراق يكشف الروائي عن كيفية عمله، وخلطه الواقعي بالمتخيل، ويحاول عن طريق "تقرير الطبيب"

الكشف عن أن كل ما قاله في تلك الجلسات مكتوب في (170) صفحة فولسكاب، هذه هي الرواية، إذاً ابتعد الروائي عن الشكل المستهلك "المخطوط" الذي شاع في فترة من الفترات في كثير من الروايات العالمية، وانتقل إلى الرواية العربية التي فاز بعضها بجائزة البوكر وكتارا وغيرهما.

لقد كانت رواية "صلاة القلق" أقرب إلى رواية إيرفين يالوم "عندما بكى نيتشه"، فكما كان نيتشه يعاني من وجع حبه لـ (لو سالومي)، ليصور في هذه الرواية الألم، كما هو، عاريا، وجها لوجه، كان نيتشه مريضا نفسيا وبحاجة إلى العلاج، كما كتبت في إحدى رسائلي لشاعرة عربية (ينظر: الرسائل، الثرثرات المحببة، ص 144)، وكذلك فرواية "صلاة القلق" هي حصيلة مجموعة من الجلسات الاستشفائية مع السارد حكيم الخوجة.

تفتح تلك الجلسات وتقرير الطبيب "سعدون زكريا"- وهو اسم يتطابق مع ابن زكريا النساج الفلسطيني الذاهب إلى الحرب تطوعاً، ولعله هو- مجالا لمناقشة أمر الكتابة نفسها الذي يدور في فلكين كما تطرحه الرواية، الأولى علاقة الروائي بالكذب، وعلاقة الكاتب بالمرض النفسي، وهما تهمتان يعاني منهما الكتّاب في كثير من الأحيان، فتؤخذ الأعمال الروائية للمحاكمة الواقعية ومطابقة

الحقائق على الأرض، لذا يصبح الكاتب كاذبا إن خالف الواقع أو عدل في أحداثه، ولم يُزِل الفرق بين المتخيل والواقعي في عمله، إضافة إلى أن "الروائي" تحوم حوله شبهات المرض النفسي والانفصام، هذه التهمة التي يبعدها تقرير الطبيب محاولا توصيف حالة الكاتب بنموذج مختلف غاية في الأهمية، يُدرس في باب "سيكولوجية الإبداع والمبدعين".

في هذا الجانب كانت هذه الرواية مبهرة بحق في أنها مزجت مع الكتابة الحديث عن صنعة الكتابة بطريقة روائية، شرحت مسارات العمل نفسه، وما جرى فيه، وكيف تخلّق وكيف سار السرد، كل ذلك ليضع أساسا روائيا أقرأه أنا لأول مرة، ولعل بعضهم فعل ذلك قبله، من هذه الجلسات والتقارير يكتشف الناقد طبيعة البنية الروائية المختلفة التي اخترعها محمد سمير ندا في رواية "صلاة القلق"، تلك البنية التي لم تدرك نجوى بركات طبيعتها، وعبّرت عن انتقادها لها، فلم تأخذ الأمور كعمل متكامل، ولم تربط أو العمل مع آخره، فوجدت فيها انتقاداً، أو طريقة سردية لم تعجبها- كما قالت، على الرغم من أنها أحق الناس بمعرفة ذلك، وإعطاء حق التجريب للكاتب، كونها روائية أولا، ولأنها مطلعة على

كم كبير من الروايات ثانياً، ولأنه لا يجوز أن تخضع العمل لمزاجها الشخصي ثالثاً.

تاسعاً: الرواية ليست حكاية وشخصيات فقط، إنها ليست أكثر من حيلة سردية لقول الأفكار والتعبير عنها بطريقة مقنعة، وهذا ما أسميته في قراءات سابقة "الاستعارة الروائية"، فكل العناصر الروائية ما هي إلا نماذج تمثل أفكارا تريد الرواية معالجتها بعيدا عن المباشرة والمحاضرة، وبالتالي فإن الشخصيات ممثلون لأناس في الواقع، وانتقاد سلوكياتهم هو انتقاد لمن يمثلونهم، وكذلك المكان الذي نصت الرواية على أنه استعارة للمكان الذي يعيش فيه العربي الموهوم السابح في خيالاته وأوهامه، وفكرة التمثال أيضاً استعارة روائية بليغة في السيطرة والتحكم، وإبعاد الناس عن الواقع، على الرغم من أن كثيرين لا يصدقون أفعال ذلك التمثال إلا أنه بقي فاعلا حتى النهاية. وهذا يزيد من مفعول الاستعارة السردية لتظل محورا لإنتاج الدلالات والأفكار.

ولولا هذه الاستعارية المؤثثة من عدة استعارات صغرى، وصولا إلى الاستعارة الروائية الكبرى، لا يمكن أن يكون هناك رواية ناجحة، فهذه "الاستعارية" تنقل النثر من باب الفكر المحض إلى الفن التمثيلي المحكوم بشروط خاصة، وخطوط عريضة، يتحرك

الروائي بحرية في نسجها وتوضيب مقولاتها كما يرتأي، وتقوده موهبته، ليقدم من خلال روايته بدءاً من العنوان والغلاف، وحتى آخر كلمة على الغلاف الأخير مقترحاً جمالياً، على المحاور ألا ينسى أي عنصر منها، ويأخذها بعين الاعتبار مع ضيوفه الأكارم الذين قبلوا أن يكونوا وجبة ثقافية للمشاهد، أيا كان نوع هذا المشاهد ومستواه التعليمي والثقافي، وبصرف النظر عن اهتماماته وانشغالاته الفنية إن كان كاتباً أو شاعراً أو عاملا في حقل من حقول المعرفة، فالأدب زاد من حق كل الناس التزوّد به مهما كانت صفاتهم.

عاشراً: تختزن هذه الرواية أبعادا معرفية ذات طبقات متعددة، فقد بنيت على فكرة مستوحاة من الفقه الإسلامي، فصلاة القلق تشبه في منطقها الديني صلاة الخوف وصلاة الكسوف والخسوف وصلاة الاستسقاء، ولهذا النوع من الصلوات شرعية في المدونة الفقهية عند كل المذاهب، وبما أن القلق تحول إلى وباء أدى إلى تحوّل في الخلقة وفي تساقط الشعر، وقد عانى منه كل من في النجع حتى الحيوانات، فمن حق "الشيخ" أن يفكر بالطريقة التي يفكر فيها الفقهاء، وهي: أنه لا بد من تأدية صلاة تزيل هذا البلاء، وبما أنه لا يوجد في الفقه صورة مخصوصة لهذه الصلاة فقد أعد لها

الشيخ أيوب طقوسا خاصة مستندة إلى أفعال الصلوات الأخرى، وخاصة الصلوات وقت النوازل. وهذه استعارة روائية أخرى ذات دور فعال على المستويين البنائي الفني والدلالي.

لم يغب الأفق الديني عن الرواية بل يجد القارئ فيه حضور لقصة الطوفان وصناعة القوارب في بلد ليس فيها بحر، كما حدث مع النبي نوح بالضبط، "**وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ، قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ**" (هود، 38)، فقد حدث الموقف كله، فقد سخر أهل النجع من محجوب النجار صانع القوارب، وفي سياق البحر تحضر قصة الخضر وموسى، فاليهودي الذي اصطحب محجوب ليعلمه الصيد وخفايا البحر، رحلة لها ظلال من قصة موسى والخضر وركوب البحر، كما يحضر سيدنا يونس عليه السلام وابتلاع البحر له، لقد كان البحر في الرواية مثالا للخطر الذي يهدد كل من يركبه، لذلك كانت ردة فعل والد محجوب كبيرة جدا على ما فعل ابنه، ليغدو "البحر" كذلك "استعارة روائية" ذات دلالة سردية في الأحداث.

ويحضر كذلك من قصص القرآن قصة زليخة مع يوسف، ليجدها القارئ بين الفتى حكيم ابن الخامسة عشر سنة وبين شواهي، وتصرح الرواية بهذا التشابه الاستعاري عندما تخاطب

شواهي حكيم بأنه لا يستطيع أن يطيع الله ويعصيها لشدة فتنتها، ولأنه ليس النبي يوسف. (يُنظر: الرواية، ص 336) ما أدى في نهاية المطاف إلى أن ترسم الرواية في مشهد روائي جميل جدا مشهد الالتحام بينهما، بلغة ووصف ومشهدية بارعة، تحضر فيها المتعة الروحية قبل المتعة الجسدية، فلم تغرق في الابتذال واللغة المكشوفة ما جعلها تعلو في مراقي الأدب السامي، وكأن الكاتب يحاول أن يرسم المتعة التي تخيلتها شواهي مع فارس أحلامها بعيدا عن جوع رجال النجع لجسدها الذي كانت تشمئز من الوقوع فيه، وظلت بتولا لتمنح ثمار جسدها لمن يستحقها، وكان حكيم السارد هو ذلك الفارس.

الحادي عشر: وجدتُ في هذه الرواية إضافة إلى ما سبق مجالا كبيرا للتناص الواعي، أدبياً، وأشار الكاتب إلى استفادته من كتاب يوسف بشير "حين حدث ما لم يحدث"، ما يجعلها ملاحظة تأسيسية مهمة تندرج في باب "النصوص المحيطة الموازية" التي تكشف عن مصادر إبداع الكاتب، وفي إثباته لهذه "الإشارة" دليل نبل واعتراف بالأحقية الأدبية، كما أن الملاحظة تبين تطور الفكرة من قصيدة مكتوبة بالعامية إلى رواية تبتعد عن العامية.

ربما يلمح القارئ ظلالا من تأثر محمد سمير ندا بكتّاب وشعراء، منهم على سبيل المثال محمود درويش ونزار قباني، فليس بعيدا هذا المشهد الوارد على لسان شواهي الغجرية في تأمل جسدها العاري أمام المرآة: "ثمّ لففتُ منشفة حول جسدي، وارتميتُ نصف مبللة على فراشي أسفل المرآة. رحت أتأمل جسدي في المرآة وأنا عارية. تفحصت أدق التفاصيل، ومسدتُ بكفّي كل ما أنبته الله في جسدي من زهر وثمر" (ص 230). ليس بعيد هذا عن قول درويش: "وربما نظرت الى المرآة قبل خروجها/ من نفسها، وتحسَّست أجاصَتَيْن كبيرتينِ/ تُموِّجان حريرَها، فتنهَّدت وترددت:/ هل يستحقُّ أنوثتي أحد سوايَ". (لا تعتذر عما فعلت، 2004، ص 110)

هذا الاحتفال بالجسد لم يكن مبذولا ومبتذلا بل كان خاصاً، ومحصورا في مثال أنثوي واحد وهي "شواهي"، لذا يجد القارئ أن "شواهي" هي المثال الأنضج والأكمل للأنوثة وللمرأة التي يبحث عنها الرجال، ويتفق مع معنى اسمها المشتق من الشهوة كما جاء في معجم الأسماء: "من (ش ه و) جمع الشاهي، وتعني المحب للشيء الراغب فيه، أو جمع الشاهية وهي الشهوة". (موقع: معجم الأسماء: https://short-url.org/1c0Lf). وقد ورد الاسم كذلك في شخصيات "ألف ليلة وليلة"، وشواهي في الرواية بالفعل كما

تصورها مسلسل "جودر" فإنها "تستطيع أن تُغوي الرجال وتجذبهم إليها دون أن يقاوموا، لتستطيع الوصول لكل ما تريده". (موقع: في الفن، الأحد 2024/4/7: https://www.filfan.com/news/170646)، وبذلك فإن الروائي يجعلها "استعارة روائية" للمرأة المطلوبة التي يحلم بها كل الرجال، وقد ركز السرد على منطقة الصدر والنهد والحلمة، بوصفها مراكز حس أنثوية ورجالية معاً؛ أي ينتبه لها الرجال والنساء على حد سواء.

يفرق السرد بين "النهد" المستخدم عند الحديث عن دلالة الأنوثة أو انتهائها أو تلاشي حضورها عند النساء، كما هو حال نهود نزار قباني الشعرية، وبين "الثدي" المستخدم في مواضع الأمومة والإرضاع، ومن اللافت اهتمام السارد بالحلمة، منذ أن حاول أحدهم فرك حلمة شواهي وهي طفلة، في قافلة الغجر، وصولا إلى احتفاله بوصف الحلمتين بأنهما ثمرتا لوز بارزتين في منتصف النهدين، ويجعل من التمتع بهما له "مذاق اللوزتين"، ليتطور الاهتمام بالجسد في ذلك المشهد الذي يرسمه الروائي بين الاثنين (شواهي وحكيم الخوجة) في أحد عربات القطار، ويظهر في لوحة

شعرية تحتفي بتلك اللحظة، كما أسلفت آنفاً. (ينظر: الرواية، ص 338- 340).

الثاني عشر: لقد تناغمت هذه الرواية مع كثير من أفكاري التي عملت عليها، وخرجت في كتب، وأول تلك الأفكار الاهتمام بالصور التي احتفلت بها وداد في الجلسة الثالثة، ومن طريف ما لفت انتباهي تشبيه البرق في الطبيعة كأن الله يلتقط صورة للكون في تلك اللحظة: "يوم أضاءت سماء النجع بغتة تصوّرتُ أن الله يلتقط للناس صورةً من عل هكذا اعتدتُ الظنّ كلّما أبرقت السماء، والويل كلّ الويل لمن حصلته الصورة وهو يرتكب معصية أو خطيئة". (الرواية، ص 104)

ولم يقف الأمر عند ذلك بل إن وداد تتحسر على أنه لا يوجد لها صور تؤطر لحظاتها وتوقف الزمن، كما أن الكتابة تنطلق من فكرة الصور الذهنية التي يختزنها الكاتب، وتحول تلك الصور إلى صور مكتوبة مدركة بالذهن عن طريق قراءتها، هاتان فكرتان وردتا في كتابي "**فتنة الحاسة السادسة- تأملات حول الصور**"، أما الكتاب الثاني فهو كتاب "**الصوت الندي- تأملات في الأداء والأغاني**"، فثمة احتفال من الروائي بأغاني عبد الحليم حافظ التي جاءت اقتباسات استهلالية في جلساتها وفصولها السردية، تدعم هذه الفكرة فكرة

كتاب "الصوت الندي" في أن للأغاني حضورا عند الناس، ويمكن أن تكون الأغاني دليلا على مرحلة معينة كما كانت أغاني عبد الحليم حافظ، ولم يكتف الروائي بهذه الاقتباس، بل ثمة أحداث وأغانٍ مرتبطة بعبد الحليم وخاصة وفاته، هذه فكرة من أفكار التناص اللافتة للانتباه في رواية "صلاة القلق"، ويمكن أن تدرس بالتفصيل إما كونها عتبة من عتبات الرواية، أو مظهرا من مظاهر التناص، ليرى الناقد كيف كان شكل هذا التناص، كما تحدث عنه النقاد وفصّلوا فيه.

لقد عززت الرواية، وخاصة بعد ما شاهدت اللقاء مع نجوى بركات نظريتي النقدية البلاغية القائمة على "الإنقاص البلاغي" التي خصصت لها كتابي "**الإنقاص البلاغي- المفهوم والتطبيق**"، فليس مطلوبا من الروائي أن يعلل كل شيء أو يوضح كل شيء أو يتحدث عن كل شيء، فالرواية قائمة على منطق الانتقاء الواعي والاختيار المدروس، لذلك أتفهم نقديا وبلاغيا إسقاط حرب عام 1973 من السرد، وإسقاط تفسير السارد لبعض الأحداث، تلك التي استفسرت عنها نجوى في "مطالعات" لأن الروائي يجب أن يترك شيئا للقارئ ليفكر به، ويضع احتمالاته هو، كما أجابها الروائي محمد سمير ندا، فما لا يقال أحياناً يكتسب أهمية أكثر مما يقال، هذه

فكرة محورية في كتابي وأبنت عنها في كل النماذج الشعرية والسردية التي حللتها بناء على هذا المنطق الإبداعي.

الثالث عشر: أشرت فيما سبق إلى حضور فلسطين في الرواية كونها قضية عربية قومية، ويشكل ضياعها غصة لكل عربيّ، ولكن سأشير في هذا البند إلى ثلاثة مواضع سردية تشكل فلسطين فيها أهمية خاصة:

الأول: كيف عبر السارد على لسان "شواهي" عن تشكل العلم الفلسطيني: "ألمح خيطا أخضر، وآخر أحمر بلون الدم فأتصوّره ينسج وردةً على خلفية يتداخل فيها السواد بالبياض. تدور بي الأرض فأفقد الوعي ولا أسقط أفتح عيني فأعي أنّي كنت منذ البدء شجرةً مورقة مثمرة، شجرةً ذات جذعين، وما نُسج بينهما لم يكن سوى علم فلسطين". لقد ربطت تشكله بنفسها والخيوط تجدل بين ساقيها: "رأيتني أقف مصلوبة، منفرجة الساقين، وزكريا النساج يلف خيوطه على ساقيّ، صانعا نوله بينهما". (الرواية، ص 227 و ص 226)

وأما الموضع السردي **الثاني** فتحضر فلسطين فيه بمظهر من مظاهر مقاومتها، عند حديث محجوب النجار عن حفر النفق

فيقول: "لا تتوقف عن الحفر، في شق الأرض خلاص، يعقبه مخاض من نور" (الرواية، ص 190)، لا بد لي من أن أتذكر عملية نفق الحرية التي قام بها ستة من الأسرى الفلسطينيين بحفر نفق تحت سجن جلبوع القلعة الحديدية المحصنة، ونجحوا في يوم 2021/9/6 بتحرير أنفسهم، لقد كانت عملية مفاجئة واستثنائية، وليس بعيدا عن هذه العملية شبكة أنفاق المقاومة في غزة التي أثبتت فاعليتها في الحرب على غزة بعد السابع من أكتوبر، وظلت عقبة كأداء عسكرية يفكر فيها الكيان الغاصب، ويسعى إلى تدميرها، ويطلب ذلك صراحة في كل اتفاق. إنه اختراع مقاوم، لها أهميته العسكرية، وحضوره في البنية السردية في "صلاة القلق" يحمل دلالات قوية؛ إذ يجب على الإنسان ألا يستسلم للواقع مهما كان قاسيا وأسود، فثمة طرق يستطيع العقل أن يسلكها إن توفّرت الهمة والإرادة القوية، كما عبّرت عنها الرواية في عمل محجوب النجار.

وثالثاً: في انتقاد السارد على لسان نوح النحال صحيفة "صوت الحرب"، فيعبّر عن أمله في أن يكون هناك صحيفة مختلفة، والاختلاف هنا أنها صحيفة حرة، غير تابعة للحكومة وليست بوقا لها، إنما صحيفة معبرة عن آمال الشعوب نفسها، فيسأل نوح هذا

السؤال: "متى يصبح لدينا جريدة تعجّ بصورٍ ملوّنة للأطفال في الغيطان، والصبايا في الأعراس، جريدة تنقل لنا صور فلسطين المحرّرة، وتغيب عنها صور الحرب والدبابات ومفردات القتال المقدس؟" (الرواية، ص 58)

الرابع عشر: تعد رواية "صلاة القلق" رواية سياسية، وتقدم قراءتها الخاصة لفترة من فترات الزمن العربي العقيم المعاصر، كما أشرت فيما سبق، ولذلك تعد الكتابة فاضحة لهذا الواقع العربي المميت والقاتل للكرامة الإنسانية عند المواطن العربي الحالم دائما بأن "يهجّ"- ولو بحفر الأنفاق- من وطن مليء بالشرور والمعاصي والآثام والخطايا، ومحاصر بالأوبئة، والفقر والتخلف.

إنها رواية الإدانة الغاضبة العارمة للخطاب القومي العربي الناصري المتوحش حيث التعذيب في السجون، وربما أشارت الجلسة الأولى لنوح النحال إلى محنة "شرق المتوسط" لعبد الرحمن منيف، تلك الرواية التي تتحدث عن التعذيب في السجون، وتؤكده "صلاة القلق" التي تنتمي أحداثها الروائية إلى الفترة نفسها "الستينيات والسبعينيات"، وقد ارتبط بهذه الأوطان كريهة الصيت والسمعة والحكم ثيمة التحول، بما يذكر بمسخ كافكا، فقد طال التحول أو المسخ كل سكان نجع المناسي- سوى حكيم وشواهي-

لتصبح وجوه الناس كالسلاحف وتتساقط شعورهم، ولم يعد يفرق بين النساء والرجال، فالنساء فقدت أنوثتها والرجال فحولتهم.

لقد غدت الأرض العربية ممثلة بهذا النجع أرض دستوبيا ملعونة، وهذا ما يشير إلى "استعاريتها الروائية" للوطن العربي الكبير الذي لم ينطبق عليه قول عبد الحليم حافظ "وطني حبيبي الوطن الأكبر"، فليس فيه ما يشجع على المكوث فيه، فليس صحيحا ما ادعاه العندليب أن "انتصاراته مالية حياته"، بل على العكس الهزائم تتوالى عليه لتنهشه من الداخل، كما هو مستباح من الخارج، والناس تعيش في وهم الانتصار والتفوق والمجد، وكل مشاريع التنمية والتطوير والتحديث ما هي إلا ضغث على إبّالة كما يقول المثل، وإلا ما سبب ما يعانيه الناس حاليا من فقر ومرض وتخلف، وما اعتماد العرب الكامل على المنظومة الغربية العلمية والاقتصادية إلا دليل قاطع على هذه التبعية العمياء للنظام العالمي الذي يستعمرنا، وينهب ثرواتنا ولا يبقي لنا إلا فتات الفتات، وبعد كل ذلك مطلوب منك "أيها العربي الأبيّ" أن تسبح بحمد الرب الأمريكي العالمي!

إنها رواية ترسم القلق الوجودي عند كل عربيّ يفكر بالخلاص مما هو فيه، فهل يأتي ذلك الخلاص، ونقول "خلاويص"؟ يبدو ذلك

بعيد المرام في ظل أنظمة لا تعرف معروفا، ولا تنكر منكرا، بل إنها تحالفت مع الأعداء ضد المواطن البسيط، لتصبح تنكر المعروف وتحارب المقاومة وتعرف المنكر وتحمل الناس على الاندماج فيه دون اعتراض أو احتجاج أو ثورة، بل وتدعو صحفه وإعلامه إلى تمجيده والتطبيل له كأنه هذا هو مآلنا وغاية أحلامنا وطموحاتنا، كما هو حال صحيفة "صوت الحرب" في نجع المناسي.

هذا الوطن المحلوم به وبناسه وبرجاله الأحرار، هو كما تتصوره شواهي وتتمنى وجوده مع فارس أحلامها: "أريده فارسا، حتى إن لم يمتلك جوادا، أريده حرا، يقتلعني من هذه الأرض المأسورة ليزرعني فوق وسادته أبد الدهر، في عالم آخر لا يعرف الألغام والتماثيل والأوبئة، عالم بسيط لا يثقل هواءه القلق، ولا تمطر سماؤه الحجارة ولا تمتلئ طرقاته بعيون تعري وتخمش وتجرح، عالم لا يُقتل فيه النساج، ولا يعرف عجز الشيخ أيوب، ولا دهاء خليل الخوجة، ولا جنون النحال المكلوم، عالم للناس فيه صوت خفيض، وعيون عامرة بالقناعة والاستحياء، يطوف فيه الصبية والصبايا بضفاف أحلام غزلها بعضهم حول بعض، من دون أعراف تمنح وتبيح، وأخبار تُسر وتذاع". (الرواية، ص 231) فهل كثير هذا علينا أيها العالم؟

ساعة مع كتاب "زمن جميل مضى"

قليلة هي الكتب التي تغريك بالقراءة، وأقل منها الكتب التي تغريك بالكتابة عنها، ومن هذه الكتب كتاب الدكتور جابر عصفور "**زمن جميل مضى**"، وهو الكتاب الثاني والعشرون بعد الخمسمائة من سلسلة "كتاب اليوم" الصادر عن دار أخبار اليوم، ويقع الكتاب- الذي أخذ عنوانه من عنوان المقالة الخامسة عشرة- في (192) صفحة من القطع المتوسط، وينتمي الكتاب إلى فن السيرة الذاتية أو المذكرات.

والكتاب هو مجموعة مقالات صحفية بلغ عددها (ثمانيَ وعشرين) مقالة عدا مقدمة رئيس التحرير نوال مصطفى بعنوان "قبل أن تقرأ" و"**تقديم**" الكاتب نفسه، وسبق للكاتب نشر هذه المقالات الثماني والعشرين في جريدة "**البيان**" الإماراتية، واستحوذت هذه الجريدة على أربع وعشرين مقالة، وفي مجلة "**العربي**" الكويتية التي ضمت بين دفتيها مقالتين، ومجلة "**دبي**" الثقافية حظيت كذلك بمقالتين من تلك المقالات، وتراوح تاريخ هذه المقالات بين 1999/8/19 وشهر مارس/ آذار عام 2009.

وقد جاءت هذه المقالات نوعا من الوفاء لزمن وصفه الكاتب بأنه جميل على الرغم من مرارة تلك الأحداث التي عاصرها الكاتب

في جزء منها، إلا أنها ربما في نظره هي أجمل من حاضر مشوه يعاني من انتكاسات ليس سياسية وحسب، بل وفكرية أيضا، فلم يكن "**الإحباط الأول**" على سبيل المثال عقبة كأداء في نظر الكاتب، بل كان- كما اتضح فيما بعد- مقدمة لعدل ظنه أنه فُقِد، وإذا به ينال ما كان يطمح إليه بعد ذلك الإحباط الذي لم يتكرر.

وأول ما يلفت الانتباه وأنت تقرأ هذه المقالات، وتنتقل بين محطات عاشها الكاتب، يلفت انتباهك تلك اللغة التي أفرغ فيها الكاتب معانيه، فقد جاءت التراكيب بسيطة جميلة جمال تلك المرحلة، منعما على أساليبه بسلاسة ضافية تستهويك بتراكيبها الأليفة منسابة إلى نفسك بكل بساطة، فتدخل إلى الذاكرة وتأخذ لها مكانا وفيرا هناك، ولعل ذلك راجع في ظني إلى عاملين: الأول متعة الحديث ببساطة عن زمن عاشه الكاتب، أراد عرضه كما هو بعيدا عن رتوش الزخرفة والبلاغة الجوفاء، والعامل الثاني هو أن لغة الكتاب تنتمي إلى تلك اللغة الصحفية القريبة إلى القارئ المفترض لتلك الجرائد والمجلات التي نشرت فيها أصلا، ولذا فإنها لا تخاطب نوعا واحدا فقط من القراء، بل كل القراء المحتملين على اختلاف في مستوياتهم الثقافية، ولذا اتخذت اللغة موقعا وسطا، لتكون

النتيجة الطبيعية رضا أولئك القراء عن تلك المقالات والرغبة في متابعتها.

ولم يؤثر الكتاب سلبيا-كونه مجموعة مقالات متناثرة زمانيا- في رسم صورة ثقافية لكاتبه، فالقارئ لهذا الكتاب سيحظى بصورة مكتملة لملامح تلك الشخصية العلمية الثقافية التي أفصحت عنها المقالات، بدءا من لحظات التشكل المعرفي الأول المتمثل في زيارة جابر الفتى "**لمكتبة بلدية**" مدينته المحلة الكبرى، ومن ثم تورطه في عملية تأجير الكتب أو شرائها من "**العم كامل**" وهيامه الممتع بمكتبة "**مدرسة طلعت حرب**" وقراءته للكتب التي تضمها تلك المكتبة في عام دراسي واحد هو كل ما قضاه في تلك المدرسة، ومطالعاته الذاتية بعد ذلك لكل ما كتبه "**طه حسين**"، وحياته الجادة العلمية في كليته في جامعة القاهرة "**كلية فاطمة**" إلى مشاركاته في اجتماعات "**الجمعية الأدبية المصرية**"، وتقديمه للكثير من القراءات النقدية لأعمال أعضاء من تلك الجمعية البارزين من أمثال صلاح عبد الصبور، إلى أن استوى ناقدا أدبيا مبرزا، وأستاذا في الجامعة التي تخرج فيها، متحدثا كذلك عن وعيه السياسي وانتمائه الفكري القومي المؤيد للعهد الناصري ولشخص حمال عبد الناصر.

كل ذلك لتخرج مع آخر جملة من الكتاب، وأنت تتعرف إلى تلك الشخصية الثقافية المؤثرة في الحياة الثقافية، شخصية الناقد الدكتور جابر عصفور، تلك الشخصية التي نبتت من بين صخور المعاناة والقهر والفقر، وجالدت حتى استطاعت أن تحفر لها مكاناً مرموقاً بين ذلك الكم الهائل من المثقفين والكتاب والنقاد بأصالة أبحاثه وطزاجة أفكاره.

ولست متجاوزا للحقيقة إن قلت: إن هذا الكتاب – وقد شدني كثيرا- يتحدث عن بعض ملامح مما عانيته في بعض مراحل حياتي، وما زلت أعانيه، مما يعني أنه يقدم بصورة أو بأخرى جانبا إنسانيا يتقاطع كثيرا مع حيوات كثير منا، وهذا بالضبط ما يجعل الكتاب قريبا إلى نفسك، فتقرأ عن الدكتور جابر عصفور، فتتسلل صورتك إلى الكلمات لترى نفسك قابعا خلف السطور والمعنى كأن الكاتب يقصدك أنت لا يتحدث عن نفسه فقط.

أجد نفسي ذلك الفتى الذي اتسمت شخصيته بالجدية من أيام المدرسة متحديا الصعاب، متشحا بوشاح من الخجل، رأيت نفسي في شخص الطالب النهم، وهو مقبل على قراءة الكتب وشرائها منذ سن مبكرة، حارما نفسه المصروف اليومي ليشتري كتابا، واضعا هدفا أمام عينيه أن يبني ذاته معرفيا، ويقتني مكتبة تضم أسفارا

متنوعة المعارف، أجد نفسي في صورة ذلك الفتى الذي عاني في فترة الدراسة الجامعية شأنه في ذلك شأن الكثيرين من أبناء الفقراء الذين ذاقوا مرارة الحرمان، فتحدوا ظروفهم واستطاعوا تحقيق بعض أمانيهم على المستوى الفردي.

إنني لست أنسى ما كتبه الناقد جابر عصفور عن عمله كمعلم، أحبه طلبته حبا جما، أو حديثه عن ذلك المفتش، مفتش اللغة العربية الذي دفعته تصرفاته معه إلى أن ينفجر أخيرا في وجهه ليترك عالم المدارس، وينتقل إلى الجامعة معيدا، بعض من ذلك رأيته ماثلا أمام عيني كما حدث لي منذ سنوات، لذلك كله أرى أنه كتاب قريب إلى النفس، يحاكي ما فيها، وينكش ماضيها قبل أن ينبش ماضي كاتبها.

وعلى الرغم من ذلك فإن المرء-وهو يقرأ هذا الكتاب الممتع والمفيد- يعثر على ما يثلم جماليته، وأول تلك الملحوظات إعادة الكاتب كثيرا من أفكاره وتكرارها في غير مقال، ولعل في هذا بعض العذر في أنها مقالات كتبت في فترات متباعدة، وكمقالات مستقلة، ولأن الحديث يجب عرضه في تلك الحالة مكتملا وجدنا شيئا من هذا التكرار، فلو عدل الكاتب بعض تلك المقالات عندما عُرضت متتابعة في كتاب لتجنب مثل ذلك التكرار.

من جهة أخرى فإن الكاتب يبدي إعجابه بمصر العربية القومية الناصرية غاضا الطرف عن كل ما يشي لمصر ذات الجذور الإسلامية التي خلفت آثارا وثقافة لها أثرها في أبناء مصر في تلك الفترة وفي كل فترة، ولم يبدُ شيء من ذلك غير ذلك الكلام الخجول عن علاقته بالدين، والتي ظهرت في صلاته مع زملائه الأقباط في الكنيسة والمسجد على حد سواء، وكأنه يرسم في هذا الكتاب بعده المطلق عن كل مظاهر إسلامية مصر المتمثلة في تراث ثقافي ومادي وحضاري ثري، أثر في مصر وأبناء مصر أعظم تأثير، وهنا بإمكان القارئ أن يسجل جانبا من القصور أو البعد عن الموضوعية في هذه المقالات المنتمية إلى السيرة الذاتية، فهل يُعقل ألا يكون للكاتب أي ذكريات مع تلك الرموز الإسلامية الدينية الصرفة، بعيدا عن الكلام السياسي الذي تناول فيه الكاتب الحديث عن الإخوان المسلمين، الذين تجنب الحديث عنهم وعن آثارهم وتأثيرهم في المجتمع المصري، أو حتى دورهم في ثورة 1952، ولم يبرز إلا السمة الناصرية لمصر متحسراً على "**هدم تاريخ**" تلك الحقبة، وهو بذلك يقدم جزءا من الحقيقة أصابت هذه السيرة بشيء من القصور.

ومن زاوية ثالثة فإن حديث الكاتب في كل المقالات التي ترسم جزءا من حياته وخاصة الثقافية، إلا أنه قد تجنب الحديث بشفافية عن نفسه في المقال المعنون بـ "**الحب الأول**" مكتفيا بعرض الموضوع، وكأنه يناقش فكرة مجردة اقتربت من تحليل هذه الظاهرة ملامسا بعض الأبعاد النفسية لمن يقع في مثل ذلك، وبذلك لم يستطع الدكتور جابر عصفور الحديث بحرية حول حبه الأول، وكأنه استشعر الرقابة المجتمعية أو حساسية وضعه كمحاضر جامعي، فاكتفى بما كتب حول الفكرة ولم يتجاوزها، وهذا أمر تعاني منه أغلب السير الأدبية في حديثها عن مثل تلك القضايا، فهو ليس أول كاتب حاول الامتناع عن الخوض في مثل هذا، ولن يكون الأخير، لاسيما الكتاب الأكاديميون، وهذا ما يلاحظ مثلا على سيرة إحسان عباس "**غربة الراعي**"، وهو الناقد المبرز والمنظر "**لفن السيرة الأدبية**".

ساعات قضيتها في قراءة هذا الكتاب فاستمتعت به، وساعة خصصتها للحديث عنه، وإنه للكتاب الحري بالقراءة والإفادة منه، واختلافُ الرأي وإبداؤه لن يفسد الرأي في أن الكتاب الأمتع من بين الكتب التي قرأتها مؤخرا.

هل يمكن أن يكون للقراءة كلّ هذا السّحر؟

لم أكن سمعت قبل جائحة كورونا، باسم الروائي لويس سبوليفدا الذي يُكتب الاسم الثاني منه سيبولبيدا أيضا في بعض الترجمات، فقد كان أحد ضحايا هذا الفايروس، هذا العجوز الذي تجاوز السبعين عاما، لم يحظ بفرصة أن نعرفه جيدا وعلى نطاق واسع عربياً، لولا هذا القدر الذي كان ينتظره، على الرغم من أنه مُترجَم إلى العربية منذ عام 1993 عندما نشرت له دار الآداب البيروتية روايته القصيرة "**العجوز الذي كان يقرأ الروايات الغرامية**" بترجمة د. عفيف دمشقيّة.

لم تكن هذه الرواية هي الوحيدة التي تنشرها دار الآداب للروائي التشيلي أو دور نشر أخرى عربية، لأكتشف عدة روايات أخرى مترجمة ومنشورة عربيا غير المذكورة آنفا، وهي: "قطار باتاغونيا السريع"، و"خط ساخن"، و"قصّة النورس والقط الذي علّمه الطيران"، و"مذكرات قاتل عاطفي".

اشتغل سيبولبيدا في الصحافة إلا أنه تركها ليتفرغ للكتابة الروائية، وقد عبّر عن وجهة نظره في الكتابة بقوله: "**أنا لا أعتبر الكتابة هبةً من الآلهة، امتيازاً ما، الكتابة مجرد عمل، وإنه لأمر يدعوني للضحك حين أسمع عن مؤلفين يشكون من مكابدة**

المعاناة الكبيرة عندما يكتبون، فإن كانوا يعانون كثيراً، لماذا يكتبون إذاً؟ عليهم ألا يكونوا مازوشيين يعذبون أنفسهم". ربما استشفّ القارئ من هذا القول أمرا آخر غير أن الكتابة عمل، إنها هي نفسها نوع من الحب أيضا، وليست تعذيبا كما يظن بعض الكتّاب.

لقد أغراني عنوان روايته "**العجوز الذي كان يقرأ الروايات الغرامية**"، فلا يكاد يخلو خبر عن الكاتب ووفاته إلا وأشار إلى هذه الرواية التي وصفت بأنها "رائعته"، وأنها ترجمت إلى خمس وثلاثين لغة. ثمة مدح مبطن لهذه الرواية القصيرة التي لم تكد يصل عدد صفحاتها إلى مئة وخمسين صفحة. ومن الجدير بالذكر أن الرواية كتبت كما جاء في نهايتها في عامي 1987 و1988 في مدينة أرتاتور/ يوغسلافيا، وهامبورغ/ ألمانيا.

ليس أمرا سهلا أن تقرأ رواية مترجمة في جلسة واحدة، تعجّ بأجواء غريبة عنك وتزخر بالأعلام الغريبة والأسماء الطويلة، صعبة اللفظ، بل أنْ تكون هي عملك الأول الذي تفتتح به نهارك. على الرغم من ذلك فقد قرأتها بشغف كبير، وعدا ما تركز عليه المواقع الأدبية التي كتبت عن الرواية، وتوجُّه المحررين إلى دفاع لويس عن البيئة وغابة الأمازون وضد تدمير الاستعمار والرجل الأبيض

للغابات من أجل الحصول على الذهب وجلود الحيوانات، رأيت في الرواية أمرا آخر مهمّاً، ليس بعيدا عن العنوان، فأن يقرأ عجوز روايات غرامية لا بد من أنه لافتٌ للانتباه.

لعلّ هذه الرواية توجّه المتلقي إلى حقيقة مفهوم القراءة، وماذا نقرأ؟ وكيف نقرأ؟ ولماذا نقرأ؟ لا أظنني قد أخذت الرواية بعيدا عن هدفها عندما أطرح هذه الأسئلة، وأوجّه قراءتي لها نحو هذه الوِجهة، ولن أكون باحثا عن "تأويل التأويل"، ولا عن "معنى المعنى"، ولا ليّ عنق النص لأجعل الرواية محورها القراءة وما يتصل بها.

بداية يحدد العجوز اختياراته في القراءة، فيبتعد عن كتب الهندسة، فكأنها أحجيات أو بذاءات صريحة كما وصفها السارد، ولم يرغب أيضا في قراءة كتب التاريخ التي وصفها كذلك بأنها "**سبحة من الأكاذيب**"، وإنما تستهويه كتب الحب، وقد عبر السارد عن تلك الرغبة بقوله: "**لقد كان** (كتاب) **السبحة لفلورانس براكلي يحتوي على الحب، وعلى المزيد من الحب ودائما على الحب. وكان الأشخاص فيه يتألمون ويمزجون الهناء بالشقاء بقدر كبير من الجمال**". هذا المقتبس من الرواية مهم جدا في التأسيس للفكرة الأساسية لها، ولمؤلفها، ففي الرواية يظهر هذا الألم وهذا المزج بين الهناء والشقاء في نفوس الشخصيات، تلك

الشخصيات التي تتحرك في فضاء من الغابة، وتواجه حيوانات خطرة وقاتلة ومميتة. لقد ظهرت إنسانية العجوز "أنطونيو خوسيه بوليفار" وحبه وألمه في الرواية في مواضع كثيرة؛ في علاقاته مع الشخصيات الأخرى، وفي علاقته مع الحيوانات، فهو كان يحب الشواريين على الرغم من أنه لم يكن واحدا منهم، "**بيد أنه كان مثلهم**"، وعندما لدغته الحية وشارف على الموت أنقذه الشواريون، وأما الحيوانات فإنه لم يكن ليصيد صغارها ولا يصيد إلا من أجل أن يأكل وفي أوقات معينة، حتى لا يستفزّ تلك الحيوانات وتصبح شرسة. لقد تجلى الحب في نفس "أنطونيو" عميقا، وصاحبه على مدى رحلته الروائية في الغابة، وهو يبحث عن البهيمة/ القطة التي استشرست وقتلت أربعة من البيض؛ لأن أحدهم قتل صغارها وجرح ذكرها، بقي يبحث عنها، ليخلص الصيادين ومرتادي الغابة وحتى سكان القرية المجاورة (أل إيديليو) من شرها، حتى استطاع أخيرا أن يقضي عليها، ولكن تلك المعركة والمناورة التي قامت بين "أنطونيو" والقطة الشرسة، كان فيها من الإنسانية ما فيها. فقد حرصت القطة، من خلال متعة السرد الشائق الذي نجح المترجم الدكتور عفيف دمشقية في نقله، على أن يقتل العجوز القطّ الذكر الذي أصيب وظل يتألم، فترشد القطةُ الرجل العجوز عبر

سلسلة من المراوغات إلى موقعه ليقوم بقتله بإطلاق "رصاصة الرحمة" عليه ليتخلص من عذابه، لقد عرف العجوز بخبرته أنها كانت تريد أن يتخلّص ذكرها من العذاب بالموت، وقد حقّق لها مرادها، ولكن المعركة لم تنته مع القطة التي كانت تبحث عن الموت هي أيضا رحمة من عذابها بقتل أبنائها وذكرها، وتقوم المعركة الأخيرة التي تنتهي بقتلها. وفي نهاية هذا المشهد تظهر إنسانية "أنطونيو" حيث قام "**ومسح عليها العجوز ناسيا ألم قدمه الجريحة وبكى من الخجل شاعرا بأنه خسيس ومحتقر وغير منتصر بأي شكل في هذه المعركة**". وليس هذا وحسب، بل إنه "**دفع جسم الحيوان إلى ضفة النهر فجرفته المياه إلى أعماق الغابة نحو أراضٍ لم يقدّر قط أن دنسها الرجل الأبيض**".

ربما أعادت مشاهد المعركة مع القطة الشرسة الثكلى بأبنائها وذكرها مشهد صراع الشيخ مع سمكة القرش في رواية آرنست همنغواي "الشيخ والبحر"، ولكن بإنسانية أوضح عند أنطونيو كونه بطلا ينتمي إلى أمريكا اللاتينية، هذه القارة التي استنزفت ثرواتها أطماعُ المستوطنين والرجل الأبيض. وإن تشابها قليلا في أن المشهد الأخير من صراع أنطونيو مع القطة كان صراعا على البقاء حيا، فإن لم يقتل القطة، فإنه لمن المؤكد أن القطة كانت ستقضي

عليه، واكتسب صراع الشيخ مع سمكة القرش شيئا من صراع الوجود أيضا، فقد ناضل بكل قوته ليظل حياً وألا يصبح طعاما لها.

هذه الرواية المبنية على عدة مواقف سردية تكشف عن تلك الأطماع، ولكنها الأطماع التي خلت من الحبّ والإنسانية وعدم الفهم لحيوان الغابات وأهمية وجودها، لقد كان "أنطونيو" يكتفي مثلا بسحب السّمّ من الأفاعي ولا يقتلها، ويجمع سمّها القاتل ليبيعه دون أن يؤذي تلك الحيوانات.

لقد قامت الرواية على أمرين الحبّ والقراءة، فالحب بمفهومه الشامل هو الذي يمنح الإنسان عيشا طبيعيا حتى وهو في الغابة بين الحيوانات الخطرة، بل إن الحقد وسوء النية هو الذي يحوّل القرود والخفافيش والقطط إلى حيوانات قاتلة، ومن هنا يتبين القارئ أهمية القراءة، وأيضا القراءة بمفهومها الشامل، فقراءة الكتب تمنحنا شيئاً أكبر من المعارف والمعلومات، إنّها تروّضنا لنكون أكثر انفتاحا على الآخر، وتقبّله، واحترام أفكاره، وبالقراءة- كما ترى الدكتورة رزان إبراهيم- "نصبح قادرين على التخلص من إملاءات الآخرين ونشعر باستقلاليتنا، وتكون لنا رؤيتنا الخاصة

وثقافتنا المميزة"[1]، وهذا ما يلاحظه القارئ في شخصية أنطونيو عموماً.

عدا أن الرواية لا تقف عند قراءة الكتب والروايات فقط، بل قراءة الطبيعة ومظاهرها في الصحو والمطر، وقراءة سلوك الحيوانات وفهمها لإيجاد أرضية للتعايش معها وتجنب خطرها. ويعطيها حقها في أن تعيش حياتها الطبيعية وتعتني بصغارها، وأن تكوّن أسرتها كما يحلو لها بعيدا عن تدخلات الجشع البشريّ.

بالإضافة إلى ما سبق ترشد الرواية من باب آخر كيفية قراءة الكتب، فالكتب لا تقرأ على عجل، وإنما بتؤدة وصبر لكي يفهم القارئ ماذا قرأ، فلا عجب إذن أن يكون العجوز قارئا ولا يحسن الكتابة، يقرأ الكلمات حرفا فحرفا، وصولا إلى الكلمة كاملة، ثم الجملة، وكأنه يتذوق الكلام تذوقا بمتعة، ولم يكتف بذلك بل كان يعيش بفكره ويتخيّل ما هو مكتوب، "**وكان يخصص سائر وقته لقراءة الروايات والهيام بأسرار الحب وتخيل تلك الأمكنة التي حدثت فيها تلك الحكايات**".

[1] من حديث للدكتورة رزان إبراهيم عبر منصة زوم في ملتقى المبدعين الشباب، اليوم الثاني، 2020/12/11.

هذا التأمل في الكتب الروائية وما فيها من أسرار الحب والمعرفة، هو الذي جعله يقرأ الغابة جيدا، ويستطيع أن يتعامل معها التعامل الذي يؤهل له سلامته الشخصية من أذاها، وقد أنقذ بفعل هذه القراءة الواعية للطبيعة والغابة وحيواناتها الرجل البدين ومن معه، وهم يتوغلون في الغابة بحثا عن القطة الشرسة، وخلّصهم من مواقف لولا وجوده معهم لكانوا في عداد القتلى والمفقودين.

لقد اكتسب الرجل العجوز "أنطونيو" قوة من هذا الحب ومن هذه القراءة/ المعرفة المعترف بها من رجل السلطة الغبيّ الذي مثّله المحافظ خير تمثيل، هذان الأمران اللذان كان يفتقد إليهما الرجل البدين بوصفه مسؤولا حكوميا، فقد كاد يودي به جهله وحقده إلى الموت خلال رحلة البحث تلك، ولذلك فإنه وجد أن من الأسلم له ولمن معه العودة إلى القرية (أل إيديليو) لحراستها، وترك العجوز وحده ليصارع الهيمة الشرسة، مقابل خمسة آلاف قالب من السكر تمنحه إياها "الدولة"، ولم يكن في نية المحافظ إلا التخلص من العجوز، ولكن هذا العجوز المسّلح بالخبرة والحب والإنسانية ينجح في مهمته، وبدلا من أن يعود ليقبض الثمن الموعود، يتخلص من بندقيته الملعونة بوصفها أداة قتل وكُرْهٍ و"**بهيمة معدنية ملعونة من جميع المخلوقات**". ويتوجه إلى (أل إيديليو) "**نحو**

كوخه ورواياته التي تحكي عن الحبّ بكلمات هي من الجمال بحيث تنسيه في بعض الأحيان بربرية الناس". وهكذا تنتهي الرواية بهذه الفقرة التي تومئ إلى الفكرة الأساسية من الرواية، حيث الحب والقراءة كفيلان بجعل الإنسان أكثر إنسانية. فإن كان للحب كل هذه الفاعلية في حياة البشر، فهل للقراءة كل هذا الأثر أيضا؟

أعتقد أن الأمر بحاجة إلى مزيد من التعمق أكثر من مجرد تحويل الكلمات المكتوبة إلى معان ذهنية حبيسة النفس، بل يجب أن يكون للقراءة الإيجابية للموضوعات المؤثرة في تحسين ظروف الفرد والمجتمع واقع محسوس ومطبّق، وإلا ستبقى القراءة فعلا أحمق يستهلك وقت القارئ دون تلك النتيجة المتوخاة من القراءة الفاعلة المغيّرة لنفوس البشر وعقلياتهم وسلوكياتهم نحو الأفضل.

تداعيات في محراب قراءة كتاب"إبادة الكتب"[1]

كتاب "إبادة الكتب"؛ اقتنيته عام 2018، وقد صدر في حينه مترجماً عن سلسلة عالم المعرفة الكويتيّة[2]، ومكث في رفّ مكتبتي، غارقاً في عتمة الممرّ الحاضن للمكتبة سبع سنين، بل أكثر، كلّما بحثت عن كتابٍ احتجت إليه رأيته أمامي، بل إنّه يصادفني في المكتبة التي أزورها بين الفينة والأخرى لشراء الدوريّات والكتب الجديدة مرّات عديدة، أعود إلى البيت، وأودع الكتب الجديدة على الرفّ، كيفما اتّفق حسب ما هو متاح من فراغ بين الكتب أو أعلى الرفوف المكتظّة، وأراه أمامي كذلك. لن أبالغ لو قلت إنّني أراه يوميّاً منذ اقتنيته، ولم أفكّر يوماً بقراءته، إذاً، هو الكتاب الذي لن أتوه عنه، ولم أتعب في العثور عليه.

في شهر ديسمبر وأنا أودّع عام 2025 رأيته، وقفت أمامه، وقرّرت قراءته، رأيته كتاباً مختلفاً ومهمّاً جدّاً، أثار فيّ أسئلة شتّى، حول المفهوم وعلاقته بالمفاهيم الأخرى التي ترتبط به (الإبادة الجماعيّة،

---

[1] نشرت هذه المادة في موقع "ميدل إيست: 2025/12/27، وصدّره المحرر بهذا التعليق:" كتاب ربيكا نوث يفتح نافذة لرؤية الحقد المنظم على الوعي؛ حيث يتحول الكتاب في واقعنا من منارة للروح إلى "تُهمة" يطاردها الطغاة والرقباء لتثبيت أركان التجهيل".

[2] رقم الكتاب (461)، وترجمه: عاطف سيد عثمان

الإبادة الإثنيّة الثقافيّة، العنصريّة)، لماذا لم أنتبه من قبلُ لموضوعه وعنوانه؟ إنّه يتحدّث عن أفعال أراها يوميّاً، ورأيتها فيما سبق، وتابعتها إعلاميّاً، فحالتان من الحالات التي تحدّثت عنها المؤلّفة ربيكا نوث (Rebecca Knuth) كنت واعياً لها، احتلال صدّام حسين للكويت، وحدوث مذبحة سبيرنتشا، وأمّا الحالات الأخرى فليست بعيدة عن اهتمامي، وكنت قرأت عنها، إلّا أنّ الكتاب أدخلني في تفاصيل لم أكن صادفتها وقرأت عنها، فحتّى المفهوم "إبادة الكتب" لم يكن من ضمن المفاهيم التي صادفتني أو قرأت عنها قبل هذا الكتاب، وتقرّ المؤلّفة أنّه مفهوم حديث غير مستقرّ، وظلّ تعريفه مع غيره من المفاهيم المرتبطة به "في حالة سيولة".

لم يفدني الكتاب فقط في موضوع إبادة الكتب، وإظهار الحقد البشري على الكتب بوصفها كائنات حيّة لها روح، وإنّما جعلني أفكّر في مسائل رمزيّة، تتعلّق بالكتاب والتخلّص منه، حادثة أبي حيّان التوحيدي وما شاع من أنّه أحرق كتبه، لقد اكتشفتُ في أحد المصادر التي قرأتها ونسيتها أنّ الكاتب يقول إنّ التوحيدي لم يحرق كتبه التي ألّفها، وإنّما أحرق كتبه التي يملكها، وفي المسألة نظر،

وهذه الحالة إن كانت فعلاً هكذا فإنّ أبا حيّان التوحيدي قد أباد مكتبته، وتخلّص منها، ولكنْ إذا تخلّص من كتبه التي ألّفها فالمسألة مختلفة، تندرج في باب التراجع عمّا كتب، والتأسُّف عليها، لأنّه رأها لا معنى لها، وهذه الحالة ليست "إبادة كتب"، فثمّة مؤلّفون تخلّصوا من كتب ألّفوها لعلمهم أنّها لم تَعُدْ مهمّة أو أنّها كتب تافهة، كما حدث مع محمود درويش في تخلّصه من ديوانه الأوّل "عصافير بلا أجنحة" (1960). إنّه كتاب مراهق بالفعل، وقد قرأته مؤخّراً، لكنّه يحمل بذور إبداع درويش الشعري، حادثة أبي حيّان التوحيدي أرجعتني كذلك لشخصيّة "مرزوق أبو الحسن" في مسلسل "سامحوني ماكنش قصدي" حيث أحرق كتابه.

يتّصل بهذه المسألة كذلك من يتخلّص من مكتبته ليتبرع بها، إنّها مسألة في غاية الأهمّيّة، إنّ كثيرين من العلماء والأساتذة يصلون إلى مرحلة لم يعودوا قادرين على القراءة أو الاستفادة من الكتب، فيتبرّعون بها إلى مكتبات الجامعات أو المكتبات العامّة، وربّما دفعهم لذلك أنْ لا يوجد لديهم ابن أو ابنة أو أخ له اهتمام بالكتب، فلمن يتركون هذه الثروة العظيمة؟ فالحلّ الأنسب التبرّع بها، إنّهم بهذه الطريقة يحافظون عليها، ويوفّرون لها عمراً افتراضيّاً

طويلاً قد يمتدّ إلى مئات السنوات، وقد شهدتُ شيئاً من ذلك في مكتبة بلديّة نابلس العامّة، حيث مكتبات كلّ من الأستاذ حافظ طوقان، والأديب عادل زعيتر، والشيخ عادل صلاح، والأستاذ راسم يونس، والدكتور والباحث محمود عطا الله، إنّها موجودة بكلّ أشيائها ومراجعها ورفوفها، إنّ هذا الفعل نوع من الخلود لأصحابها ولكتبهم وتكشف عن اهتماماتهم، ودراساتهم، وبحدّ ذاتها تصلح لتكون موضوع دراسة في علم الاجتماع الثقافي.

ثمّة آخرون يتخلّصون من مكتباتهم؛ لأنّهم لا يريدون أن يقرؤوا، لقد وصلوا إلى حافّة لا يرون منفعة في الكتب، ولا في قراءتها، وتتحوّل إلى عبء إضافيّ في البيت، وتشوّه (الديكورات) العصريّة، سيحتفظ هؤلاء فقط بكميّة مختارة من الكتب لإكمال (الديكور)، ولإعطاء وَهْمٍ للزوّار أنّ أحدهم مثقّف، ذو ثقافة نخبويّة كلاسيكيّة وأجنبيّة، لا سيّما إنْ ترك في مكتبته كتباً مكتوبة بلغات أجنبيّة، على الرغم من أنّه قد لا يحسن القراءة بتلك اللغات، وأيضاً عايشت مثل هذه الحالات، إنّهم يتخلّصون من الكتب، لا يتبرّعون بها، ولا يعنيهم مصيرها، ويا للمفارقة، لقد وصلني بفعل هذه

الجنايـة كـمّ هائـل مـن الكتـب المهمّـة والمجـلّات الأدبيّـة التـي ينـدر وجودها في فلسطين.

وإضـافة لهـذه الجوانـب من التعامل مع المكتبـات الشخصيّة، ثمّـة مـن يبيـع كتبـه أو يفكّـر ببيعهـا، كمـا حـدث مـع الكاتبـة المصـريّة صافيناز كاظم التي أعلنت على صفحتها في الفيسبوك أنّها تنوي بيع مكتبتهـا بمليـون جنيـه، ربّمـا جـاء الإعـلان مـن أجـل الحصـول على المال، وربّما أرادت التخلّص منها، لكنْ ليس دون ثمن، على أيّة حال، كثيرون من يفكّرون ببيع مكتباتهم، ومررْتُ بما يشبه ذلك، وكنتُ أنوي بيع مكتبتي لظرف قاسٍ مررْت به، لكنّها نجت، وإن لم أنجُ أنا نهائيّاً من هذه المحنة.

مسألة أخرى، تفتّحت مناقشتها معي وأنا أقرأ كتاب "إبادة الكتب"، وهي نزعة الانتقام بالكتب ومن الكتب، فما يسيّر هؤلاء الطغاة هو نزعـة الانتقـام من شـعب، لأنّـه شـعب ذو تـراث، وذو حضـارة وتـاريخ عريـق، لكنّني أخـذت الانتقـام إلى فلـك الانتقـام الشخصيّ، فكيـف تكيد إنساناً يحبّ كتبه إلّا بالانتقام منه بإبادتها؟

قـرأت في كتـاب مصـطفى السـباعي "مـن روائـع حضـارتنا" في فصـل خصّصه للحديث عن الكتب: "كان للأمير ابن فاتك- من أمراء مصر

في القرن الخامس الهجري- مكتبة ضخمة، يجلس فيها أكثر أوقاته ولا يفارقها، وله زوجة كبيرة القدْر من أرباب الدولة، ولكنْ داخلتها الغيرة من الكتب، فلما توفّي نهضت هي وجواريها إلى خزائن كتبه وفي قلبها لوعة من الكتب؛ لأنّه كان يشتغل بها عنها، فجعلت تبكيه وتندبه، وفي أثناء ذلك ترمي الكتب في بركة ماء كبيرة في وسط الدار هي وجواريها، هكذا فعلت زوجة أحنقها ولع زوجها بالكتب، فانتقمت من الكتب بعد وفاته". "وقديماً كانت زوجة الإمام الزهري تقول له حين تراه غارقاً في الكتب: "والله لهذه الكتب أشدّ عليّ من ثلاث ضرائر!"، ويتّصل بهذا الانتقام تهديد الزوجة لزوجها إن تزوّج عليها أن تطعم كتبه النار، وتحرق قلبه عليها.

أمّا المسألة الثالثة التي تأخذ بعداً رمزيّاً في مسألة "إبادة الكتب"، ما شاع في الغرب من مشهديّات الانتقام من المسلمين والإسلام بحرق نسخ من المصحف الشريف. تتكرّر هذه الحوادث بين فينة وأخرى في كثير من البلدان الغربيّة، يقوم بها أشخاص جهلة وحاقدون على الإسلام والمسلمين، معتبرين أنّ أساس الشرّ والإرهاب هو هذا القرآن الكريم، فيقومون بحرق نسخ منه، إنّهم بالتأكيد لا يستطيعون "إبادة القرآن الكريم" لكنّها مشهديّة تحمل معنى رمزيّاً

تحريضيّاً على المسلمين، وتزجّهم في خانة الإرهاب والإرهابيّين، ومهما فعلوا أو قدّموا للمجتمعات الغربيّة من خدمات جليلة واستثنائيّة، فإنّهم سيظلّون يحملون صفة "الإرهابي المحتمل" في أيّة لحظة. إنّ حوادث حرق المصحف الشريف في الغرب مقبولة في الذهنيّة الغربيّة الاستعماريّة، فلا تفسّر لديهم في القانون إلّا أنّها "حرّيّة تعبير"، بينما وطء علَم من أعلام الدول الاستعماريّة أو حرقه في مظاهرة غاضبة فإنّه عمل مُجَرّم وعنصري ويستحقّ فاعله المحاكمة.

يتّصل بإبادة الكتب محاربة الكتّاب وقتلهم أو نفيهم، أو اضطهادهم في بلدانهم وسجنهم، وحرمانهم من الوظيفة، ومحاصرتهم. لقد ناقش الكتاب تلك الجرائم الذي فعلها النظام السياسي الصيني في عقد من الزمن (1966- 1976) فيما عرف بالثورة الثقافيّة، كيف عاقب كثيراً من المعلّمين والكتّاب والمثقّفين، وصادر كتبهم، وأجاد أيّما إجادة في ترويعهم بدءاً من الاعتقال والتعذيب حتّى القتل، ليضطرّ بعضهم أن يتخلّص بنفسه من كتبه.

يرتدّ بي الزمن أيّام الانتفاضة الأولى (1987- 1993)، وكنت يافعاً عاشقاً للكتب، ثمّ طالباً في الجامعة، وشغوفاً بجمع الكتب ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، رأيتُ خوف العائلة من احتفاظي ببعض الكتب السياسيّة والمجلّات الحزبيّة، وكانوا يطالبونني دوماً بالتخلّص منها، كنت أسمع عن مداهمات دوريّات الاحتلال الليليّة لبعض البيوت في القريّة أو القرى المجاورة، ومعاقبة من يُضبط عنده كتب ممنوعة، فكانت العائلة تزداد خوفاً عليّ، فليس لي طاقة "على البهدلة والسجن"، لقد تخلّصت من تلك المواد التحريضيّة بطريقة مغايرة، ومخاتلة، فاستبدلت بها كتباً أدبيّة من صديق لي، اكتشفت بعد سنوات عديدة أنّه اضطر للتخلّص منها بالحرق، نظراً لمعارضة والده لوجودها، فعندما سُجن قامت عائلته بحرقها، كأنّها موادّ وأدلّة على جُرْم كبير.

أستذكر في هذا السياق رواية الكاتبة الفلسطينيّة كوثر الزين "ذاكرة في الحِجْر" حيث تحتلّ المكتبة والكتب والقراءة وما فيها ودلالتها مساحة مهمّة من السرد، فتتعرّض للتفتيش من قبل قوّات الأمن، وتفكّر الأمّ ببيعها لسداد فواتير الكهرباء؛ كي لا يظلّوا على ضوء الشمعة، وتظهر المكتبة ضمن الأجواء الرومانسيّة، وجسراً

للعاطفة، عندما عدْتُ للرواية، وراجعت دَوْر المكتبة في الحدث الروائي وجدتها تشكل عصباً رئيسيّاً من أعصاب السرد.

إنّ الكتب الممنوعة مسألة شائعة في حياتنا- نحن الفلسطينيّن- فمن عنده كتب كمن عنده "مخدّرات" أو "أسلحة"، وخاصّة تلك الكتب المحظورة، هذه المسألة لا تتّصل بالعلاقة مع الاحتلال فقط، بل أيضاً يعاني منها الفلسطيني تحت حكم "سلطة أوسلو" التي منعت منذ سنواتها الأولى تداول كتب إدوارد سعيد بناء على موقفه السياسي من اتّفاقيّة أوسلو، ومنعوا تداول كتاب "فيصل درّاج" "بؤس الثقافة في المؤسّسة الفلسطينيّة" وكتب أخرى كثيرة بعد ذلك، وسحبوا من المدارس كتاب "فلسطين التاريخ المصوّر" للمفكّر الكويتي طارق سويدان، وذلك "بحجّة أنّ الكتاب يحتوي على مضامين جهاديّة يعتبرها الاحتلال تحريضيّة، بالإضافة إلى انتقاد الكاتب لعمليّة التسوية بين السلطة الفلسطينيّة والاحتلال"، وهذه المسألة تتشعّب وتطول، ليختلف المنع تبعاً للوزير المسؤول ومن حوله ممّن يلقّنه التعليمات، فقد سُحب أيضاً كتاب "قول يا طير" بحجّة اشتماله على ألفاظ خادشة للحياء العامّ، كما رفضت وزارة التربية والتعليم إدخال كتاب أحلام

بشارات "اسمي الحركي فراشة" إلى مكتبات المدارس بحجّة مخالفته للقيم والتقاليد الاجتماعيّة، والأسباب كثيرة ومتنوّعة مع كلّ كتاب يقرّر الرقيب الغبيّ منعه.

في كتاب "إبادة الكتب" ثمّة حديث مطوّل حول "الثورة الثقافيّة" في الصين وما رافقها من تحديد من هو الصالح من الطالح بناء على ولائه الحزبي، والشيء نفسه تقوم به "سلطة أوسلو" عندما تقرّر من هو صالح للتعليم أو التعيين في الوظائف الحكوميّة، عليك أن تجتاز الفحص المخابراتي والأمن الوقائي لتكون محظيّاً بالوظيفة، وإلّا لن يكون لك دور في ذلك، إنّها مكارثيّة بشكل أو بآخر، لقد كان لهذه السياسة المتهوّرة عوائد سقيمة على كلّ المناحي، فتسلّم الوظائفَ اللصوص والمنافقون وغير الأكْفاء والمحميّون بأحد المتنفّذين، وصارت جودة كلّ إنتاج تتراجع بشكل مذهل، وها أنا أعيش ذلك وأشاهده في المحيط الذي أعمل فيه، فلا شيء يوقف التراجع والتردّي والرداءة ما دام هذا النهج الفاسد جدّاً هو العامل الحاسم فيمن يقود البلد ومن يعمل في مفاصلها الحيويّة، إنّ تلك العقليّة لا يمكن لها أن تبني مجتمعاً متماسكاً وقويّاً يعدّه القادة المفترضون أنّهم وطنيّون لمجابهة الاحتلال ومقاومته، إنّ هذه

السياسة لن تزيد المجتمع ومؤسّساته إلّا بؤساً وتخلّفاً، فمتى يجني المرء عنباً وقد زرع الشوك؟ ولكنْ هيهات لكلّ هؤلاء الغارقين في أوهامهم أن يدركوا عظم الكارثة، ما داموا مستفيدين وتحقّق مصالحهم الآنيّة، داسّين رؤوسهم في الرمل كالنعامات لا يريدون أن يروا الحقيقة.

لقد تراجعت الصين عن ثورتها الثقافية تلك بعد عقد من انتهاجها وأدركت خطأها، ولكنّني لا أظنّ أنّ "سلطة أسلو" ستتخلّى- كونها صورة ممسوخة عن أسوأ نظام عربي- عن نهجها هذا؛ لأنّها "سلطة" ليس لديها مفكّرون، أو عقول راجحة قادرة على أن تراجع السياسات وخطرها ومآلاتها الواقعيّة، لذلك ستظلّ "سلطة أوسلو" برموزها المتسلّطين يعملون على خراب المجتمع لينهار بهم، فيكونوا أوّل ضحاياه، لأنّ لكلّ فاسد نهاية،

هكذا يعلّمنا التاريخ، ولا يعلّمهم إلّا بعد فوات الأوان، على الرغم من أنّ كتاب روبيكا نوث "إبادة الكتب" لا يقول هذا صراحة أو ضمناً، لكنّ شواهد التاريخ خارج دفّتيْ هذا الكتاب تقول أكثر ممّا يظنّ أيّ قارئ سطحي عَجول لكتاب على هذا النحو من الأهمّيّة والفائدة.

تداعيات إضافية لقراءة كتاب "إبادة الكتب"

لأن من عادتي كتابة ملحوظات وأنا أقرأ، فقد تجمّع لدي عدد كبير منها مع انتهاء القراءة. استهلك كتاب "إبادة الكتب" مني أربعة أيام للقراءة، وجبة واحدة من تلك القراءات تناولتها من النسخة الإلكترونية المتاحة مجاناً في عدة مواقع إلكترونية، مدة تلك الوجبة ما يقارب ساعتين، ومكانها المكتب، وليس المنزل.

"تأتي الرياح بما لا تشتهي السفنُ"، ولعلّ ذلك خير، أحب القراءة في المكتب خلال عطلة المدارس، فليس لنا جولات صباحية، فلا متابعة، ولا حصص، ولا مهام إشرافية، ولا اجتماعات ضرورية طارئة أو روتينية، وأغلب الزملاء يجدونها فرصة للتمتع بالإجازات السنوية، إلا أنا، فأحب هذه الأيام التي يقلّ فيها عدد الزملاء، فيخلو لي الجو، ويحلو في القراءة المتصلة التي تمتد إلى نحو (5- 6) ساعات متواصلة، يصاحب ذلك كتابة ملاحظاتي في قصاصات من الورق، حتى إذا قفلت راجعا إلى البيت، واستأنفت القراءة في النسخة الورقية، أعدت كتابة الملحوظات عليها في موقعها، وقد لاحظت على نفسي ملاحظتين في هذا التكنيك الإجرائي، الأول أن الملاحظات قليلة، وتقتصر على ما هو مهم جداً، ولا يمكن الاستغناء

عنه، وتختفي إمكانية وضع خط تحت بعض الأسطر المهمّة اللافتة، والأخرى، أن هذه الطريقة مرهقة، ومشتتة لحرارة الاندماج في الأفكار، وتستهلك وقتاً أطول، إلا أنها أفضل من الانقطاع عن القراءة، مع أن لها ميّزة خاصّة تدخلني في حالة من التدريب على ظروف متباينة لقراءة الكتب.

على أية حال في تلك الوجبة الوحيدة من القراءة الإلكترونية لم تمض كما هو مخطط لها، فالزملاء لم يكونوا في إجازات، وأفسد عليّ أحدهم متعة الاختلاء بالكتاب، ومضى اليوم إلا أقله في إدارة أحاديث لا تسمن ولا تغني من جوع، وأنت في الدوام، لا تستطيع أن تعزل نفسك تماماً عن الآخرين، فلا بد من أن يقتحموا عليك مكتبك، ويبادلونك بعض الأحاديث الجانبية، والتحيات والمجاملات والنكت (البايخة) أحياناً، لذلك في هذا اليوم جرت الرياح بما لا تشتهي السفن، وربما لم يتجاوز عدد الصفحات المقروءة من الكتاب سوى (10- 12) صفحة، وهذا هو الخير، لأن القراءة الإلكترونية مكلفة، ومردودها قليل، وكلما قلّ عدد صفحاتها يكون ذلك لصالح القراءة والتمتع بالأفكار المكتوبة ومحاورتها، ونبش الذاكرة في استدعاءات عفوية.

في هـذه الحكايـة الخاصـة مـن القـراءة، وفي مثـل هـذه الظـروف، أسـتذكر أن أحـد المسـؤولين لا يحـب أن يراني قارئـاً، فـيظن بـي السـوء، وأنني لا أنجـز مـا عليّ مـن مهـام عمـل، فيختـرع لي مهـامّ جديدة، ليس لشيء إلا ليقطع خلوتي بالكتب، كنت أدرك خططه الملتوية، فكنت إذا ما اقتربت عطلة المدارس حددت جدا علاقتي معه، وصارت أحاديثي معه قليلة جدا ومقتضبة ونافرة، حتى أسبب له نفورا نفسيا مني ليبتعد عن مكتبي، ويتركني وطقوس القراءة، فلا شك في أن تمضي الوقت بالقراءة أفضل من أن تزجيه بالأحاديث التي لا طائل من ورائها ألبتة.

لا أستطيع أن أغلق باب المكتب وأنا أقرأ، فإغلاق الباب يثير الشبهة في العمل، عدا أنه لا يصحّ، فنحن موظفو خدمة عامة، ونتعامل مع جمهور مراجعين، وأحيانا يأتي من يحتاج إليك في مشورة أو مساعدة أو حتى ما يخص مهام عملك، فإغلاق الباب كأنه إحجام عن ممارسة دورك الوظيفي الذي هو دورك الأساسي. لقد فعلتها في حدود ضيقة جدا، وفي حالات نادرة، لكنني منذ أدركت ذلك انقطعت عن هذا الإجراء، ولم أعد إليه، فتركت فرصة القراءة في المكتب للظروف المواتية، وإن لم تأت تلك الفرصة فلا خوف على

الكتب ولا هي تحزن، فثمة وقت طويل أمامي في البيت، سأقرأ بهدوء ودون توتر، لأن أجواء المكتب أحياناً إذا زاحمت الوظيفة غيرها أصبت بتوتر، ولا تنفع القراءة في هذا الجو النفسي، كما أن العمل نفسه لا يتم كما يجب أن يتمّ عليه، والأولوية للعمل بلا أدنى تردّد.

المهمّ في نهاية عملية قراءة كتاب "إبادة الكتب" حصلت ملاحظات ليست من صلب الكتاب إنما ملاحظات تستدعيها الذاكرة، لأن الشيء بالشيء يذكر، ولأن الأفكار تشي بتقيضها أحياناً، فتبرزها، وتجليها، فتذكرت على سبيل المثال قصة كافكا مع صديقه الذي طالبه بأن يحرق كتبه عندما يموت، لكنّه رفض تنفيذ طلبه، فنجت كتب كافكا من محاولة الإبادة.

يستدعي الكتاب بلا شك القراءة بوصفها إجراء متعلقا بالكتب، فيذكرها أكثر من (60) مرّة، لكنّ الحديث متمركز حول الكتب وإبادتها؛ ما يعني حرمان القراء منها، ومن الاستفادة منها، لذلك لفت انتباهي في الكتاب أن السلطات في كمبوديا، وهي ليست من حالات الدراسة إنما تذكرها المؤلفة (روبيكا نوث) خلال الكتاب كحالة داعمة، تخلص (بول بوت) من كل المتعلمين والحضريين، "وهشموا النظارات الطبية، وقتلوا كل من كان بإمكانهم القراءة".

"وعندما تكون عقوبة امتلاك مهارة القراءة هي الموت، تصبح المطبوعات بلا أي قيمة".

هذه الإجراءات الجهنمية تذكر- ولو من بعيد- بالمفارقة التي صنعها الكاتب الأمريكي (O. Henry) في قصته القصيرة (The Gift of the Magi) حيث يتبادل زوجان فقيران هدايا عيد الميلاد، فيحضر الزوج لزوجته مشطا بعد أن باع ساعته، وهي تشتري سلسلة من أجل أن تكون للساعة بعد أن باعت شعرها الطويل، وفي المساء، لم يعد المشط نافعا، ولم تعد السلسلة نافعة أيضا، لقد فقدا قيمتهما معاً. هذا استدعاء أدبي لجنون مهووس كمبودي، يقتل القراء من أجل أن تفقد الكتب قيمتها، فتصبح نوعا من النفايات، وقد صارت فعلا كذلك.

هذا النوع من الكتب الذي يثير الذاكرة وينشطها نادر جدا، لقد ساعدتني أفكار الكتاب على أن أعود إلى أيام مراهقتي وإلى أيام الجامعة وإلى قراءات متشابهة أو ليست متشابهة إلا أنني أشعر كقارئ أن لها صلة بالكتاب أو بفكرة من أفكاره، فهذا الكتاب قدّم لي على وجه الحقيقة معنى تلاقح الأفكار، وأن الكتابة تجرّ الكتابة، وأن الناس يفكرون على نحو متشابه، وليس على نحو واحد، لأنه

"عندما يفكر الجميع بالطريقة نفسها، فلا أحد يفكر على الإطلاق"، كما قالت المؤلفة في هذا الكتاب الثرّ الثريّ الثمين.

لم تكن هذه الكتابة من التداعيات هي كل ما كتبته حول هذا الكتاب، فثمة مقال استطرادي خصصته لأتحدث عن إبادة الكتب في فلسطين وخاصة بعد الحرب الأخيرة (2023- 2025)، وجعلته ما يشبه الفصل العاشر للكتاب، فليس له علاقة مباشرة بالقراءة، لذلك سيكون له أفق آخر من المعنى أضمه إلى مجموعة كتابات أنجزتها عن حرب غزة الأخيرة، لعلها تجد طريقها في كتاب، ليضاف إلى كتبي الثلاثة التي تحدثت فيها عن الحروب في فلسطين: مزاج غزة العاصف، ومساحة شخصية، وفي أعالي المعركة.

كيف تحوّلتُ من المسجد إلى المكتبة؟

لا بدّ من أن أقطع أوّلا انصراف دلالة الاستعارتين الواردتين في هذا العنوان، إذ لا يعني المسجد التديّن، ولا تعني المكتبة العلمانية، كما يفهم من كتاب "إبادة الكتب"، إذ جعلت المؤلفة من المكتبات دليلا على التنوير الذي يعني في ما يعنيه العلمانية التي تقف في مواجهة التخلف و"الجمود العقائدي"، لكنهما- المسجد والمكتبة- استعارتان تشيران إلى تجربتي الشخصية التي ارتبطت بالكتب وبالقراءة والانغماس في هذا العالم، والتنازل عن الذهاب إلى المسجد لصالح الانتماء الخالص لعالم الكتب والمكتبات بشتى أنواعها وعلومها.

لقد أسس النص الديني لشرعية ما لمثل هذا التصرف، عندما قرر النبي ﷺ ذلك في قوله: "جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً"، ولم ترتبط عبادة الصلاة حتما بالمسجد، بل "أينما أدركتك الصلاة فصلِّ"، عدا تفضيل العلم على العبادة، تفضيل زيادة لا تفضيل أصل، وامتداح التدبر في قراءة القرآن الكريم "أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أقفالها". هذه الأقفال التي تصنعها الانشغالات الأخرى بغير العلم، وفعل التدبر هو صلب عملية

القراءة، بمعنى الإدراك العظيم للنص ولما بعد النص، من هنا كانت دعوة النبيّ الكريم لعبد الله بن عباس: "اللهم فقه في الدين، وعلّمه التأويل"، فاستحق بذلك لقب "حَبر الأمة"، ولقب "ترجمان القرآن"، والترجمة ما هي إلا فعل قراءة واعٍ جدا، ومتطور.

ولا يخفى ما للعزلة من أثر كبير في عقلية المعتزل، وصفاء ذهنه، وصواب تفكيره، وانفتاح قريحته، ولا شك في أن اعتزال النبي الكريم قبل البعثة دليل عام على ما لهذا التصرف من أهمية في صنع العقلية المفكرة والنفسية القوية القادرة على حمل الأمانة والمسؤولية، وسار على هذا النهج كثير من المفكرين قبل النبي وبعده، ولعل أهمهم أبو حامد الغزالي الذي أنتجت عزلته كتابه المهم "إحياء علوم الدين"، والفيلسوف الألماني نيتشه الذي كان لعزلته أكبر الأثر في فلسفته وتأليف العديد من الكتب.

كما أن سيرة حياة غوستاف فلوبير تشير إلى أنه بعد انقطاع علاقته بلويز كوليه حجب نفسه واعتزل، واضعا نفسه في برج عاجي، معتبرا ذلك من أهم ما ينفع الأديب، قراءة وكتابة، وتجويد أسلوب، وغير هذا وذاك، فإن من يتتبع اعتزال الكتّاب من أجل التدبر كثير ولا يكاد ينقطع في عصر من العصور أو بيئة من البيئات، فقد كانت

حياة الرهبان في أديرة التبت- كما يُفهم من حديث روبيكا نوث في كتاب "إبادة الكتب"- تقترب من الانقطاع في الدير لتنمية الناحية الروحية حتى صار العلماء الرهبان مستودعات العقيدة، وكانوا قادرين على استعادة أي نص أو مقتَبس من الذاكرة "، فإيمانهم بهذا السبيل، أنتج منهم هذه الكيفية من الرهبان العارفين.

وفي هذا السياق أستذكر واحدة من حلقات مسلسل مرايا للفنان ياسر العظمة، حيث يراهن أسعد المليونير صديقه يحيى، على أن يسجنه (15) عاماً مقابل (250) مليون ليرة سورية، ولكنه قبل انتهاء المدة المحددة بنصف ساعة، خرج يحيى من سجنه مختاراً، تاركا لصديقه رسالة يبين فيها أهمية هذه التجربة.

وتكمن أهمية هذه التجربة في أنها يمكن أن تؤخذ مضامينها على أهمية القراءة في المعتزل، كما أنها تساعد الباحث على فهم عوالم الأسرى الذين يقضون الوقت في القراءة والتأليف، مع فارق غير أساسي، وهو أن سجن يحيى كان اختياريا في حين أن هؤلاء الأسرى، يقبعون خلف القضبان مجبرين، لكنّ النتيجة واحدة وهي ما سطّره يحيى في رسالته الآتية:

صديقي المليونير أسعد؛ لم يكن هدفي عندما استضفتني في سجنك إلا النيل منك، ومن ثروتك، والحصول على هذا المبلغ الضخم الذي اتفقنا أن تدفعه لي عند انقضاء (15) عاما، وصبرت في سبيل تحقيق ذلك أعواما طوالا، ولكنني- وقبل انقضاء الوقت كله بنصف ساعة- قررت الانعتاق من سجني والانطلاق إلى الحياة، فقيرا معدما، لا أملك من حطام الدنيا قشة واحدة، ولا نصير لي فيها ولا معين، إلا أنني خلال سجني لم أجد لي مؤنسا إلا الكتاب، فأقبلت ألتهم الكتب التهاما؛ وكأنها غذائي وكسائي، طعامي وشرابي.

حلقت في قراءتي في غياهب الكون، ومجاهل الطبيعة، وفي مختلف الأمصار والأصقاع، قرأت التاريخ والجغرافيا والفلسفة والطب والعلوم الإنسانية، تبحّرت في التاريخ؛ قديمه وحديثه، وعجبت من مصائر الدول، ومن سطوة الحكام، وأكبرت بطولة الشعوب، استغرقتني كتب الجغرافيا، فإذا بي أطوّف حول العالم، وأصعد الجبال، وأهبط الوديان، وأتامل صنع الله، وأنا قابع في مكاني.

تعلمت سبع لغات أجنبية حية، وقرأت بواسطتها معظم التآليف الأجنبية، واطلعت على الآداب الإنسانية والعلوم الكونية، والروايات الأدبيه والفنون العالمية، تعرفت على إبداعات العقل

البشري. أحببت، كرهت، سافرت، حلمت، عشت الحياه بكل تفاصيلها، وما شعرت يوما أنني مسجون أسير، بل حر طليق أتجول كيف أشاء، وأطير في أي سماء.

قرأت ما أنتجه العقل البشري، قرأت تاريخ الأديان، وعرفت الإله؛ توحّدت معه، وسبّحت بحمده، وصرت قريباً منه أكثر. أنا لم أخسر، أنا الرابح بكل تأكيد، لم تعد تهمني ثروتك، وزاد احتقاري للمال؛ إذ هو الغاية، إنني أرثي لك أيها العابدُ ماله، وأشكرك؛ لأنك كنت سبباً في حصولي على كنوز المعرفة. وداعاً، ولْيهنأ كل بفوزه.

كل هذه التجارب يجمعها شيء واحد وهو العزلة، وقضاء الوقت في القراءة والتأمل والتدبر، وهذا ما حدث معي أولاً حيث اخترت وأنا طالب جامعي المكوث في المكتبة ساعات الفراغ كلها على المكوث في المسجد، لأقرأ كثيرا من الكتب، وأتعرّف على الفن التشكيلي، ومدارسه، ولم أكتف بذلك بل كنت شغوفا باستعارة الكتب، وتابعت بعد ذلك هذه الإستراتيجية عندما قررت اعتزال الحياة الاجتماعية لأنقطع في محراب بيتي؛ غرفتي الخاصة وكتبي لأقرأ وأؤلف الكتب، بعد أن قررت انقطاع علاقتي العاطفية، وقد ساعدتني هذه الإستراتيجية على الشفاء من وهم القلب الذي

جعلني أهوج، هواءً، والتحرر من ثقل النساء اللواتي استنزفنني زمنا طويلا، لأكتفي بصوفي رفيقة روحية، تساندني وأساندها دون أن نلتقي أو حتى أن نتحدّث إلا نادرا جداً، وعلى فترات متباعدة لمدة قصيرة.

لم أشأ الخروج من هذا المعتزل، إذ إنني أحب البقاء في المنزل، ولا أخرج منه إلا مكرها للعمل فقط، على ما يكلفني هذا من ضريبة اجتماعية إلا أنني راضٍ عن كل النتائج التي توصلت إليها؛ نتيجة هذا القرار الذي جعلني أكثر انفتاحا على نفسي وعلى عوالم الكتب التي ليس لها حدّ، ولا ينبغي أن يكون لها حدّ.

كتاب "رسائل من سُرَّة الأرض" تحرير نجوان درويش

لا أقول صدفة، فأنا لا أحبّ موضوع الصدف، ولا أومن فيه، لكنّ شيئاً ما قادني إلى هذا الكتاب، وأنا أتصفّح أحد أعداد جريدة أخبار الأدب المصريّة (عدد الأحد، 2025/10/26)، ثمّة نصّ منشور على الصفحة الأخيرة لـ "نجوان درويش"، بعنوان "بطاقة هُوِيّة"، لوهلةٍ التبس عليّ الأمر فبطاقة هُوِيّة اسم قصيدة لمحمود درويش، وهي المشهورة بـ "سجّل أنا عربي"، هل ثمّة خطأ ما في اسم النصّ أو اسم الناصّ؟ لا يُعقل أن يقع المحرّرون بمثل ذلك.

أعرف نجوان بالاسم فقط؛ صحفيّاً، مسؤولاً عن "العربي الجديد" (سابقاً)، وكنت راسلت الصحيفة عن طريق إيميله، لكنّه لم يكن ليردّ على تلك الرسائل نهائيّاً، ولا لينشر شيئاً من تلك الموادّ التي أرسلها للموقع عن طريق هذا الإيميل، "لا شكّ في أنّ هذا الإيميل معطّل"، هكذا كنت أقول في نفسي، وإلّا لن يكون "نجوان" بهذا السوء حتّى يتجاهل عشرات الرسائل!

ومن الطريف أنّني لم أعرف أنّ الاسم لشخص مذكّر إلّا بعد فترة، فارتبط اسمه عندي بالمذيعة الجميلة في قناة الجزيرة "نجوان

سمري"، وزميلة جامعيّة تحمل هذا الاسم أيضاً، جميلة جمالاً لافتاً، وخاصّة شعرها الأسود الطويل المسترسل على متنها المكتنز، أعرف ذلك منها أيّام الدراسة الجامعيّة الأولى قبل أكثر من ثلاثين سنة، امرأة بيضاء، لحمها طريّ، كالحليب! هذه ليست أوّل مرّة يحدث هذا الالتباس الذكوري الأنثوي؛ فحدث مع أسماء أخرى، أذكر منها رجاء النقّاش ومنار مخُّول، ويا للمفارقات اللئيمة أنّ هذه الأسماء كلّها لأشخاص ذكور.

لم أكن أعلم أنّ نجوان شاعر، بحثت قليلاً، فعرفت كثيراً عنه، وعرفت أسماء كتبه، ومن بين تلك المجموعة شدّني ديوان "**قصيدة فبركة**"، بحثت عن نسخة إلكترونيّة من الديوان فلم أجد، وشدّني أيضاً هذا الكتاب "**رسائل من سُرَّة الأرض**"، ومن حسن الحظّ أنّه متوفّر بنسخة إلكترونيّة، وفيه وجدتُ "**قصيدة فبركة**"، فَرِحت بالكتاب من أجل عنوانه، وستدركون السبب في ثنايا هذه القصّة.

الكتاب صغير الحجم؛ إذ لا تتجاوز صفحاته التي على المرء أن يقرأها، التسعين صفحة. كتابٌ مكوّن من مجموعة موادّ نثريّة وشعريّة، مقالات، ورسائل، حول فلسطين، شارك في كتابتها نخبة من الكتّاب، فلسطينيّون وعرب، وثمّة موادّ مترجمة لكتّاب غير

عرب، كتاب بهذا الحجم وبهذه الكيفيّة مناسب جدّاً للقراءة عن (اللابتوب) أو الهاتف النقّال.

أحبّ هذا النوع من الكتب لجملة من الأسباب، أوّلاً لصغر الحجم، فهي تشجّع المرء على القراءة، وخصوصاً بعد فترة رقود والابتعاد عن القراءة، بفعل العمل، والمرض، والانشغالات العائليّة، وحضور موسم الزيتون؛ فالزيتون طقوسه متعبة، وخاصّة لشخص مثلي، لكنّني لا أستطيع إلّا أن أشارك العائلة في هذا الموسم، لأنّني أراه- بصلةٍ غير مفهومة- يشبه طقوس رمضان، ربّما لطابعه العائلي والاجتماعي العامّ، ومشاركة الصغير والكبير فيه، وكذلك حضر الزيتون في كتاب "**رسائل من سُرَّة الأرض**"، لكنّني لا أظنّ أنّ التسمية نابعة من الزيتون السُّرّي أو "الصّرّي". على أيّة حال سأؤجل موضوع التسمية إلى آخر هذه الكتابة. هذا النوع من الكتب إذاً مغرٍ بالقراءة في أجواء متعبة كهذه.

وثاني هذه الأسباب أنّ تعدّد الكتّاب في كتاب واحد يجعلني أكثر شجاعة لأرى كلّ من كتبوا، بحيث لا أمكث مع أحدهم سوى رحلة قراءة لا تمتدّ إلّا ربع ساعة على الأكثر، هنا الكتّاب يجدّدون نشاطي، أشعر بالإنجاز، فأجمع قدرتي لأرى الآخر والذي يليه،

وهكذا حتّى أنتهي، ويتّصل بتنوّع الكتّاب سبب ثالث متّصل بتنوّع المادّة ما بين شعريّة ونثريّة، والنثريّة الموزّعة بين فنون متعدّدة، يوميّات، ورسائل، ومقالات، وشهادات، ومحاضرات، وتنوّع الأساليب والأمزجة الثقافيّة، هذا كلّه يكسر روتين القراءة التي تأخذ طابعاً واحداً كالرواية أو الكتاب البحثي.

وأمّا رابع هذه الأسباب فيعود إلى ما أعمل عليه من كتاب "**الوقوع في اللهب- فصول من المحاكمات الجائرة**"، وفيه مادّة تبحث في السّرّة من الجسم الأنثوي، وتتبّعت ورود هذه اللفظة في الشعر قديماً وحديثاً، وفي الرواية، ليأتي هذا الكتاب ليضيف بعداً آخر أكثر مجازيّة وشعريّة على لفظ السُّرَّة، ليغدو لها معنى يتجاوز معناها المعجمي العربي. ذكّرتني هذه التقنية من العنوان بعنوان كتاب "**نهد الأرض**" للفيلسوف الفلسطيني الصديق د. أحمد نسيم البرقاوي، فثمّة شبه كبير بين العنوانين في الصياغة "**سرة الأرض/ نهد الأرض**"، وفي نقل الدلالة من الحسّي المباشر إلى المعنى المجازي، واتّكاء الكاتبين على الجسد البشري في هذه الاستعارة، وبهذا تستطيع اللغة بقوانينها العبقريّة أن تثوّر الألفاظ، وتحقنها بالمعاني البلاغيّة، وخصّصت لهذا الكتاب "**رسائل من سرة الأرض**" فقرة في

كتاب "**الوقوع في اللهب- فصول من المحاكمات الجائرة**"، تدور حول هذه النقلة الدلاليّة في ما يتّفق ومعناها المجتلب من اللغة الإنجليزيّة التي تعني "المركز" في ما تعنيه من المعاني، هذا المعنى المفقود في المعجم العربي للفظ "السّرّة".

أمّا الأسباب الموضوعيّة- نسبة إلى الموضوع- التي جعلتني أقرأ الكتاب في جلسة واحدة أنّ فيه ذلك الحديث الشجيّ عن فلسطين وعذاباتها الإنسانيّة لأشخاص من غزّة، ومن القدس، ومن الشتات، ومن المتضامنين العرب وغير العرب، كل منهم كتب وجهاً من وجوه التعب الفلسطيني، من الهمّ الشخصي؛ حيث نجوان وصديقه الغزّيّ المريض بالسرطان، وحتى الهمّ السياسي العامّ المتمثّل في حديث كمال بُلّاطة عن الفنّ التشكيلي وعن القدس، وحديث نجوان عن أوسلو، المدينة والاتفاقية، وما بينهما من تضادّ مرَضي كبير. أعجبتني هذه المادّة، وخاصّة ما أشار إليه نجوان أنّ ثمّة ملاحق سرّيّة للاتّفاق تمّ التخلص منها، وقال: "*إنّ تيري رود لارسن وزوجته أخفيا الملفّات الخاصّة بالاتّفاقية بعد انتهاء عمل تيري في وزارة الخارجيّة النرويجيّة، بطريقة تذكّر بـ"تضييع" ملفّات الصفقات المشبوهة*". كما أنّ نجوان تحدّث عن المثقّف المدجّن في

"منظمة التحرير الفلسطينيّة" ثمّ في مؤسّسات أوسلو، متحدّثاً عن ذلك الدور المشبوه لهؤلاء المنتفعين الواقفين ضدّ كلّ شخص يعارض أوسلو أو ينتقد تلك الاتّفاقيّة المشؤومة، هذا النوع من المثقّفين، هم مثقّفو أوسلو؛ مروّجي الخراب النفسي لدى عامّة القراء، وأنتجوا أدباً مخصيّاً بطبيعة الحال، وكثيراً ما تحدّثت عنهم في مقالاتي وكتبي، لا سيّما في كتاب "**استعادة غسّان كنفاني**"، وكتاب "**بلاغة الصنعة الشعرية**"، ولمزيد من بحثها ألّفت كتابين ما زالا مخطوطين، الأوّل "**الواقع الثقافي في فلسطين**"، والآخر "**المثقّف في صورة نبي**".

لفتني جدّاً حديث بُلّاطة في إحدى شهادتيه الفنّيّتين عن المربّع والدائرة، وأعادني هذا إلى ما كتبه إبراهيم نصر الله في روايته الطريفة "**مأساة كاتب القصّة**" حول المربّع والدائرة، والعلاقة بينهما، لعلّ حديث بُلّاطة عن هذين الشكلين الهندسيّيْن يجعل الناقد يفهم بشكل أعمق الرواية ومسألة التربيع والتدوير فيها، ويلخّصها بُلّاطة بقوله: "*لم يطل الوقت حتّى تعلّمت أنّ المربّع والدائرة كانا، منذ أقدم العصور، مشحونين بالدلالات الرمزيّة والفلسفيّة في أغلب الأحيان، كان شكل المربّع بمحاوره الأربعة التي*

أشارت إلى الجهات الأربع للمكان هو الذي يرمز إلى دنيا الأرض، فيما كان شكل الدائرة يمثّل الكرة السماويّة. وكثيراً ما وصف دوران المربّع داخل الدائرة بكونه تربيع الدائرة. وفي ذلك يكون محيط المربّع متساوياً عمليّاً مع محيط الدائرة. وخلال الرسم الهندسي الذي التقى فيه المربّع بالدائرة، بدا محيط الشكل النهائي قادراً على التعبير عن أبعاد اللانهائي، وهكذا...".

هذا الأمر في تجلّيه المعنوي العميق، يؤكّد مرّة أخرى أنّ الروائي إبراهيم نصر الله- وأيّ روائي آخر- هو "رسّام، بفنّه ماهر" على رأي ديانا حداد، ليحوز لقب "روائي شاطر"! وعليه فإنّ نصر الله يعرف تلك العلاقة الهندسيّة بين الشكلين الهندسيّيْن؛ المربّع والدائرة، فاستفاد ممّا فيهما من دلالات فلسفيّة لينقل المفهوم من الهندسة والفنّ التشكيلي إلى السرد الروائي، فلا يمكن أن يوظّفهما في رواية كهذه دون أن يكون مستنداً إلى معلومات علميّة مؤكّدة. ولكن...

هل يمكن أن يكون نصر الله قد اطّلع على شهادة كمال بُلّاطة قبل أن تنشر في هذا الكتاب، أو لعلّه قرأها فيه، عدا أنّ هذه الشهادة مطبوعة في الأصل في كتيّب عن معرض فنّي لبُلّاطة يحمل اسم "**سُرَّة الأرض**"؟ من المحتمل جدّاً؛ فكتاب نجوان من مواليد

عام 2011، ورواية نصر الله ولدت بعد هذا الكتاب بعشر سنوات (2021)، وعلى أيّة حال فإنّ هذا إن حصل فليس عيباً أو منقصة، بل إنّه فعل ممدوح، وله دلالته المهمّة؛ فالكتابة تجرّ الكتابة، كما أنّ القراءة تجر قراءات غيرها، وهكذا كلّ فعل ثقافي؛ فإنّه مؤهّل في ذاته ليشكّل من ذاته انقسامات ثقافيّة، مكوّناً "سلاسل" ثقافيّة تتطور ذاتيّاً أو بفعل غيرها من الأعمال حسب قوانين التلاقح الفكري، فلا شيء يولد هكذا من العدم، وإلّا من أين ولد مفهوم التناصّ، والتلاصّ، ومفهوم الأدب المقارن، وغيرها من المفاهيم النقديّة التي تربط الأعمال الأدبيّة بعضها ببعض وتكشف عن العلاقات المختلفة بينها وبين كتّابها؟

والآن، هل يحقّ لي أن أسأل من أين جاء اسم الكتاب "**رسائل من سُرَّة الأرض**"؟ بعيداً عن تلك الرسالة المنشورة في الكتاب، فإنّ كلّ مادّة من موادّه هي رسالة نابعة من "**سُرَّة الأرض**" فلسطين، إن كانت "الأرض" ذات مدلول كونيٍّ عامّ؛ الكرة الأرضيّة، أو العالم. أو نابعة من القدس إن كانت "الأرض" ذات مفهوم خاصّ، لتعني فلسطين، وكأنّ فلسطين سُرَّة العالم، وسُرَّة السُّرَّة هي القدس، ولكنْ، هل تحتمل السُّرّة أن تتضمّن سرّة أخرى؟ نعم في هذه

الحالة من العموم والخصوص، وفي الحالة اللغويّة من المجاز، ونقل الدلالة.

ومهما يكن من أمر، فلم يضع الوقت سدىً وأنا أقرأ، فالكتاب مهمّ، وجدير بالقراءة، وثمّة مفاجآت معرفيّة فيه، تغذّي عقل القارئ، إضافة إلى أنّها تعزّز فيه الاتّجاه المقاوم ضدّ الخراب والعدميّة والعبث و"ثقافة الاستسلام" الأوسلويّة، وفي هذا تغذية لإحساسه المرهف ضدّ ضياع فلسطين أو ما قد تبقّى منها على الأقلّ في الأدب، شعره ونثره، وفي الفنّ التشكيلي.

من ارتدادات عدم الفهم إلى احترام وجهات النظر

تتعرّض أفكار الكتّاب أحياناً إلى سوء الفهم، وهذه مشكلة ذات صلة بمقدرة الشخص على إدراك المعاني وتوجيهها. تُعرف وتدرّس وتُلاحظ تحت مفهوم "مهارات فهم المقروء"، وهذه الظاهرة سلبيّة وإيجابيّة؛ لأنّ النصوص الأدبيّة تُبنى على قاعدة من تعدّد الأفهام، لا إغلاق النصّ على فهم أحادي، لكنّ ما هو سلبيّ منها يُدرج أحياناً تحت سوء التفسير للنصّ، ولَيّ عنقه ليقول ما لا قدرة للنصّ على أن يقوله، بمعنى آخر: التنطّع في الفهم والتعسّف فيه.

إجمالاً للناس ظروف شتّى ليفهوا النصّ على ما يريدون، وكيف ما يريدون، وهذا من حقّهم دائماً وأبداً. أمّا ما ليس من حقّهم هو العبث بالنصّ وتغيير ألفاظه لدواعي عديدة، منها الفهم القاصر نتيجة الجهل وعدم المعرفة، أو نتيجة عدم القدرة على القراءة السليمة، وهذان ما سأتحدّث عنهما في هذه الكتابة.

في مقال كتبتُه حول كتاب "رسائل من سرّة الأرض" وجعلته تحت عنوان رئيسي "قصّة قراءةٍ"، يخطّئني أحدهم في تعليق على أحد المواقع، كاتباً: "طيّب صلّح اللغة"، ولم يكتب شيئاً آخر، ولم يوضّح مقصوده، أو أين قد أخطأت ممّا دفعني للبحث عن هذا الشخص والتواصل معه، وكتبت له رسالة مستفسراً عن أخطائي

المحتملة، حتّى يمكنني أن أصحّحها، وإذ به يعتبرني قد أخطأت في لفظ السرّة، فهي من وجهة نظره يجب أن تكون بالصاد "صرّة" وليس بالسين "سرّة"، وشرح معلّلاً: "الصرّة هي مركز الأرض زي صرّة الإنسان"، عندها ضحكتُ، وتنفّستُ بعمق، وعلمتُ أنَّ محدّثي جاهل باللغة، ولم يكلّف نفسه عناء النظر إلى صورة غلاف الكتاب المصاحبة للنصّ "رسائل من سرّة الأرض"، فأرشدته إلى أنّ عنوان الكتاب بالسين وليس بالصاد على افتراض أنّني قد أخطأت، وأمّا الثانية فقد دعوته إلى مراجعة المعجم، فالكلمة بالسين وليس بالصاد، وشرحت له معنى "الصرّة" واختلافها عن السرّة، واقتبست له من أحد المعاجم هذا السطر: "(وَفِي الْبَطن) السُّرَّة فَأَمّا السرو فَهُوَ الَّذِي تقطعه الْقَابِلَة، وَالَّذِي يبْقى فِي الْبَطن فَهُوَ السُّرَّة"، اكتفى بشكري وتأسّف على إزعاجي، وأبقى تعليقه قائماً، لم يحذفه، يشهد على أخطائي المبهمة، وليس على جهله المطبق، ويبدو أنّه ينطبق عليه المثل الفلسطيني الشعبي "عنزة ولو طارت"!

ذكّرني هذا الموقف بما كنتُ قرأته وكتبت عنه؛ ورود لفظ "السرّة" في رواية د. عزمي بشارة "حبّ في منطقة الظلّ" الذي أصرّ على أن يكتبها بالصاد وليس بالسين، وقد أشرت لذلك في كتابي "**الإنقاص البلاغي- المفهوم والتطبيق**". على ما يبدو فإنّ هذا

المعنوز- أيْ صاحب العنزة الطائرة- من "جماعة عزمي بشارة" في تفخيم صاد سرّة الجسم لا ترقيقها، وويل لنا نحن الكتّاب من قارئ جاهل مثل هذا!

وأمّا الأمر الآخر فهو المتّصل بالعنوان العامّ "قصّةُ قراءةٍ"، فقد لاحظت أنّ أحد المواقع الإلكترونيّة التي نشرت المقال غيّرت العنوان وجعلته "قراءة في قصّة"، على الرغم من أنّ كتاب "رسائل من سرّة الأرض" ليس قصّة، ولم يكلّف محرّر الموقع- الذي اتّخذ قراراً بتشويه المقال وفكرته الكليّة- عناء قراءة المقال كاملاً ليكتشف أنّ الكتاب ليس قصّة، وليس المقال قراءة نقديّة لهذه القصّة المزعومة. إنّه على أيّة حال، وإنْ أحسنتُ النيّة معه، لم يستطع أن يفهم المقصود بـ "قصّة قراءة" أو قراءتها بالشكل الصحيح، فظنّ أنّني قد وقعت في خطأ، فعدّل، فزلّت "به إلى الحضيض قدمه"، أراد أن يصحّح ما ظنّه خطأ فوقع في الخطأ الجسيم. إنّه يدفعني إلى التمثل بالمثل الفلسطيني "إجا يكحلها عمى عيونها".

لقد تواصلت مع الموقع أيضاً، وأعلمتهم بهذه الكارثة "من الفهم السقيم"، وأرسلت لهم هذه الرسالة: "شكراً لكم على نشر الموضوع، لكنّه ليس قراءة في قصّة، وإنّما هذه المادّة جزء من

مشـروع كبيـر أشـرح فيـه قصصي مـع قـراءة الكتـب تحـت عنـوان "قصّـة قـراءة". أرجـو تعـديل الأمـر. فأنـا لـم أخطـئ في العنـوان لتصحّحوه، وشكراً لجهودكم".

لم تثمر هذه الجهود، ولم يصحّحوا ما وقعوا فيه من خطأ، وهنا أستذكر بكلّ محبّة وامتنان مسؤول موقع "العرب اليوم" الذي ظنّ أنّ مؤلّـف الكتـاب كاتبـة وليس كاتبـاً، فأضـاف تـاء التأنيـث ليصـبح "للكاتبـة نجـوان درويـش"، فتواصـلت مـع المسـؤول فاسـتجاب مـن فـوره، لكنّني أعتب عليه؛ إذ لـو قرأ المقال قبل نشره لعلم أنّه كاتب وليس كاتبة، فقد تحدّثت عن التباس الاسم خلال المقال، وهذا الالتباس هو ما دعا موقع "ميدل إيست" إلى تعديل عنوان المقال إلى "رسائل من سُرَّة الأرض: من التباس الاسم إلى عمق المعنى"، وقد أعجبني جـدّاً هـذا العنـوان اللافـت، مـع أنّهـم حـذفوا العنـوان التأسيسـي "قصّـة قـراءة"، فحذفـه أهـون مـن العبـث بـه، ويندرج ضمن صلاحيّات التحرير التي لا تغضبني، بل إنّ هذا أمر جيّد، لا سيّما إن جاء التعديل خادماً للمقال، وكاشفاً عن شيء من أفكاره.

على أيّة حال، هذه الارتدادات من سوء الفهم، مظهر من مظاهر الكتابة، ويا ليت أنّهم عندما يقرّرون التغيير يتواصلون مع الكاتب، كما يفعل رئيس تحرير مجلّة عود النـدّ؛ صديقي الدكتور عدلي

الهوّاري الذي إنْ شكّ في معلومة ما أو أراد أن يغيّر لعدم قناعته فإنّه يتواصل معي، ونتحاور؛ فإمّا أن أقتنع، أو فإنّه يترك الأمر لي لأتحمّل مسؤوليّة قراري في إبقاء المقال على ما هو عليه، وإليكم هذه الرسالة التي يستفسر فيها الدكتور عن نهاية مقال "سلوكات لا تنتج باحثاً جيّداً" (عود الند: العدد الفصلي 34: خريف 2024):

"شكراً على تواصلك مع مجلّة "عود الندّ" الثقافيّة. ألقيت نظرة على موضوعك، وهو طبعاً مقبول للنشر في العدد القادم. لفت نظري اختتام المقالة بإشارة إلى آلان دونو. بالشكل التي هي عليه، تفترض أنّه معروف، وأنّ الجميع يعرف محتوى ما قاله عن نظام التفاهة. الإشارة العابرة إليه لا تعزّز حجّتك المترابطة في المقالة، لذا من الممكن ختم المقالة دون السطر الذي أشرت فيه إليه. إذا كان حذف السطر يجعل الخاتمة مبتورة في رأيك يمكنك إضافة سطر أو سطور. أمّا البديل الثالث، فهو أن تذكر آلان دونو في مكان ما في المقالة مع إشارة موجزة إلى نظام التفاهة وما قاله عن الجامعات. عندئذٍ عندما تختم بالإشارة إليه مرّة ثانية يكون الأمر منطقيّاً ومرتبطاً بما سبقه. أيّ من البدائل الثلاثة مقبول. الأمر يرجع لك".

شرحت للدكتور عدلي وجهت نظري بالقول: "يغلب على ظنّي أنّ الربط مع "نظام التفاهة" ضروري، ولو بهذه الإشارة العابرة، فهو

[آلان دونو] تحدّث عن شيء مختلف في الحياة الأكاديميّة ليس موجوداً عندنا، فأردت أن يكون المقال وجهاً آخر من وجوه التفاهة، مضافاً لما في كتاب "نظام التفاهة". وبهذه الحالة، الإشارة كافية، فأنا تحدّثت عن شيء مختلف. هذا التوضيح، ويبقى الأمر لحضرتكم، فإنْ لم يكن التوضيح مقنعاً، فلكم حقّ التصرّف، فكلّي ثقة بكم وبوجهة نظركم".

بقي الأمر على ما هو عليه، ولم أقم بأيّة تعديلات، ولم يُجر رئيس التحرير أيّة تعديلات، واكتفى بإقرار وجهة نظري برسالة مختصرة يقول فيها "لا بأس" تاركاً الأمر لي لتحمّل مسؤوليّته، وأغلب الظنّ أنّه لم يقتنع بوجهة نظري، فدعم المقال بمادّة مستقلّة من كتاب "نظام التفاهة" نشرها في العدد نفسه، ترتبط بموضوع المقال، وفيها تلك "الإشارة الموجزة إلى نظام التفاهة وما قاله عن الجامعات"، وبذلك يكون قد سدّ الفجوة المعرفيّة التي لاحظها في مقالتي، وهذا أمر جيّد بلا أدنى شكّ، ويدلّ على رئيس تحرير منتبه، ويحترم آراء الكتّاب ووجهات نظرهم، حتّى وإنْ خالفت قناعاته، لكنّه في الوقت ذاته لا يتنازل عن وجهة نظره ومسؤولياته أمام القرّاء والباحثين، لتكون المجلّة موضع ثقة لكلّ

من طلب معلومة موثّقة ومقدّمة على وجهها الصائب، بل الأصوب والأدقّ.

عليكم أن تتخلّصوا من (كان) أيّها الروائيون

عادة ما أبدأ يوم السبت صباحاً بقراءة كتاب جديد؛ أي أنه صدر حديثاً، وأقضي اليوم كاملاً معه، فلا شيء يقطعني عن القراءة، أعتزل كل شيء وأقرأ، وأسجل ملاحظاتي. السبت يوم طويل، والوقت فيه مبارك، لذلك أنجز فيه الكثير، وهو بذلك مناسب جدا لقراءة الكتب التي أحتاج في قراءتها ساعات متصلة، وها أنا أبدأه بقراءة رواية، فألاحظ ذلك الكم الهائل من استخدام الفعل الحكائي السردي (كان).

هذا الفعل معضلة كثير من الساردين على أية حال، يفتتح الروائي روايته بالفعل (كانت)، ويتكرر استخدام هذا الفعل في الفقرة الواحدة عدة مرات. قرأت منها (10) صفحات، فقررت التوقف عن القراءة، لأتتبع حاسوبيا ورود هذا الفعل بكل صوره في الرواية، فكانت النتيجة على النحو الآتي:

لقد استخدم السارد الفعل كان (2072) مرة، وتكن (199) ويكن (207) والفعل المسند إلى تاء المتكلم أو المخاطب أو المخاطبة (كنتُ/ كنتَ/ كنتِ) (123) مرة. ليصل مجموع ورود هذا الفعل في

الرواية (2601) مرة. إن هذا العدد هائل جدا بحجم مقالة كبيرة، مهما كان حجم الرواية وعدد صفحاتها.

لا ينتبه الكتاب لمثل هذا إذا لم يكونوا من ذوي الحساسيات اللغوية، قرأت سابقاً حديث أحد الروائيين عن تعلق السرد الروائي والروائيين بالفعل كان، واتسم حديثه عن (كان) بالسلبية المفرطة إلى درجة أنه سيرمي بالرواية بعيدا، وربما شتم الكاتب والنص على سوء هذا الفعل.

من أين تأتي هذه المشكلة؟ أو لماذا يقع الكتاب في هذا الفخ؟ فهذا الفعل مختص بالحكاية الشعبية التي أصبحت العبارة الشائعة دليلا عليها "كان يا ما كان في قديم الزمان". من هنا تبدأ هذه المعضلة؛ من السرد عن قديم الزمان، ولذلك تجد الفعل كان مرتبطا بالأزل "الله كان ولم يكن أحد قبله"، ومن هذا الفعل وجد الكون، والكينونة، والتكوين، ولهذا الفعل حضور في الفلسفة الوجودية (كن أو لا تكون)، وفي النحو العربي (كان وأخواتها)، وها هو في السرد الروائي، كما هو في سرد الحكايات.

هل يمكن للكتّاب أن يريحوا القراء من هذا الفعل؟ أحيانا يوظف هذا الفعل كأنه فعل مساعد، على الرغم من أنه لا يوجد في الأسلوب العربي الرصين تقنية الأفعال المساعدة، وعندما تستخدم (كان) يجب أن تكون ضرورية للمعنى لأنها فعل ذات معنى في ذاتها، سواء أكان المعنى مجازيا أم حقيقيا، ولا تستخدم فعلا مساعدا للتوصل إلى فعل آخر.

يستخدم السمتُ العامي للغة هذا الأسلوب، فالعامية ملآى بالأفعال المساعدة ومنها (كان)، إذاً من هنا تتسلل إلى الرواية، لأن الروائي- باستخدام ساردة- يقص حكاية ماضية بلغة سردية واقعية فلا يرى في عقله الباطن ولا في استعداده اللغوي سوى الفعل (كان) فيجره إليه، ولأن الكاتب يكون قد انغمس في فكرته ويتابع أحداثه الماضية بشغف دون أن يركّز على جمالية اللغة وشفافيتها وتقشّفها السردي، فتتكثف (كان) تلقائيا في النص دون أن يشعر، فنحن جميعا معبؤون بالسرد والحكايات الماضية لذلك أغلب كلامنا مع غيرنا ومع أنفسنا يسيطر عليه هذا الفعل، ونفتتح به أحاديثنا، وتتخلله دون أن نعي، وربما استخدمناه يومياً مئات المرات دون أن ننتبه لذلك، ولو حاول أحد الدارسين تتبع الكلام

العامي ورصد حضور (كان) فيه، فسيرى أن بعض الكتاب على حق في نفورهم من (كان)، لأن الكتاب يكتبون أدباً، لا يعيدون كتابة حوارات الناس العابرة، ولا أظن أن رولان بارت قصد هذا الفعل عندما تحدث عن الفعل الماضي البسيط (Passé Simple) على الرغم من أن (كان) فعل ماضٍ بسيط، ويحقق أحيانا وظائف السرد التي يذكرها بارت.

هذه التجربة من القراءة ذكرتني ونحن تلاميذ صغار في المدرسة، ويكلفنا المعلم بكتابة موضوع تعبير، أرى نفسي أخط (كان) أول كلمة في أول السطر، تعبت من ذلك وأنا معلم، أظل أقول للطلاب ابتعدوا عن (كان)، ابدأوا مباشرة بجملة أخرى، عقلية، وصفية، خيالية، أو ابدأوا بفعل أمر، كما بدأ القرآن الكريم أول وحيه، اجعلوا الفعل مباشرة دون أن تسحبكم (كان) إلى مستنقعها، إنكم ستظلون هناك لو استخدمتموها، ولن تخرجوا من وحلها إن سيطرت عليكم هذه الكلمة الناقصة!

على الكاتب أن يعيد قراءة ما كتب؛ كأنه قارئ جديد للنص، ويبحث عن (كان) ليتخلص منها ويسلها من جذورها النصية، حتى لو اضطر إلى تغيير التراكيب والجمل فليفعل، ولا يترك (كان) تعكر

صفو السرد وروائيته، ويميز ما بين الضروري منها، أو أنها فعل مساعد، أو أنها فعل سرد يعيد القراء إلى طزاجة السرد البدائيّ كما هو في الحكايات الشعبية، ويفتش عن معناها في الجملة، ويستبدل بها غيرها من الأفعال المباشرة، وليُفعّل قانون "الإنقاص البلاغي" لمصلحة النص وسلاسته السرديّة.

ثمة نصائح كثيرة نافعة للتخلص من كان السردية. لا أريد أن أعيد كتابتها، فهي موجودة لمن أراد أن يطور أسلوبه، فأنا هنا لا أكتب لأعلّم الكتاب الكتابة وصنعتها إنما أكتب لأنني قارئ وقعت في فخ (كان) السردية، فامتعضت ورأيت الرواية تلك ليست أكثر من حكاية شعبية لا تمسك الكاتب بتلافيف روحه لتغرسه في بنية السرد. إن تلك البداية التي تبدأ بكان أو كانت أو كنت هي بداية تعيسة بلا شك، إن حضور كان السردي في أسلوب الكاتب ليس عيبا سردياً، وليس أيضاً من طبيعة أسلوب السرد، أو سمة من سمات أسلوب الكاتب، إنه انحراف عن الجادة الروائية التي تحول دون أن ترفع "الحكاية" العادية إلى مصاف الفكر والفلسفة والعمق التحليلي، فتأتي (كان) لتوقف تحقّق كل تلك الأهداف.

ومن معين التجربة الخاصة فعلتُ ما يجب فعله مع (كان)، حيث تخلصت من سيطرتها في نص كتبته عن "بابور الكاز"، كتبتُ سردا عن الماضي البعيد، ولـ (كان) حضور كبير في هذا السرد، وعندما أعدت قراءتها منشورة، انتبهت لها وعشّبتها من النص، وأبقيت على ما هو ضروري جدا منها، لقد اضطررت في الحقيقة لأعيد كتابة السرد من جديد، للأسف تفلّت مني النص في شكله الأول لينشر في كتاب "متلازمة ديسمبر" (دار بدوي، ألمانيا، 2023)، لكنه الآن بحلة أكثر جمالا وقد تخلص من (كاناته) التي أضرت بالنص ولم تنفعه.

كيف قرأت نزار قباني؟

ترتبط قراءتي لنزار قباني ضمن برنامج ممتد من القراءة بدأته وأنا طالب في الجامعة، في مرحلة البكالوريوس إذ كنت أقضي أوقات الفراغ في المكتبة، لقد تعرفت على الفن التشكيلي والفنانين بالإضافة إلى كتاب كثر، وخاصة طه حسين وتوفيق الحكيم وآخرين لم أعد أذكرهم، إنما كانت قراءاتي في تلك المرحلة تركز على الدراسات الأدبية والنقدية والشعر العربي القديم. ونادرا ما كنت أقرأ في الدراسات اللغوية، بل إنني لا أحبها وأنفر منها، لا سيما كتب النحو والصرف، وأتذكر أنني استمتعت بقراءة كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة، وقفت عند الجزء الثالث منه المعد للصرف، فلم يكن سلسلاً، وتوقفت عن إكمال الكتاب.

أنهيت المرحلة الأولى من الدراسة والتحقت ببرنامج الدراسات العليا، وفي هذه المرحلة كنت أضطر أن أتأخر قبل العودة إلى القرية، نظرا لأن الدراسة مسائية، فأغلبنا معلمون أو موظفون، وبعد محاضرتين أو ثلاثة كنت أتوجه إلى مكتبة بلدية نابلس العامة، وأمضي فيها بقية الوقت المتاح من نهار الصيف حتى آخر دقيقة من دوام المكتبة.

كنت أجلس في الطابق الثاني من المكتبة، وفيها قرأت كثيرا من الكتب، واطلعت على أخرى، ولكن ما أثار اهتمامي بشكل خاص وداومت عليه فترة طويلة هو قراءة أشعار نزار قباني الغزلية، أتذكر أنني كنت أقرأ وأقرأ حتى تبدأ موظفات المكتبة بإطفاء المصابيح إيذاناً بانتهاء الدوام، وعليّ أن أغادر.

في هذه المرحلة كنت شغوفا جدا بالكتب، وأقرأ كثيراً، لم يكن بمقدوري شراء الكتب، لذلك كانت مكتبتي الشخصية متواضعة لا يزيد عدد الكتب فيها عن مئة كتاب، كنتُ أتوق ليكون عندي مكتبة تشتمل على كل ما سأحتاجه مستقبلا من مراجع لازمة لكتابة المقالات والأبحاث، كما هو عند بعض الباحثين والأكاديميين الكبار الذين علموني في الجامعة أو أولئك الذين كنت أقرأ عنهم أو أتعرف عليهم من خلال سيرهم الذاتية.

لم تُعرّفني هذه الفترة من حياتي على نزار قباني شاعراً وحسي، بل عليه أيضا كإنسان كان له صورة مغلوطة في أذهان الناس أو القراء، إذ لا يحفظون له إلا أشعارا في وصف النهود والعنف في التعامل معها، لكنهم لا يعرفون مأساته الاجتماعية سوى استشهاد زوجته بلقيس الراوي في حادثة تفجير السفارة العراقية في بيروت،

لكنهم لا يعرفون سبب انتهاجه هذا السبيل من الغزل، فلا يعرفون مقتل أخته، وأثر ذلك في نفسه ومسار حياته، ولا يعرفون أنه فقد ابنه الكبير توفيق في ريعان شبابه، ولا يعرفون كذلك أنه من عائلة يمكن أن توصف بأنها ارستقراطية ذات تقاليد عريقة، وأن تلك العائلة كان لها إسهاماتها في الثورة السورية ضد المحتل الفرنسي، وأن الكاتب المسرحي أبو خليل القباني من أقارب الشاعر، فهو عم والديه، وأنه كان مشاركا في الحركة الثقافية بفاعليه وبينه وبين بعض الأدباء والأديبات مراسلات كثيرة.

وربما قلة فقط من الدارسين كذلك كانوا يعرفون أن نزاراً دبلوماسي وعمل سفيرا لسوريا في الأندلس/ إسبانيا، وأنه ناثر من طراز ممتاز، وأنه شاعر سياسي أيضاً لا يداهن الحكام ولا يتزلف لهم، وناصر الفلسطينيين وثورتهم، وكان له موقف رافض للسلام مع الصهاينة المحتلين في بداية التسعينيات، فكتب قصيدته "المهرولون"، وكان حاضرا جدا في سياق الانتفاضة الكبرى التي اندلعت عام 1987، وكتب فيها أشعاراً رائجة.

إن قراءتي لنزار كانت شاملة، لذلك تعرفت على ما قالته إحدى بناته إن أباها لم يكن "زير نساء"، وكان مخلصا لمؤسسة الزواج،

ولم يكن ينتقل من امرأة إلى أخرى كما هو حال شعراء الحداثة العربية، وكل ما كتبه من شعر في المرأة ما هو إلا مذهب أدبي يعبر عن نضاله من أجل أن تحصل المرأة على حقها وأن يكون لها صوتها في التعبير عن ذاتها، وأن تمارس حياتها دون وصاية من أي رجل، فأنطقها في كثير من القصائد؛ لذلك أقول دائما إن نزار قباني كان صاحب مذهب ومدرسة شعرية قائمة بذاتها لا يستطيع أحد أن يكررها، كما هو الشاعر العراقي أحمد مطر أو الشاعر السوري عمر الفرا، فكل واحد من هؤلاء مدرسة مستقلة لا تتشابه بأي تجربة أخرى، ليس كما هو الحال مع الشعراء الآخرين، وإن كانوا كبارا، لذلك عندما كتبت مقالتي "هل قتلتَ يوماً شاعراً كبيراً؟" أشرت إلى قباني ودرويش وأدونيس، وأرى أن هؤلاء الثلاثة هم أكثر الشعراء سطوة على الشعراء اللاحقين، ولا بد من التخلص من آثارهم، وافتتاح مسارب شعر جديدة، حتى لو كانت جداول صغيرة؛ إذ المهم ألا تغرق لغة الشاعر الجديد بلجة أحد هؤلاء الشعراء الذين هم مدارس شعرية متمايزة ومستقلة مع أن على أدونيس ودرويش كماً هائلا من الملحوظات النقدية الانتقادية القاسية.

وعندما توفي نزار قباني قرأت حول تجربته الشعرية ثلاثة كتب صدرت حديثا في ذلك الوقت، لعل أكثرها لفتا لانتباهي ما كتبه جهاد فاضل في كتابه "نزار قباني: الوجه الآخر" الذي يتهم فيه نزار قباني أنه لم يكن يقرأ ولا يوجد في منزله سوى الصحف عدا أنه يرسم له صورة سلبية يظهر فيها نزار قباني إنسانا ماديا وانتهازيا حريصا على المال، ويضع الأسئلة لمحاوريه، ويريد أن يتقاضى مالا مقابل كل مقابلة صحفية أو تلفزيونية وإذاعية.

إن ما قاله فاضل عن قباني بخصوص القراءة التقليدية ليس شيئا لافتا للانتباه، وليس مهما أصلاً، فالشاعر عليه أن يقرأ الكون والإنسان والحياة لا أن يقرأ في الكتب؛ لئلا يصبح نصوصيا يترع لغات الأخرين وجملهم الشعرية ويجترها، إن عدم القراءة- إن صحت- لا تعني أن نزارا غير مثقف، بل إن له مصادره الخاصة التي تمنح شعره فرادة خاصة واستثنائية، لذلك لا تراه متهما بالسرقة من الآخرين، كما هو الحال مع محمود درويش وأدونيس مثلا، ولم يتهم بالسرقة إلا بقصيدة "مع جريدة" التي زعم جهاد فاضل أنه أخذها عن شاعر فرنسيّ.

وعلى أيّة حال، فإن القراءة التقليدية للكتب والأفكار قد يضع الكتاب في مأزق كبير، لذلك رأيت في واحدة من الرسائل أن كثيرا من كتابنا هم "تناصيون" غارقون في نصوص الآخرين، ومنهم محمود درويش نفسه، فكتبتُ: "فكرة راودتني منذ فترة وهي الموازنة بين نوعين من الكتاب، الكتاب التأصليين والكتاب التناصيين، إنه لأمر محزن أن تدركي أن أغلب كتابنا الكبار هم كتاب تناصيون، وليسوا تأصيليين. إنها حالة سقم كبير في إنتاج المعرفة"[1].

وعلى ذلك فنزار قباني كان أقرب لأن يكون شاعرا وكاتبا تأصيليا وليس تناصيا نصوصياً، فعندما تقرأ نزارا لا تجد ألفاظ الآخرين وجملهم في شعره، بل تراه صافيا عذباً، ليس كما هو درويش الذي إن نفضت قصيدته وأزلت ما فيها من الآخرين لم يبق منها إلا الشيء القليل الذي لا يشكل معرفة نافعة دون أصله الذي بني عليه، إنه يؤسس نصوصه على جذوع نصوص أخرى، وذلك لأنه كان يقرأ ليلتهم ويعيد إنتاج النصوص.

إن هذه عادة متأصلة في درويش، إنه يحب أن يمتص الآخرين، حتى في ديوانه المعدوم "عصافير بلا أجنحة" (1960) الذي قرأته

[1] الثرثرات المحببة، الرسائل، دار الفاروق للثقافة والنشر، 2024، ص 126

مؤخراً، وقد وقع بين يديّ نسخة إلكترونية منه، إن القارئ يجد قصائد نزار ومفرداته متمددة في الديوان، لا سيما في قصائد الغزل، فقد بنى الشاعر نصوصه من مفردات نزار قباني الشعرية، حيث النهد والشفاه والقبل وأشياء أخر، لم يكن درويش حينها قد تجاوز عمره تسعة عشر عاماً، إلا أنه أعاد نزار في قصائده بما يشبه إعادة التدوير، وإن دل هذا على شيء إنما يدل على أن درويش قارئ نهم، إلا أن هذه القراءة توقعه في ما لا تحمد عقباه، وعندما كتبت حول الجدارية كشفت تلك القراءة كم كانت لغة درويش منقوعة في مياه الآخرين وتبدو كأنها "قطعة فسيفساء مشغولة بمهارة صانع"، وتساءلت في تلك القراءة: "ولا أدري هل يعد ذلك في ميزان حسنات النص أم في ميزان سيئاته؟"[1] ، لا شكّ عندي الآن كما كتبت لاحقاً، وسابقا في الرسائل إنه أمر لا يؤشر إلى الإبداع بقدر ما يومئ إلى الاتباع، ولذا فإن حظ الشعرية في مثل هذه النماذج قليل جداً.

[1] ينظر: مجلة هوية، العدد (10)، حزيران، 2025، مقال: محمود درويش في دائرة الفعل الوجودي، ص 93، وكذلك: صحيفة الحدث الفلسطيني، العدد (185)، أيلول، 2025، مقال: العالم يمتلئ بمحمود درويش بعد أن امتلأ شعره بعوالم الآخرين، ص 22.

شيء عن إهداء الكتاب لكتبهم

إن موضوع إهداء الكتب أو النصوص موضوع شائق جداً، وله مكانته في التحليل النقدي الحديث، وأُعدّت حوله أبحاث ودراسات، أما ما أريد الحديث عنه هو مسألتان، الأولى ما يكتبه الكتاب من إهداءات يفتتحون بها كتبهم، والأخرى هي إهداءاتهم لي نسخا من كتبهم موقعة، مع عبارات ذات دلالات معينة، أو غير موقعة إلا أنها تحمل الدلالة ذاتها.

أنجزت كتابة بحث حول الإهداء بصفته عتبة من عتبات الأعمال الأدبية، وتناولتُ فيه ما يكتبه الكتاب من إهداءات في بداية كتبهم، ويعجبني من تلك الإهداءات ما كان منها موجها للقراء، لا للأصدقاء أو الأحبة، هذا النوع من الإهداءات ألاحظ أنه أقل لاعتبارات شخصية ذاتية، إنما يخص الكتّاب القراء، وخاصة الروائيين منهم، بملاحظة تحذيرية يقولون فيها إن ما قد يجدونه في هذه الرواية من أحداث أو شخصيات هي محض خيال، وما تشابه أو تطابق منها مع الواقع إنما هو صدفة غير مقصودة. هذا النوع من الاحتراس بالنسبة لي مستفزّ، وفيه نوع من الجبن، أو التعالي، وتناولت هذه

الملاحظات في كتابات سابقة[1]، لأن الكاتب يرى القارئ أعمى أو جاهلا، ويريد أن يرسم له مسارا يقرأ فيه دون أن يفكر. أنا فعلت الشيء ذاته مع كتاب "متلازمة ديسمبر"[2] عندما وضعتُ للقارئ هذه الإشارة: "السارد في هذه القصص شخص غريب عنّي لا أعرفه إطلاقاً، ولم يسبق لنا أن التقينا إلّا في هذا الكتاب، لذلك فإنّ هذه الأفكار من صنعه وحده، وهو يتحمّل مسؤوليّتها القانونيّة والاجتماعيّة".

هذه الإشارة منقوضة حتماً بإهداء الكتاب نفسه، فقد سبق هذه الإشارة إهدائي الكتاب إلى ثلاث نساء، معروفات حُكما أنهنّ على علاقة معي، وبعض أصدقائي يعرف إحداهنّ على الأقل، إنما لا يوجد شخص واحد يعرف الثلاثة معاً. فلو اجتمعوا هؤلاء معا لاستطاعوا أن يقول من هي (ف. ن) ومن هي (ش. ح)، ومن هي (ف. ف)، فثمة قصص ومواقف وأفكار لا يعلمها إلا أنا وهؤلاء النساء الثلاثة وبعض القراء يعلمون شيئا من تلك المواقف حتماً؛ إذاً ما فائدة الإشارة سوى أنها نوع من تضليل القارئ؟

[1] ينظر مقال: البحث عن التخييل الذاتي في سياق السرد المعاصر، من كتاب "ملامح من السرد المعاصر- قراءات في متنوع السرد"، أم الفحم، 2019، ص 53

[2] صدر الكتاب عن دار بدوي للنشر والتوزيع، ألمانيا، 2023

أظن أنني حاولتُ تضليله فعلاً، ولكن بأيهما سيصدقني القارئ بالإشارة أم بالإهداء المكتوب بشكل واقعي حقيقي يشير إلى تلك النساء؛ لأن من يكتب أسماء النساء بالحروف يعطي توقعا لدى القارئ أن الكاتب يتحدث عن امرأة من لحم ودم، ما دام أنه لم يختر اسما مستعارا لها. إنه سيرى الإهداء ويسقط من اعتباره الإشارة، وربما أشار إلى تناقضهما معاً إن كان ناقداً كما فعلت الكاتبة صفاء أبو خضرة عندما كتبت في مراجعتها النقدية للكتاب: "كانَ الإهداء إلى سيدات من حروف، لسيدات ربما لا يعرفهن سواه، ما يثير القارئ للولوج إلى فضاء هذا العمل ربما بحثاً عن صاحبات تلك الحروف، وربما ليرى أثر فعلهنّ عليه. وقد استدعى الكاتب تجاربهُ الخاصة ومخيلتهُ أيضاً في نتاج سردهِ وقصصه حتى يكاد القارئ يخلط فلا يميز ذلك الخط الرفيع بينهما، وهنا قد أحسب لهُ هذه الجرأة لطالما حاول كُتّابٌ كثرٌ التخفّي خلف شخصيات قصصهم ورواياتهم فيقولون ما يريدون عبرَ لسانها رغم أنهُ في بداية الكتاب تركَ إشارةً بأنّ السادر في القصص هو شخصٌ آخر غيره فتبرّأ من لسانهِ وحواديتهِ".

هذه المراوغة باعتقادي كانت ضرورية جداً حتى لا يؤخذ السرد بحرفيته، ولذلك فإن الإهداء كان يشير إلى وجود النساء فعلا، لكن كانت المطالبة الخفية أن السارد لا يتطابق تطابقا سيريا معي، وهذه مسألة نقدية بحيث لا يقرأ الكتاب على أنه سيرة ذاتية، إنما المسألة واقعة بين التخيل المحض أو التمني الرغبوي لأن يكون معهنّ ما كتبته وتمنيته مع عدم انعدام ذلك الخيط الرفيع الذي يجمعني مع هؤلاء الراحلات.

إحدى الزميلات، لا تريد أن تعترف بهذه المراوغة، فعندما أريتها الكتاب دون أن أمنحها نسخة منه، بحجة أنه ليس لديّ نسخ كافية، أخذت تقرأ تلك الحروف وتترجم ثنائياتها، ورأيت حركة شفتيها عندما أخذت تترجم (ف. ف)، ابتسمت، ونظرت إليّ بعين ذئبة ماكرة، وشكلت شفتاها الرقيقتان الشهيتان اسم تلك المرأة! لم أهتمّ كثيراً، ولم أدع لها مجالا لتفتح معي حوارا حول هذه المرأة، وأخذت أحدثها عن ظروف الطباعة، وأشياء أخرى.

كتاب "متلازمة ديسمبر" كتاب فضائح شخصية، وتأملات ذاتية، وتمنيات شبقية، كثير من قصصه يدور في هذه الدوائر الثلاثة، لذلك من وجهة نظري كان ضروريا أن أحترس بهذه الإشارة حتى لا

أمسّ أولئك النساء بسوء وأن يفكر أصدقائي عندما يقرؤون أن ما كتبته "من فضائح" وشبقيات جنسية حدث بالفعل، إذ ينبغي أن أشير هنا إلى أنه بسبب الشبقية العالية لبعض القصص رفض محرر أحد المواقع أن ينشر شيئا منها.

مسألة الإهداء بالحروف مسألة مهمة بالنسبة لي، اتخذتها استراتيجية في كتبي السردية ودواوين الشعر، فديوان "على حافة الشعر ثمة عشق وثمة موت"[1]، أهديت كثيرا من القصائد إلى نساء بأحرفهن الأولى ومنهنّ بطبيعة الحال (ف. ن) التي كتبت لي قصيدة بمناسبة إعلانها الانسحاب من العلاقة معي لأنها أمضتها وهي متسترة بشخصية مستعارة، وعندما أعلنت عن نفسها رحلت مؤقتا وتركت تلك القصيدة، وعندما قرأتها منشورة في الديوان، حاولت أن تعترض مرة على النشر، ومرة على نشر اسمها بحرفين ورغبت أن أعلن عن ذلك أسوة بشاعرات أخريات أهدين قصائدهن لي دون تحفظ أو حذر كونهنّ صديقات مقربات، ولسن حبيبات سابقات.

[1] صدر الديوان عن دار بدوي للنشر والتوزيع في ألمانيا، عام 2022.

في رسالة قصيرة مفاجئة يوم توقيع الديوان، تبعث بها إليّ الكاتبة الصديقة صفاء أبو خضرة مع الصديق حسن عبادي بعد أن أوصلتها نسخة من الديوان، تصفني في هذه الرسالة بأنني أبو الحروف، وتقول فيها: "الشاعر فراس له قدرة عجيبة على تقمّص الحروف... كأنّ كل حرفٍ امرأة بكاملِ غيمها ومطرها وهو بكل تفتّحهُ اللغوي يدهشنا بتنقّله من حرف إلى حرف كأنّهُ تلك النحلة التي تلتفّ على أجمل الزهرات وأكثرها شهداً ليجمع لنا عسل الشعر". كانت الالتقاطة مفاجئة، ولا شك في أنها جميلة جدا أسعدتني. إنني على ما يبدو أصنع عالمي الخاص مع القرّاء بهذه التفاصيل التي تدعو إلى الفضول.

أنا والكتاب وإهداءات الكتب

إنه لأمر ذو دلالة مهمة أن يهدي الكاتب كتبه لغيره من الكتّاب فمن أولى من الكاتب ليقرأ لزميله؟ إنهم معاً يشكلون رابطة من التآلف الفكري، ليكون الكتّاب على علم ودراية بما يكتبه زملاؤهم، إنني أحرص دوما على أن أهدي كتبي للأصدقاء من الكتاب، ولأي قارئ يريد نسخة من الكتاب، وتصيبني نشوة من نوع مختلف إذا ما اتصل بي قارئ ما يريد الحصول على نسخة من أحد كتبي.

عادة ما تكون النسخ الأولى من كتبي مهداة للأصدقاء المقربين، ليقرؤوني على مهل، ونتحاور فيما نكتبه، وأحبّ أن نتجاذب أطراف الحديث حول تلك الكتب، وربما أنفقت ساعات طويلة في الحديث عنها مع صديقي الناقد رائد الحواري وصديقي الكاتب حسن عبادي، إنهما يقرأانني بشكل ممتاز، وأحبّ أن أرى نفسي على ضوء قراءاتهما.

ومن طريف ما وقعت به من مواقف محرجة، أنني عندما تعرّفت على الصديق حسن أهديته بعض كتبي غير موقعة، ليرفض وزوجته هذه الطريقة "غير المهذبة" من إهداء الكتب، فيعيدها إليّ لأوقعها له في لقائنا القادم، بل صرت أهدي الكتاب إليهما معاً

سميرة وحسن عبادي، وبسبب هذا الموقف صرت أتدرب على كتابة الإهداء، إذ كثيرا ما أجد نفسي عاجزا عن كتابة الإهداء للأصدقاء، وأذكر أنني لما وقعت كتاب "في ذكرى محمود درويش" عام 2016، اتخذت جملة من قصيدة له تقول: "أعدي لي الأرض كي أستريح فإني أحبك حتى التعب/ صباحك فاكهة للأغاني/ وهذا المساء ذهب" لتكون توقيعا لكل الأصدقاء، تقديرا لدرويش أولا وثانيا لأنني أردت إرسال رسالة غير مباشرة لتلك المرأة التي حضرت توقيع الكتاب، وتعذر عليها بسبب الظروف الجوية السيئة يومئذ أن نلتقي قبل اللقاء لنتحدث وكنا كثيرا ما نلتقي في مطعم السنديان في وسط مدينة رام الله.

وبالمقابل يهديني الكتاب كتبهم، وبحكم العلاقة بيني وبينهم وبحكم توقع الكتاب أو حثهم لي للكتابة حول تلك الكتب فإنهم يرسلون نسخاً من كتبهم موقعة مع جمل تشي بهذا الغرض الشرعي والطبيعي والمتعارف عليه لدى الكتاب والنقاد، وأشار إليه بعض الكتاب الغربيين، وخاصة أن أحدهم عندما كان يدسّ في جيب أحد محرري الصفحات الثقافية في الصحف والمجلات نسخا من كتبه، لعله يكتب عنها مراجعة في باب الكتب الجديدة.

إنه لأمر بالغ الأهمية أن تجد مراجعة نقدية لكتابك أو تعريفاً أو عرضاً له حتى ولو بخبر قصير يحتل أعلى صفحة الجريدة أو المجلة في الهامش العلوي قبل عناوين الأخبار الثقافية وتقاريرها ومقالاتها، تفعل ذلك بعض الصحف، إنها طريقة لافتة للنظر، تجعل الكتاب في مكان أعلى لتعطيه مكانة وأهمية.

تغصّ مكتبتي بالعديد من كتب الأصدقاء التي تحثني بطريقة أو بأخرى على قراءة الكتاب والكتابة عنه أو إبداء الرأي فيه، إن ذلك يشعرني بأهمية عملي ناقدا أدبياً، ويحمل تقديرا مبطناً لمهمتي هذه، ومن تلك المواقف التي قدرتها جدا عندما اتصل بي الروائي الدكتور أحمد رفيق عوض وأخبرني أنه سيرسل لي نسخة من روايته "دابة الأرض" مدفوعة أجر التوصيل لباب البيت، وبالفعل تصلني في أقل من (24) ساعة وتحمل هذا الإهداء: "البديع المبدع فراس حج محمد تقديرا ومودة"، وعلى الرغم من أنني اطلعت على الرواية في مرحلتها الأولى قبل الطباعة إلا أن الكاتب يصرّ على إرسال نسخة مطبوعة من الرواية، إن هذا أمر مقدر عندي جدا، يعمق معنى الصداقة الأدبية والفكرية، علما أنني أكتب في روايات أحمد رفيق عوض قراءات نقدية قد لا تروق له أحيانا في بعض ما أطرحه من أفكار

وقضايا وتحليل مواقفه السياسية، إلا أنه دائما يحترم تلك الأفكار، ولا يحاول الدفاع عما يكتبه، ويقرر أحقيتي في ما كتبته.

وشبيه بما يفعله الدكتور عوض يفاجئني الشاعر سميح محسن بأن يرسل لي ديوانيه "اخلع سماءك وانتظرني" و"دم دافئ فوق رمل الطريق"، ليصل الديوانين إلى باب بيتي دون أن يخبرني مسبقا بذلك، ويطرّز بخط يده إهداءين جميلين، فيكتب على الديوان الأول: "الصديق العزيز الناقد والشاعر المبدع فراس حج محمد مع خالص مودتي واحترامي"، ومع الديوان الآخر يكتب: "صديقي العزيز الشاعر والناقد فراس حج محمد، هكذا كتبت مقتلة غزة محاولا التعبير عن التجليات الإنسانية فيها مع خالص مودتي وتقديري".

ويرسل لي الكاتب وليد الهودلي كتابه "الغرفة الزهراء"، ويصدره بالإهداء الآتي: "الأخ العزيز أديبنا الفذّ الأستاذ فراس حج محمد مع عظيم احترامي وتقديري". وأما الناقد الصديق تحسين يقين الذي أصدر كتابه "ملامح الرواية الفلسطينية الجديدة ما بعد أوسلو" وتابعت فعالية إطلاقه في متحف محمود درويش، يستهويني موضوع الكتاب وعنوانه إذ يتشابه مع سلسلة كتبي النقدية "ملامح

من السرد المعاصر"، فأسارع بالاتصال بالمؤلف وأطلب منه نسخة، فتصلني مع هذا الإهداء: "الأخ الحبيب الناقد فراس حج محمد، لعلها ملامح، ولعلها كتابة جادّة تلتقطها فالتقط منها ما تشاء. مودتي".

وثمة كتب أخرى يرسلها لي أصحابها، دون أن أحظى بإهداء خاص، وذلك لأن ظروف إرسالها غير مواتية ليكتبوا لي إهداء، كما يفعل الكاتب محمود شقير الذي يحرص على أن يرسل لي مع الصديق حسن عبادي نسخة من كل كتاب يصدر له، لأن حسن هو من يتسلم النسخ نيابة عنه، فيطلب منه بود أن يسلم مجموعة من الأصدقاء نسخة من الكتاب قبل أن يصل الكتاب إلى شقير نفسه، وبهذه الطريقة وصلتني كتب: "أنا والكتابة: من ألف باء اللغة إلى بحر الكلمات"، و"خريف آخر" و"منزل الذكريات" و"المشهد الروائي الفلسطيني". لقد قرأت الكثير منها بحب وإن سجلت ملاحظات على بعضها ككتاب "المشهد الروائي الفلسطيني" الذي شتمني أصدقاء شقير بسبب ما كتبته عنه إلا أنه هو نفسه تقبل ما كتبت، وواصل إرسال كتبه بعدها؛ فوصلني كتابه "هامش أخير"، وبقينا على ود وتواصل، بل إن شقير يضمّن كتابه هذا

"هامش أخير" مقالتي الاحتفالية ببلوغه الثمانين لتكون في كتابه[1] مع عدد قليل مختار من كتابات أصدقائه، وإن هذا لموقف يؤكد أن شقير لا يشبه بعض أصدقائه الشتامين، هؤلاء الذين دفعتهم دوافع شتى ليكونوا قليلي أدب، سجلت قلة أدبهم في كتابي المنشور حول شقير نفسه "في النقد والنقد المضاد".

لم يغضب مني شقير غضب الكاتب جميل السلحوت وزميلته التي شاركته الكتابة في كتاب "رسائل من القدس وإليها"، حيث انقطعت العلاقة مع السلحوت، وهاجمني أحيانا على صفحات الأصدقاء، من ذلك ما كتبه منتقدا على هامش مقالتي "لماذا كل هذا الحقد النقدي": "فراس حج محمد في نقده مزاجي بعيد عن الموضوعية، وقد هاجم عددا من الكتاب الجادين دون الالتزام بمعايير النقد العلمية والأخلاقية. وسبق وأن هاجم الجوائز الأدبية وطريقة اختيار الفائزين بها"، أما تعليقه على ما كتبته حول رسائله البائسة فكتب: "هل كتبت ردحا أم نقدا يا أستاذ فراس؟ وهل يوجد كتاب يعجبك؟ ليتك تتعلم النقد من الدكتور عادل

[1] صدر الكتاب عن دار نوفل في بيروت، 2025. يُنظر الكتاب، ص 186: "كلمة حب وصدق في ثمانينية محمود شقير".

الأسطة". أما زميلته فاكتفت بالصمت، إذ لم تكن من معارفي سوى أنها كانت صديقة فيسبوكية واكتفت بحظري نتيجة تلك القراءة التي لم تعجب كليهما، لكنّي أظن أن تلك القسوة في تلك القراءة هي ما دفعت تلك الكاتبة لأن تجد وتجتهد، وتصدر مجموعة من الكتب تباعاً بعد أن كانت تراوح مكانها، مجرد ظل لكاتب كبير، كما ظهرت في كتاب الرسائل[1].

إذاً، ربما تجلب القراءة بعض المتاعب، وهذا ما حدث كثيراً، فعلى إثر متابعتي لرواية الكاتب نافذ الرفاعي وقراءتي لما كتب عنها وموقفه من روايته وتفسيره لها، وكتابتي عن هذا الموقف، وإصراره على إبعادها عن القضية الفلسطينية، كتبت مقالة بعنوان "هل ستتحول الرواية إلى لعنة على كاتبها"، ونشرت على نطاق واسع في كثير من المواقع والصحف والمجلات عربيا وفلسطينياً، وربّ ضارة نافعة.

كانت هذه المقالة سببا في أن يرسل لي الكاتب هذه الرسالة: "تحياتي يا فراس أفندي لقد قرأت مقالك النقدي لشخصي، وليس

[1] يُنظر كتابي: "الكتابة في الوجه والمواجهة"، دار الرعاة للدراسات والنشر، رام الله، ودار جسور ثقافية، عمان، 2023، ص 286.

للرواية، علما أنك مخطئ في كثير من الأشياء حول شخصي. بالعربي كما قلت لك[1] أنا شخص بداخلي تسامح جدي أحمد الرفاعي، ولا أكترث كثيرا لأي هجوم. نصيحة لك- وأعتقد أنك لن تأخذها بمحمل الجد لأنه من الصعب تغيير الشخص بعد الأربعين- أن تكتب نقد الرواية وليس لشخص صاحب الرواية، وحسب مقالك الذي تحدثت عنه أن صاحب النص تنتهي علاقته به بعد إصداره، ولكن ما وجدته أنك تحترف الهجوم والطعن الشخصي، وهذا تجلى في هجومك على عدوان وعلي أنا في ذلك المقال، إضافة للنساء في ندوة اليوم السابع[2]. صديقي ونصيحة ثانية- ولن تأخذ بها على ما أعتقد- أن ترصد شخصيات الكتاب هو ليس عملاً نقدياً بالمطلق. أخيرا وليس آخرا لقد كلمني أكثر من أحد بأن فراس كتب عنك، وهل قرأت، وأشكرك لأنك أثرت الفضول لديهم، ولا أعتقد أنك كنت تقصد ذلك، وتحياتي يا فراس".

[1] يشير إلى ما دار بيننا من حديث هاتفي قبل الرسالة.

[2] يشير إلى مقال "إلى نساء ندوة اليوم السابع المقدسية" الذي كتبته على خلفية مناقشة الندوة لرواية عدوان عدوان "عودة الموريسكي من تهداته". يُنظر: موقع شبكة أخبار البلد: https://www.akhbarelbalad.net/ar/1/11/8673/?ls-art0=50

في هذا المقام لا أريد أن أحلل شخصية نافذ ولا أن أردّ عليه، فهو يجهل كثيرا منافذ النقد وأدواته ومظاهره وتجلياته وتوقعاته ومآلاته، لذلك آثرت أن أشرك نفسي في الموقف لأكتب له الرد الآتي: "يقال يا أبا العبد: من نشر عرّض نفسه للنقد، وأنا تحت منشار النقد، وأنت كذلك، وكلانا معذور، والله المستعان". وانقطع بيننا الحديث ولم نتواصل بعدها، ولا أدري كم يطول به المقام، فهو من بادر أولا بالاتصال بي ليعلمني بصدور الرواية على أية حال وذكرت ذلك في مقالتي عن الرواية، ولعله يفعلها ثانية مع رواية قادمة، فلا أعلم عنه أنه يمارس أسلوب الحرد الثقافي، حتى لو اختلفنا كما هو الحال عند السلحوت وغيره الكثيرين.

ومهما يكن من أمر، فإن العلاقة بين الكتاب تفرض هذا النوع من التقارب أو الاختلاف، ولا أظن أنها "غير صحية" بل إنها أمر طبيعيّ، فالكاتب يبحث عن ناقد يقرأ كتبه ويقدرها، ويكتب عنها مادحاً لا قادحاً، ولكن لا تأتي أحيانا الكتابة على مستوى توقع الكاتب من كتابه، وهذه قضية أخرى، ليس لنشاط القراءة دخل كبير فيها، لذلك لن أخوض فيها، لعلي أتناولها في كتابة مستقلة أخرى.

القراءة عملية إعادة ترتيب للفرد ليكون أكثر حيوية في المجتمع

حوار- عبد الرحمن الخضيري[1]

يستعرض لنا الشاعر والناقد الفلسطيني فراس حج محمد تأثير القرآن الكريم عليه. صدر له مؤخرا[2] ديوانا شعر «مزاج غزة العاصف» و«وأنت وحدك أغنية» وكتاب نقدي بعنوان «ملامح في السرد المعاصر– قراءات نقدية في القصة القصيرة جدا» فإلى الحوار.

ما الكتاب الذي أحدث تأثيراً فيك بعد قراءته؟

في البداية أشكر أسرة جريدة الرياض، على هذه الالتفاتة التي أسعدتني للتعريف بجانب مهم من جوانب تكوين شخصية القارئ بشكل عام والكاتب على وجه الخصوص. أما بالنسبة للسؤال، وعن تحديد كتاب أثّر في الوعي الخاص، يبدو أن الذاكرة لا تستجيب لتجعل كتابا محددا فيكون محوريا في تشكيل الوعي، فالإنسان هو

[1] حوار لصالح جريدة الرياض السعودية، نشر يوم السبت 14 ذي القعدة 1436 هـ - 29 اغسطس 2015م - العدد 17232، ضمن سلسلة حوارات مع الكتاب بعنوان "قصتي مع كتاب"، وهي "حلقات حوارية أسبوعية – كل سبت – ملحق الثقافة والأدب، يسرد الضيف قصته مع كتاب ما ، او مجموعة كتب ساهمت في تكوينه المعرفي والفكري علاوة على عرضه لتجربته القرائية وعلاقته بالكتاب".

[2] حتى ذلك التاريخ.

مجموع قراءات متعددة، فمنذ تعلمتُ القراءة وأصبحت متقنا لها، أخذت أقرأ كثيرا وكثيرا جدا، وخاصة كتب المغامرات والقصص البوليسية، ثم الكتب الدينية وخاصة القرآن الكريم، واستهوتني قضيتان في القرآن أولاهما الجِرْس الموسيقي لبعض السور القرآنية، فكنت أحب أن أقرأ كثيرا سورة (ص) وسورة (ق) حتى أنني حفظت السورة الأخيرة غيبا لكثرة ما سمعتها أو قرأتها، والقضية الثانية التي استهوتني في القرآن الكريم القصص القرآني، فتعلقت بها وأخذت أقرأ في التفسير تلك القصص وأعيد سردها بيني وبين نفسي، فأكمل بعض المشاهد القرآنية وأفسرها، وأقدم حيالها تأويلا ربما يقنعني، ثم جاءت قراءات في الشعر القديم والمعاصر، حتى استطعت أن أكتب نصا مقبولا بعد تلك القراءات التي أدعي أنني استوعبتها، وما زلت إلى الآن شغوفا بالكتب أقرأها وأحاور أصحابها وأكتب عنها.

ما نوع التأثيروهل أنت مقتنع به وما مدى استمراره؟

لا شكّ بأنه لا يوجد كاتب وخاصة في العصر الحاضر دون أن يكون قارئا، هذه هي طبيعة الأشياء ومنطقيتها، فتطور الفكر البشري يستدعي التعرف على الآخرين ومحاورتهم والاستفادة منهم

والبناء عليها. فالتأثير بما نقرأ حادث لا محالة، وهو بلا أدنى تردد تأثير إيجابي يساهم في بناء الوعي الفردي والجمعي، حتى لا يسقط الكاتب والقارئ على حد سواء في مغبة الوعي المزيف الذي يؤدي إلى خلق رؤيا مشوهة حول الأشياء والأفكار المتعلقة بها. ولو عدتُ شخصيا للبحث عن أثر القراءات، لوجدتُ أنها تعيد تشكيل لغتي على نحو معرفي وفني خاص، فيها ما فيها من الأصل، ولكن أيضا لها ما لها من دلالات خاصة تدل على صاحبها. لقد انتقلت معي تلك القراءات وخاصة الجرس الموسيقي للسور القرآنية والقصص القرآني بحيث أصبحت أعمل بوعي كبير على القصيدة ذات الموسيقى والجرس المنساب بهدوء مع مزج تلك الموسيقى وهاتيك القصيدة بنزعة سردية بتأثير سردية القرآن لتلك القصص التي استهوتني في تتابع أحداثها. بالإضافة إلى أمر مهم جدا وقد بدا واضحا، وقد انتبهت له مؤخرا، فعندما عدت إلى آخر ديوان شعر أصدرته وهو "وأنت وحدك أغنية"، لاحظت أنا نفسي أنني قد أدخلت اللغة القرآنية في كثير من قصائد الغزل، حتى عدت وقرأت الديوان مرة أخرى فوجدت أنني قد أخذت من سورة (ص) ومن سورة الإسراء، ومن سورة الرحمن، عدا السردية الواضحة في كثير من قصائد الديوان.

ما مدى استمرار تأثيره؟

الذاكرة ذات قدرة على التخزين والاستعادة، فلا شيء يموت في هذه الحافظة الإلهية، ولكنه يتحول ويتبدل ويتمظهر في صور شتى، منها ما يخص اللغة الظاهرة (الألفاظ)، ومنها ما يتعلق بالمعاني واللغة الباطنية، وقد يتعدى الأمر إلى أبعد من هذين الأمرين إلى طبيعة التفكير الكليّ في كل ما حولك، فخير الكتب تلك الكتب التي تكون مركزية في الوعي البشري وتُخْضِع الزمن والبشر لمنطقيتها وحضورها. خلصت بنتيجة أن الحضارة البشرية المعاصرة لم تستطع تجاوز إضافة إلى القرآن الكريم كتابي فن الشعر لأرسطو وكتاب ألف ليلة وليلة، فلو استعرضت كل المنتج البشري اليوم من أفكار فلسفية وغير فلسفية ستجد حضور هذه الكتب لا محالة، وحتى يحس الكاتب بأثر هذه الكتب ما عليه إلا أن يتتبع اعتماد الباحثين المعاصرين على أفكار خاصة تنطلق من مشكاة كتاب من هذه الكتب.

هل ترى أن القراءة محرك أو دافع للتغيير في وقتنا الحاضر؟

إذا لم يكن للقراءة كل ذلك الفعل، فما فائدة اعتمادنا على القراءة والكتابة بوصفها فعلا يوميا يكاد يكون مقدسا؟ تقفز إلى

الـذاكرة جملـة "في البـدء كان الكلمـة"، وفي التعبير القرآني "كـن فيكون"، وفي الفعل البشري عليّ أن أكون صاحب فكرة وموقف لأسـتطيع أن أفهـم فـأغير. فـالقراءة ليسـت مجـرد فعـل تحويـل الكلمات المكتوبة إلى ألفاظ أو معانٍ ذهنية فقط. إنها عملية إعادة ترتيب للفرد ليكون أكثر حيوية في المجتمع، فأداة إصلاح العالم هي الفرد، والفرد الصالح هو الفرد الواعي المنفتح المثقف المندمج في مجتمعه، فيتغير ويتطور حسب أفكاره وأفكار غيره، ليصل إلى التغيير الجمعي المنشود. ولملاحظة أهمية فعل القراءة ما علينا إلا تأمل الحضور المكثف للكتاب عالمياً، وحضور الكُتّاب الذين هم أصلاً صناع الفكر بعد أن كانوا قراء جيدين.

حوار حول القراءة[1]

يخصّص موقع "ألترا صوت" الإلكتروني هذه المساحة الأسبوعيّة، كلَّ إثنين، للعلاقة الشخصية مع الكتب والقراءة، لكونها تمضي بصاحبها إلى تشكيل تاريخٍ سريّ وسيرة رديفة، توازي في تأثيرها تجارب الحياة أو تتفوّق عليها. كتّاب وصحافيون وفنّانون يتناوبون في الحديث عن عالمٍ شديد الحميميّة، أبجديتُهُ الورق، ولغته الخيال.

فراس حج محمد شاعر وناقد من فلسطين. من مواليد مدينة نابلس 1973، حاصل على درجة الماجستير في الأدب الفلسطيني الحديث. من أعماله: "رسائل إلى شهرزاد"، و"من طقوس القهوة المُرّة"، و"ما يشبه الرثاء"، و"وأنتِ وحدكِ أغنية".

- **ما الذي جاء بك إلى عالم الكتب؟**

كنت صغيرا عندما انتبهت لوجود الكتاب من حولي، لقد شكّل دخولي الصف الأول الابتدائي حدثا مهما في حياتي. إذ لا أذكر أنه كان في بيتنا كتاب، كانت الأم لا تقرأ ولا تكتب، والأب مشغول في

[1] أجراه معي موقع ألترا صوت ضمن سلسلة حوارات مع الكتاب تعنون في كل مرة باسم الكاتب المحاور وكانت تحت عنوان "مكتبة فراس حج محمد"، ونشرت في الموقع بتاريخ: 23 ديسمبر 2019.

تدبير شؤون المعيشة. فجأة صرت أمام الكتاب، شعرت بشيء غريب، وسرعان ما تعلمت القراءة، وصرت أتشوّق في كل صف جديد للكتب الجديدة. للكتب في تلك الفترة رائحة خاصة أفتقدها اليوم، وأحنّ إليها.

وسنة بعد أخرى أصبح الكتاب رفيقي، كنت أرفض إعادة كتب اللغة العربية إلى المدرسة نهاية العام الدراسي، ما زلت إلى اليوم أحتفظ بنسخ من تلك الكتب وبعض كتب المكتبة المدرسية التي كنت أستعيرها. في مرحلة المدرسة كنت أخبئ الكتب في صندوق من الكرتون، كان إذ امتلأ أبحث عن آخر وهكذا. هذا الجنين الأولي لتأسيس مكتبة من تلك الكتب تم تدميره وضياعه بفعل عوامل كثيرة. لكن ظل هوس الكتب حاضرا. حتى استطعت شراء كتابين معا وأنا في عمر الرابعة عشرة، حصلت على ثمنهما من مبلغ جمعته خلال موسم قطف الزيتون، فقد كان شائعا ذهابنا نحن الصغار وقتذاك بعد الدوام المدرسي وفي يوم الجمعة إلى حقول الزيتون المقطوف لنجمع الحبّ المتبقي وراء الفلاحين، ونبيعه في نهاية اليوم، رفقائي كانوا ينفقون ما يحصلون عليه في الحال، أما أنا فكنت أدخرها. وهكذا استطعت شراء الكتابين وقرأتهما بالتأكيد، وما زلت

أحتفظ بهما وقد كتبت عليهما التاريخ والثمن، ومع هذين الكتابين عثرت على ثلاثة كتب كانت لأبي، عثرت عليها في بيت جدتي، وهي: الرسالة الخالدة، وكتاب رسائل لأبي العلاء المعري، وسيرة عنترة العبسي. قرأت الكتب الثلاثة أيضا، وأحببت جدا سيرة عنترة العبسي وخاصة ما فيها من قصائد، كنت أسمعها من أبي. وبهذه الكتب الخمسة تخلق الجنين الجديد من المكتبة.

- **ما هو الكتاب، أو الكتب، الأكثر تأثيرًا في حياتك؟**

ربما الكتاب الأكثر تأثيرا في حياة قارئه هو الكتاب المنسي، لا أذكر الآن أن هناك كتابا كان له ذلك الأثر الكبير في حياتي وتطوير أفكاري. أفكاري تطورت بفعل عوامل متنوعة ربما لم يكن للكتاب كبير أثر فيها. مرافقتي لوالدي وسماعي الأغاني الشعبية والقصص الشعبية وقصص الأمثال كان الأقوى تأثيرا في حياتي. ما زالت أذكر تلك الأغاني الشعبية وتلك القصص. إنها ذات نشوة أقوى من الكتب. بل إن حكايات جدتي كانت هي الكتب الحقيقية التي علمتني السرد والشعر والفلسفة وعلم الأخلاق. كانت تأخذني إلى عوالم سحرية بما تحمله من ملامح فكاهية وساخرة أحيانا لحكايات الناس ونوادرهم في القرية. لقد كانت جدتي بالفعل موسوعة ثقافية

واجتماعية متنقلة. كانت رحمها الله تحب أن تقص الحكايات بلا ملل.

- **من هو كاتبك المفضل، ولماذا أصبح كذلك؟**

الآن اختلف الأمر، أصبح لديّ كتّاب مفضلون، وليس كاتبا واحدا، وبحكم دراستي للأدب الفلسطيني الحديث والنقد الأدبي، أحب جدا قراءة كتب النقد، وكتب الفلسفة. من النقاد أحب لغة رولان بارت كثيرا مع أنني أقرأه مترجما بطبيعة الحال، أحببت أيضا جورج باتاي وما كتبه في "حكاية العين" وفي كتابه المهم "الأيروسية". وأحببت عوالم الجاحظ والحلاج وكتاب الأغاني ودواوين الشعر العربي القديم والحديث، وأفادتني كتب الفكر الإسلامي كثيرا، وخاصة كتاب "التفكير" للشيخ تقي الدين النبهاني رحمه الله.

كل واحد من هؤلاء الكتاب كان مختلفا عن الآخر، كنت أحس وأنا أقرأ في كتب كل منهم أنهم يفتحون مسارب جديدة في عقلي. وبطبيعتي أكون شغوفا بكل معرفة جديدة حتى وإن كانت صعبة وصادمة. وعلى الرغم من ذلك أشعر أن هؤلاء الكتاب هم أصدقائي المخلصون، فلا أستطيع التفكير بعيدا عن عوالمهم وما أنتجوه من أفكار، إنهم يدفعونني دفعا لطيفا أن أكتب متجاوزا ما قالوه. تصبح

المهمة شاقة إذن والمساحة تتناقص باستمرار. إنها معضلة أخرى من معضلات القراءة.

- **هل تكتب ملاحظات أو ملخصات لما تقرأه عادة؟**

بكل تأكيد، فقراءة الكتاب بالنسبة إليّ وقراءة المقال كذلك في الصحيفة أو المجلة هي عملية حوار وتفكير مصاحبة لأفكار الكاتب. لا أكتب ملاحظات فقط، بل ربما امتدّ الأمر إلى كتابة فقرات كاملة على هوامش الكتاب حتى يغدو غير صالح للقراءة من بعدي لأي قارئ سواي. عندي هوس بالكتابة عن كل كتاب قرأته، لأنه يكون قد تكاثر على هوامشه الكثير من الفقرات التي تشكل بعد قليل من التحرير مقالا كاملا. أظن أنني لا أستطيع القراءة دون أن يكون بصحبتي قلم حبر، بل إنني أؤجل القراءة إذا وقع بين يديّ كتاب ولم يكن ثمة قلم لاقتناص الأفكار. الأفكار طيور تحلّق في صفحات الكتب التي أقرأها أكون حريصا على صيدها بنشوة مضاعفة. لم يعد هناك انفصال بين عمليتي القراءة والكتابة، القراءة تقودك لأن تكتب، والكتابة تقودك لأن تبحث وتقرأ في علاقة جدلية تستهلك وقت الكاتب القارئ أو إن شئت تستهلك حياة القارئ الكاتب.

- **هل تغيّرت علاقتك مع الكتب بعد دخول الكتاب الإلكتروني؟**

يختزن حاسوبي الشخصي مئات الكتب الإلكترونية، ومع ذلك لم تغير تلك الكتب والملفات علاقتي كثيرا بالكتب، أخضعها هي الأخرى لمنطقي في القراءة، أحاول الحصول على نسخة مطبوعة من الكتاب الإلكتروني الذي يستهويني لقراءته، وإذا لم تتوفر نسخة مطبوعة إما أن أطبع تلك الكتب أو أضطر لقراءتها إلكترونيا وكتابة ملحوظات على أجندة خاصة. عملية مرهقة لكنها ممتعة بالتأكيد. الكتب الإلكترونية مفيدة كمراجع للتوثيق أكثر من كونها كتبا للقراءة، لا أحس أن أفكار تلك الكتب ترسخ في الذهن كما ترسخ أفكار الكتب الورقية.

- **حدّثنا عن مكتبتك؟**

تضم مكتبي آلاف الكتب المتنوعة في موضوعاتها، وهي منتشرة في كل غرف المنزل حتى في غرفة النوم، وفي غرف الأولاد، تتوسع باستمرار وتتضخم فأكون مضطرا كل فترة أن أصمم أرففا جديدة لتستوعب تلك الكتب. أسعى جاهدا للحصول على المجلات الدورية والكتب التي تصدر حديثا، الكتب لديّ أهم من أي حاجة أخرى.

أقتطع شهريا من راتبي المحدود مبلغا لأشتري الكتب والمجلات، وبعضها حصلت عليه كهدايا من أصدقائي الكتّاب.

- **ما الكتاب الذي تقرأه في الوقت الحالي؟**

أقرأ يوميا من عدة كتب، وأقرأ مقالات ودراسات نقدية أختارها من المجلات والمواقع الإلكترونية. هناك كتب بدأت بقراءتها ولم أنهها بعد. أتابع كتابات الجيل الجديد من الكتاب الفلسطينيين، وأعمل على مراجعة كتب أصدقائي قبل الطباعة. ثمة كتب أخرى ينتظر الأصدقاء قراءتها لأقول فيها رأيي. بالمجمل كل يوم جديد هناك كتاب جديد أقرأ فيه وإن لم أكمله منتقلا لغيره.

الخاتمة

يحاول هذا الكتاب أن يقدم نصاً نقدياً يسعى إلى إحداث قطيعة معرفية مع المفهوم التقليدي والسطحي لفعل القراءة في الثقافة المعاصرة، ولا تقتصر مهمة هذا الكتاب على سرد تجاربي الشخصية مع الكتب، بل تتجاوزها إلى إجراء مراجعة إبستيمولوجية جذرية لطبيعة العلاقة بين القراءة والوعي والتقدم الحضاري.

تتشابك الاستنتاجات الرئيسية للكتاب ضمن نسق جدلي معقد، يبدأ بنقد حاد لخطاب التمجيد الإنشائي، وينتهي بتأسيس نموذج "القراءة الفطرية العميقة" كشرط أساسي لإعادة بناء الذات والمجتمع.

ويركز الكتاب على تفكيك المشهد الثقافي المعاصر الذي يعاني من سيطرة العقلية الاستهلاكية وتضخم الإنتاج، مما يحول القراءة والكتابة إلى أفعال عبثية أو استعراضية، وتتجلى العبثية في تحول الفضاءات الثقافية إلى مسارح للتظاهر، حيث تفقد القراءة جوهرها المعرفي العميق لصالح الشكل الخارجي، وأشير في الكتاب إلى الموجة العارمة على "الفيسبوك" التي تهتم بقراءة الكتب،

وخاصة الروايات، متسائلاً إن كان هؤلاء الشباب يقرؤون فعلاً أم أنهم "يستعرضون قشرة أخرى من قشور الثقافة".

ويقدم الكتاب تحليلاً سيكولوجياً لوضع الكاتب المعاصر، معبراً عن قلق وجودي أمام فيض النتاج المعرفي، ويصف الكتاب حالة من "الإحباط" و"عدم الجدوى" أمام منظر الكتب المتراصة، ويخلص إلى أن الكتابة أصبحت "الأسهل" و"أقرب سبيل للغرق في وهم المعرفة"، لأن القراءة العميقة "متعبة وشاقة"، هذا يفسر متلازمة الإنهاك الإبداعي التي قد يعاني منها أيّ كاتب، حيث يطالبه الهاجس الذاتي بضرورة قراءة كل كتب العالم ليتمكن من تجاوز أشباهه، وهو هوس أكاديمي مستحيل.

بعد تفكيك النمط التقليدي للقراءة، يؤسس الكتاب نموذجاً بديلاً يعتمد على الفطرة، والإبصار، والتدبر، متجاوزاً بذلك حدود الحرف المكتوب، فيحرر الكتاب مفهوم القراءة من الاقتصار على النص المكتوب ليرفعه إلى مستوى الفعل الوجودي المرتبط بالفطرة والعقل، وأرى أن "الجميع قارئ بالفطرة"، وأن القراءة لا تتوقف عند ترجمة الحرف المكتوب، بل هي مرتبطة بوجود "الحواس

الخمس، والعقل السليم، والقلب النابض"، ويتماهى مع أنماط التعلّم المعروفة: سمعي، وبصري، وقرائي، وحسي حركي.

أقدّم من خلال رواية "العجوز الذي كان يقرأ الروايات الغرامية" للكاتب لويس سيبولبيدا نموذجاً تطبيقيا يجسد مفهوم القراءة الشاملة، ويشير التحليل إلى أن القراءة في سياق الأحداث الروائية تمنح قوة معنوية تمكن الفرد من النجاح في المهام المصيرية.

كما أقدّم تحليلاً نقدياً مفصلاً لرواية "صلاة القلق" كنموذج تطبيقي لفاعلية القراءة الواعية في تفكيك الواقع، وفي سياق نقد الاستسلام، في حين يشير تحليل كتاب "رسائل من سُرَّة الأرض" في جزء منه إلى النقد اللاذع "للمثقّف المدجّن" و"مروّجي الخراب النفسي" و"الأدب المخصيّ" المرتبط باتفاقية أوسلو المشؤومة، ويُحلل مجاز "سُرَّة الأرض" كمركز دلالي.

ويولي الكتاب أهمية لعملية استقبال النص استقبالا فاعلاً، مشدداً على توفر الكفاءة النقدية لدى المتلقي لضمان سلامة الأفكار، كما يتم الإشادة بأخلاقيات التحرير الأكاديمي الذي يكون في صالح النصّ، ولا يشوّه مضامينه أو أفكاره.

يشكل كتاب **"القراءة قصص ومو اقف"** بياناً ثقافياً متماسكاً يدعو إلى تحويل القراءة من فعل سطحي استهلاكي إلى موقف وجودي وفعل إصلاح ذاتي عميق، ويحُلّ الكتاب التناقض الجدلي بين القراءة كفعل فردي وعدم القدرة على إحداث تغيير جمعي، ليخلص إلى أن القراءة هي في الأساس "عملية إعادة ترتيب للفرد ليكون أكثر حيوية في المجتمع".

يؤكد هذا الاستنتاج أن التغيير لا ينطلق إلا من الفرد "الصالح الواعي المنفتح المثقف المندمج في مجتمعه"، هذا الفرد، المتسلح بالقراءة العميقة (التي تشمل قراءة الواقع والناس)، يكتسب القوة المعنوية والأخلاقية (الحب والإنسانية) التي تمكنه من المقاومة الفاعلة ضد الانهيار السياسي والاجتماعي، وبالتالي، فالقراءة ليست عصا سحرية للتغيير الجمعي المباشر، بل هي شرط داخلي لازم لبناء الذات القادرة على الفعل، وعلى هذا النحو يُفهم معنى قوله تعالى "اقرأ" في مفتتح الوحي القرآني الذي قاد عملية التغيير الشامل في الجغرافيا المحلية ثم العالمية التي كان منشؤها الفرد أولاً المتمثل بشخص النبيّ محمد، عليه الصلاة والسلام، بدلالة الخطاب الموجّه

لـه والـذي سـيوجه لمن يـؤمن بـه مـن آحـاد النـاس الـذين سـيشـكلون جماعة التغيير بعد ذلك.

يقدم النص توصيات ضمنية لتشكيل ثقافة بديلة تتميز بالعمق والوعي:

الترشـيد المعرفي النـوعي: يجب على القرّاء والكتّاب تجاوز هـوس الإنتاج الكمي والعبثي، والتركيز على الكيفية والعمق.

دمج القـراءة في الوجـود: ضـرورة تبني القـراءة الواعيـة والشـاملة التي تتجاوز الحرف المكتوب لتقرأ الواقع والناس وأشياء أخرى، لأن هـذا الـنمط هـو مـا "تنتهجـه الحضـارات لتقـدمها واسـتمرار إشـعاع أفكارها وتوهجها العالميّ".

تبني النقد الذاتي المنهجي: على الكاتب/ القارئ أن يحـول القـراءة إلى "عمليـة حـوار وتفكيـر مصـاحبة" للـنص، وهـو مـا يضـمن اسـتمرارية العلاقـة الجدليـة بـين القـراءة والكتابـة والبحـث عـن المعرفة.

وفي الختام، سـعيت أن يكون كتاب "**القـراءة قصـص ومو اقـف**" دعـوة صـريحة لتحويـل القـراءة مـن فعـل ثقـافي مفتعـل إلى عمليـة توليدية، قـادرة على "إنتـاج" الـوعي الحقيقي والمقاوم، وهـو مـا يظل

الأساس الوحيد لإخراج النخب العربية من حالة الشلل الفكري والتحول من الوعي الفردي النظري إلى الفعل الاجتماعي- السياسي الفاعل.